الإباضية بين الفرق الإسلامية

عند كتاب المقالات في القديم والحديث

تأليف

علي يحيى معمر

الجزء الأول

الطبعة الثالثة

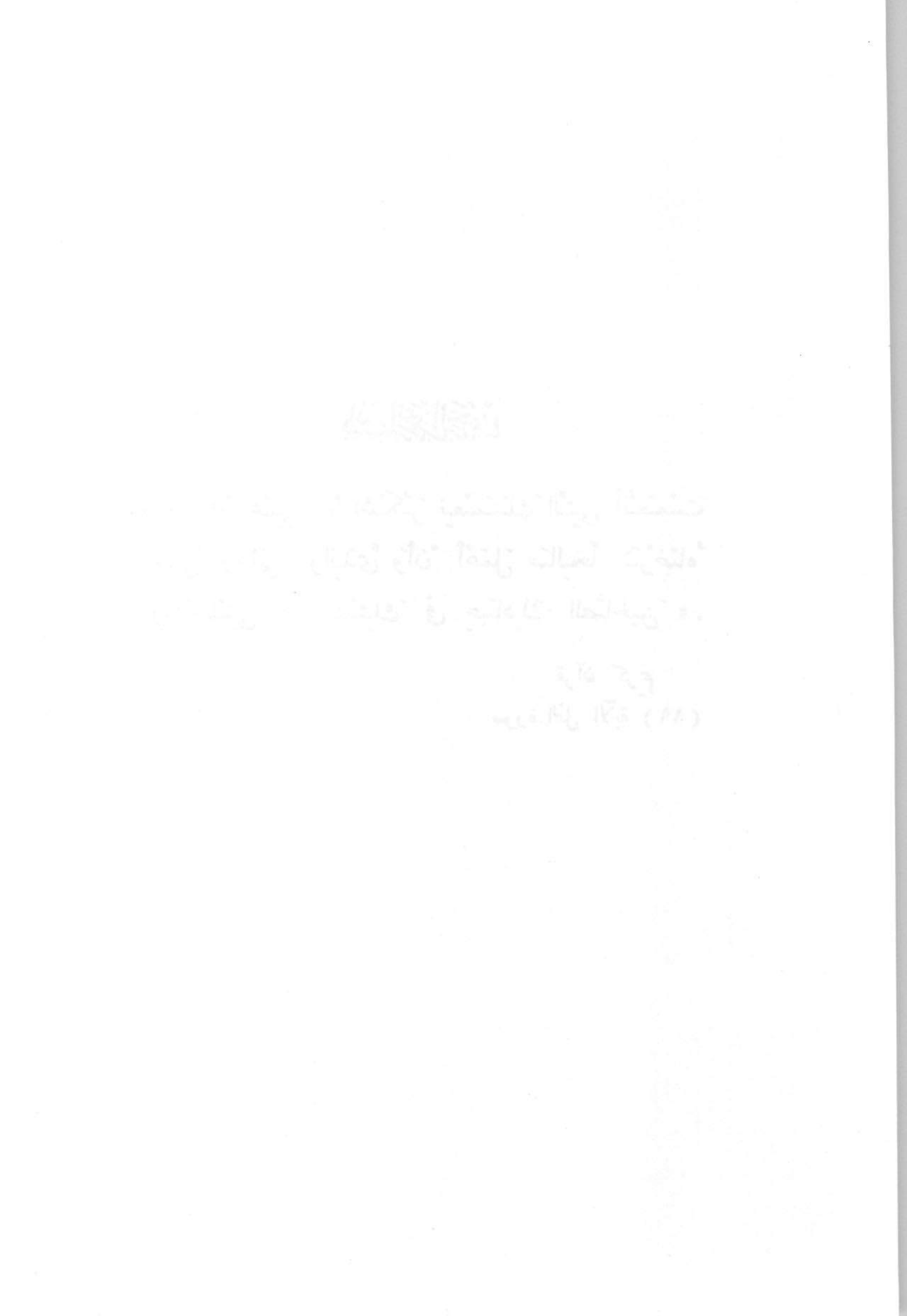
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

«رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ».

قرآن كريم

سورة النمل الآية (١٩)



يا أخى فى الله ! ..

أخى فى الله ! أرجو أن تقرأ هـذه الفصول المعروضة بين يديك فى هذا الكتاب محتسبا أجرك على الله . وأن تأخذ منها ما استبان لك أنه الحق بحفاوة . وأن تنبذ ما استبان لك أنه الباطل على طول يدك ، وأن تزن كل ذلك بالميزان الدقيق الذى لا يخطىء من قوله تعالى : « فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر » .

وأن تضع فى اعتبارك أننى أرى أن جميع الفرق والمذاهب الإسلامية تقف متساوية على صعيد واحد ، فليس فيها — بصفتها الجماعية — فرقة أفضل من فرقة ، ولا مذهب خيرا من مذهب . وأن فى المنتمين الى كل فرقة أو مذهب أتقياء بررة ، وأشقياء فجرة ، وسواداً أعظم وهو وسط بين ذلك .

وأن تعلم أن النقاش الذى جرى على قلمى — فى شدته ولينه ، وفى قسوته ورفقه — لا أريد به الدعوة الى المذهبية ، ولا الدفاع عن مذهبية ، وإنما أريد به تحطيم المذهبية . وأنا على يقين — فى نفسى — أن المذهبية فى الأمة الإسلامية لا تتحطم بالقوة ولا تتحطم بالحجة . ولا تتحطم بالقانون فإن هذه الوسائل لا تزيدها الا شدة فى التعصب وقوة فى رد الفعل . وإنما تتحطم المذهبية بالمعرفة والتعارف والاعتراف . فبالمعرفة يفهم كل واحد ما يتمسك به الآخرون ، ولماذا يتمسكون به . وبالتعارف يشتركون فى السلوك والأداء الجماعى للعبادات وبالاعتراف يتقبل كل واحد منهم مسلك الآخر برضى ويعطيه مثل الحق الذى يعطيه لنفسه (اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ) وفى ظل الأخوة والسماح تغيب

التحديات وتجد القلوب نفسها تحاول أن تصحح عقيدتها وعملها بالأصل الثابت فى الكتاب والسنة غير خائفة أن يقال عنها تركت مذهبا أو اعتنقت مذهبا •

ولن نصل الى هذه الدرجة حتى يعترف اليوم أتباع جابر وأبى حنيفة ومالك والشافعى وزيد وجعفر وأحمد وغيرهم ممن يقلدهم الناس أن أئمتهم أيضا يقفون فى صعيد واحد لا مزية لأحدهم على الآخرين الا بمقدار ما قدم من عمل خالص لله •

قيل عن الإباضية

* « وكل من يتهم الإباضية بالزيغ والضلال ، فهو ممن فرقوا دينهم ، وكانوا شيعا ، ومن الظالمين الجهال ، جمع الله ما فرقوا ورتق ما فتقوا ، ومزق شمل أعوان المستعمرين ، والله محيط بالكافرين »

خلاصة الرسائل فى ترتيب المسائل طبعة سنة ١٣٥٦ هـ

عضو المجمع العلمى العربى — عز الدين التنوخى

* « واذا كان الإباضيون أصحاب أمجاد فى الماضى ، فلا زالوا كذلك فى عصرنا الحاضر » •

إسلام بلا مذاهب : مصطفى الشكعة

* « ومن كل هذا يتبين • اعتدالهم وإنصافهم لمخالفيهم » •

كتاب المذاهب الإسلامية : محمد أحمد أبو زهرة

* « قول ابن إباض أقرب الأقاويل الى السنة » .

الكامل : المبرد

* « ورجال الإباضية يضرب بهم المثل فى التقوى والصلاح والزهد » .

تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الأفريقية : يحى هويدى

* « إطلاق لفظة الخوارج على الإباضية — أهل الإستقامة — من الدعايات الفاجرة التى نشأت عن التعصب السياسى أولا ثم المذهبى ثانيا » .

أبو إسحاق طفيش

* « يمكن أن تعتبر الإباضية أستاذة الفرق الإسلامية فى تأصيل قضايا العقيدة » .

بيوض إبراهيم بن عمر

• « [illegible] » •

[illegible]

• « [illegible]

[illegible]

[illegible]
[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مقدمـــة

اختار بعض من كتب عن عقائد الفرق الإسلامية وآرائها ومذاهبها من الكتاب القدماء ـــ كلمة المقالات ـــ فأطلقها على ما ذهبت إليه كل فرقة فى ذلك ، وأحسب أن اختيارهم لاستعمال هذه الكلمة فى هذا المجـــال كان موفقا جداً ، فان موافقهم ـــ رغم ما فيها ـــ لا تزيد عن مقالات •

وعندما يرجع الباحث اليـــوم الى أكثر تلك المقالات التى تـــوزع فيها المسلمون ، وتشتتوا الى فرق لا حصر لها ، يضرب بعضها بالبعض ، حسبما تقتضيه ظروف كل عصر ، يجد أن الجزء الأكبر منها لا يعـــدو مواضيع سياسية معينة ، تتناول بعض قضايا الحكم ، أو مشاكل التعامل بين المتخالفين فى رأى أو وجهة نظر معينة •

والحقيقة أن بعض الأقلام كانت مولعة بتكثير أصحاب المقالات ، فما تسمع بنقاش جرى بين اثنين حتى تسارع فتجعل لكل واحد منهما فرقة وتجعله إماما أو رئيسا لتلك الفرقة •

والشواهد على ذلك فى كتب المقالات كثيرة وقد يجد القارىء فى هذا الكتاب صوراً منها •

ولا شك أن أصابع السياســـة وراء هذا كله ـــ وســـواء فى ذلك السياسات الحاكمة أو السياسات المضادة لها ـــ ولا شـــك أيضـــا أن الأقلام التى تناولت ذلك سارت دون وعى ـــ فى أكثر الحالات ـــ فى ركاب سياسة مخططة فحققت لها كثيراً من المقاصد والأهداف •

ويلاحظ الدراس لهذا الموضوع ، أن كثيراً من الأشخاص الذين اعتبروا أئمة لفرق ، ونسبت إليهم أقوال فى قضايا الساعة ليسوا ـــ على

أحسن التقديرات — إلا رجالا من العوام أو أشباه العوام ، يملكــون ألسنة حادة ، أو سيوفا قاطعة ، أو إرادات صلبة ، فهم فى نظر السياسة خطر على أمن الدولة ، أى — على كراسى الحكم — • ومع ذلك فقــد نسبت اليهم مقالات شاذة فى قضايا تشغل فكر الجماهير فى ذلك الحين ، فهل كانوا حقا يقولون بها ، وهل كانوا حقا فى المستوى العلمى الــذى يتيح لهم أن يصدروا أحكاما فى مثل هذه المسائل الدقيقة ؟ أم إن السياسة الماكرة هى التى استطاعت أن تقوّلهم أو تدس عليهم ذلك • ثم توجــه إليهم الأنظار •• أنظار النفرة والكراهية ، فنجحت فى إدانتهم وإبعــاد الناس عنهم •

والباحث اليوم عندما يعــود إلى التنقيب عن هذا الموضوع يرى عجبا • فرق كاملة بأئمتها وأقوالها ومواقفها الحاسمة لا يعثر لهــا على أثر أبداً إلا ما يقصه عنها خصومها فى كثير من المبالغات •

عندما كنت أقرأ فى كتب المقالات ما يتصــل بالإباضية تصادفنى عجائب فى العقائد والآراء والأقوال تنسب إليهم ، إما بعبارات واضحة صريحة أو بأساليب ملتوية ، ولكنها معبرة ، وتصادفنى كذلك أســماء لأشخاص كثيرين يعتبرون أئمة لهم ، وأنا على يقين كامل بأن ذلك غير موجودِ عند الإباضية • فاذا كانت هذه الحال مع فرقة ينتشر أتباعهــا فى كثير من البلاد الإسلامية ، ولا يخلو قطر من أقطارها مــن كتبهم ، فكيف الحال مع من إنقرض فلم يبق له أتباع ، ولــم يترك كتبا مصنفة فيما يختص به ، وإنما عاش — إن صح هذا — يطفح على ميدان الحياة حتى طواه موج الزمن فى ذكرى التاريخ المجردة •

لقد أصاب الإباضية من كتاب المقالات كثير من الأذى ، قد لا يكون مقصودا ، ولكنه واقع ، وقد أحدث بالفعل فجوة بينهم وبين إخوتهــم فى بقية المذاهب ، كانت متسعة فى الماضى وأصبحت تضيق • ونرجــوا

أن تتمهد وتزول فى هذا العصر الذى يجب أن يتلاقى المسلمون فيه على وحدة العقيدة ، ووحدة العمل ووحدة السلوك ، فى مجابهة أعداء الإسلام ، مع مراعاة صادقة لحرية الرأى والفكر ، واحترام كامل لجميع أئمة المسلمين وعلمائهم السابقين • دون تهجم أو انتقاص ، ودون تقديس أو تعظيم [١]•

وفى هـذا الكتاب حاولت أن أرافق بعض الكتاب مـن القـدماء والمعاصرين ، لنتعاون على وضع هذه الفرقة من المسلمين (الإباضية) فى مكانها الحقيقى من الأمة الإسلامية • واضعا فى اعتبارى أن الكتاب القدماء يسعهم من العذر ما لا يسع الكتاب المعاصرين وإن أخطاء أولئك فى كثير من الأحيان ينتج عن عدم وجود الوسائل فى حين أن جميع الوسائل متوافرة لدى الكتاب المعـاصرين • أما المستشرقون فلهـم دوافعهـم الخاصة للكتابة عن الإسلام والمسلمين • ومناقشاتى فى جميع الفصول لجميع هؤلاء قد تتأثر بهذه الإعتبارات فيتغير الأسلوب من كاتب الى كاتب •

يشتمل الكتاب على ستة أقسام غير المقدمات كل قسم يحتوى على عدد من الفصول :

القسم الأول : مع القدماء •

القسم الثانى : مع المعاصرين •

القسم الثالث : مع المستشرقين •

القسم الرابع : آراء للإباضية •

القسم الخامس مفاهيم يجب أن تختفى •

---

(١) المقصود بهذه الكلمة اعتبار اى امام أو ولى معصوما أو كالمعصوم .

القسم السادس : ملاحظات وتعاليق •

أرجو أن أكون قد استطعت أن أضع بين يدى القارىء الذى يهمه أمر الأمة الإسلامية جمعاء صورة واضحة لمكان الإباضية فيها ، وأن أصحح بعض الأخطاء عنها توارثتها الأجيال ، وتعاون على تضخمها التعصب من جهة ، والجمود والتقوقع من جهة أخرى •

ويهمنى أن أذكر أنه يوجد خلاف بين الإباضية وغيرهم من المذاهب فى عدد من المسائل كما يوجد خلاف بين الحنفية وغيرهم والشافعية وغيرهم والمالكية وغيرهم وكما يوجد خلاف بين بقية المذاهب وبين علماء كل واحد من هذه المذاهب فيما بينهم • ولكن يهمنى أيضا أن أذكر أن هذا الخلاف فى مجموع صورة وموضوعاته إنما نتج عن أساسين •

الأول : فهم الأئمة والعلماء للأدلة فى نصوصها الثابتة من الكتاب والسنة •

الثانى : حرص أولئك العلماء والأئمة على إصابة الحق فى الفهم والاستدلال والعمل بالمقاصد الحقيقية للشريعة الإسلامية • وليس فى هذين الأساسين اللذين نتج عنهما الخلاف ما يدعو الى الخصومة أو القطيعة •

نضرع الى المولى تبارك وتعالى أن يلهم هذه الأمة رشدها ويوحد صفها وينصرها على المتربصين بها •

٢٥ مارس ١٩٧٢

الباب الأول

الإباضية فى قفص الاتهام

* مع القدماء .
* الإباضية عنـــد الأشعرى .
* تشنيعات الأشعرى على الإباضية .
* مقالات الإباضية عند الأشعرى .
* البغدادى والإباضية .
* ابن حزم والإباضية .
* أبو المظفر الاسفرايينى والإباضية .
* أبو الفتح الشهرستانى والإباضية .

الإباضية فى قفص الاتهام

ان وضع الإباضية بالنسبة الى إخوتهم من المذاهب الأخرى وضع غريب • فبرغم أنهم يعيشون فى بعض البلاد مندمجين مختلطين باخوتهم من المذاهب الأخرى ، يتعاملون معهم فى جميع شئون الحياة كما يتعامل بعضهم مع بعض • وتربط الكثير منهم علاقات مودة وصداقة أوثق كثيراً مما تربط أهل المذهب الواحـد ، ويتصرف أولئك الإباضيون فى المجتمع تصرف المسلم الطبيعى ، لا يخفى ولا يشـذ شىء من سلوكهم الدينى أو المدنى ، ولا ينقم عليهم إخوتهم أولئك الذين يعيشون معهم فى السراء والضراء ، بدعة يعرفونها ، أو انحرافا يرونه ، أو خلافا يدعو الى سوء الظن • رغم كل هذا فان تلك الكلمة التى أطلقتها عليهم شفة مغرضـة مجهولة ، فى فترة كانت السياسة تلعب فيها أهم الأدوار فى توجيه الفهم لمن ينتقد انحرافها عن منهج العدول من أصحاب رسول الله ﷺ ، منذ ذلك التاريخ فى العصر الأموى — فيما يبدو — والإباضية يقفون فى قفص الإتهام — يقاسون ألم الجفاء من إخوتهم لأنهم — فيما تزعم تلك التهمة الظالمة — (خولرج) ومن المؤسف أن أكثر الكتاب — سواء كانوا كتاب مقالات فى العقائد ، أو كتاب تاريخ يتتبعون مجارى الأحداث السياسية — وقفوا بالنسبة الى الإباضية موقف المدعى العام الذى يعتقد أن نجاح مرافعته يتوقف على إثبات التهمة أو قاضى التحقيق الذى يهمه أن يضع أوزار الجريمة على من ساقته الظروف إليه • ووضعته التحـريات بين يـديه •

فهم يضعون هذا المذهب وأتباعه فى قفص الإتهام أولا ، ويحكمون عليهم بأنهم مخطئون لأنهم خوارج ، وبعد ذلك قد يبحثون عن الأدلة ، ولكن لإثبات هذه الهمة • لا لمعرفة الحقيقة •

وعندما يتقدم الإباضية بعرض عقائدهم وآرائهم والأدلة الشرعية التى أستندوا اليها ، ويبينون سيرتهم وسلوكهم ، يعتبر كل ذلك منهم

كلاما فى موقف الدفاع ، لا يجوز على القاضى الذكى • فهو لا يسمعه ، ولا ينظر فيه ، واذا استمع إليه فلكى يلتقط منه جملا تعزز التهمة ، وقد يحرفها قليلا حتى تكون صالحة كدليل للإثبات •

وقد يعرض الإباضية عقيدة أو رأيا لهم بأدلته وبراهينه وهو فى نفس الأمر يوافق عقيدة القاضى • ولكن القاضى يصر مع ذلك أن القوم مخطئون وأن ما يقولونه إنما هو كلام للدفاع • ثم يحكم برفض الدفاع ، وإثبات الدعوى ، لا لشىء إلا لأنهم حسبما بلغ الى علمه (خــوارج) وحتى عندما يقول الإباضية عن عقيدة أو رأى أنه عندهم كفر وخروج من الملة ، فإن هذا القول لا يقبل منهم ، ويستمر إثباته لهم ومحاسبتهم عليه • وقد يبرأون من رجل ومن أعماله وأقواله ممن لا ينتمى إليهم ولكن يقال لهم أيضا : بل هذا الرجل من أئمتكم • ولو أنكرتم ذلك •

والمشكلة أن رافعى الإتهام لا يحاولوا أبدا أن يبحثوا عن الحقيقة ، ولا أن يرجعوا فى تحقيقهم الى مصادر الإباضية ، وإنما يتناقلون التهمة بنصها من جيل الى جيل دون اعتبار لصراخ المتهم الموجــود فى القفص أو اهتمام به أو سماع لدفاعه •

وفى عصرنا هذا اهتم عــدد من كتاب المقالات ، ومحققى الكتب : بشئون الفرق الإسلامية ، وعرض بعضهم فيمــا عرض للإباضية ، وبين يديه كتب قيمة لهم يستطيع أن يتخذها مراجــع يستقى منهــا أقوالهم ويستطيع أن يعرف فيها أصول ديانتهم وفروعها ويصحح — متأكدا — ما يجده من أخطاء عنهم فى غيرها • والى جانبه علماء فضــلاء منهم فى إمكانهم أن ييسروا له الوصول الى الحق ولكنه فى الواقع يزور عن ذلك ، ولا يرجع الى تلك الكتب ، ولا الى أولئك العلماء ، وإنما يعود بالتفتيش الى كتب ليست لهم وإنما كتبها غيرهم عنهم من ظروف مجهولة ، وهى غالبا لا تسلم من الأخطاء عن حسن النية إن سلمت من سوء النية ، بل هى عرضة للأخطاء من عدة جوانب منها :

١ ـ عدم توافر النزاهة الكاملة فى الكاتب .

٢ ـ سيطرة آراء معينة على الكاتب تجعله غير مستعد لفهم غيرها أو حتى مجرد مناقشتها .

٣ ـ كفاءة الدراسة والتحقيق قد لا تكون عنده بالدرجة التى يفرق بها بين الصواب والخطأ .

٤ ـ المصادر التى يستقى منها ويعتمد عليها ـ سواء كانت كتبا أم بشراً ـ قد تكون مغرضة ، وقد تكون مستغفلة ، وقد تكون مستغلة ، وقد تكون جاهلة لحقيقة ما تثبت .

٥ ـ وسائل الإتصال التى تساعد على البحث والوصول الى الحقيقة بالإتصال الشخصى المباشر كانت غير سهلة ولا ميسورة .

٦ ـ النفرة بين أتباع المذاهب المختلفة وسوء الظن ، وشدة التعصب ، وتمسك كل بما عنده والحكم مسبقا على الآخرين بالخطأ والضلال ، هذه العراقيل كلها أو بعضها تجعل الوصول إلى الحقيقة عسيراً حتى بالنسبة للنزيه الحريص على الحق ، فان سوء الظن يلقى ظلالا من الشك عليه لا تمكنه من الإطلاع .

٧ ـ الإشاعات الكاذبة ، والدعايات المضللة التى تنطلق عن دوافع سياسية غالباً ، فتصل الى ناس موثوق بهم ، فتجرى على ألسنتهم أو أقلامهم ، فتتلقفها منهم الآذان دون معرفة مصدرها الحقيقى ، والدوافع السياسية الماكرة الى الإيحاء بها .

هذه بعض الجوانب التى كانت تؤثر على الكتاب الأقدمين ، وقد

انتبه إليها بعضهم ، وعرف مدى تأثيرها على المؤلفين ، وما يتسبب عنها من أباطيل تلتصق بطوائف من المسلمين هم منها أبرياء •

يقول أبو الحسن على بن إسماعيل الأشعرى (١) ما يلى :

« ورأيت الناس فى حكاية ما يحكون من ذكر المقالات ، ويصنفون فى النحل والديانات ، من بين مقصر فيما يحكيه ، وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه ، ومن بين معتمد الكذب فى الحكاية ، إرادة التشنيع على من يخالفه ، ومن بين تارك للتقصى لروايته فيما يرويه ، من اختلاف المختلفين ، ومن بين من يضيف الى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به » • فأنت ترى أن أبا الحسن الأشعرى — وهو من أوائل من كتب فى هذا الموضوع — قد انتقد عدة عيوب فى أولئك الذين يتصدون للحديث عن مخالفيهم ، كالتقصير فى التحقيق ، واعتماد الكذب ، والغلط ، وعدم التقصى فى البحث ، والزيادة فى الأقوال لإلزام المخالفين الحجة •

أما الشهرستانى كتابه (الملل والنحل) فهو لم يذكر نقدا بهذه التفاصيل وإنما أشار إليها من طرف خفى ، فقد قال ما يلى (٢) :

« وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته فى كتبهم ، ومن غير تعصب لهم ، ولا كر عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله » •

وهذا الكلام يشعر أن الشهرستانى رأى كما رأى الأشعرى من قبله ، عدم التحقيق فيما يقال عن الفرق ، ولذلك فقد شرط على نفسه

---

(١) مقالات الاسلاميين طبعة النهضة ١٣٦٩ هـ صفحة : ٣٣ .

(٢) الفصل فى الملل والنحل طبعة ١٣٦٨ هـ صفة ٦٠ من الجزء الأول .

أن يأخذ أقوال أصحاب الفرق من كتبهم ، دون التعرض لنقـدها أو تصحيحها .

فهل استطاع أبو الحسن الأشعرى أن يتحقق أن مـا أورده عن الفرق قد سلم من تلك العيوب التى ذكرها وعزم أن يتحرز منها ، والتى انتقدها على غيره من المتحدثين والكتاب بقوة وجرأة تستدعيان أن تجاب ؟!! وهل استطاع الشهرستانى أن يوفى بشرطه ؟ وأن لا ينقل مقالات أهـل الفرق إلا مـن كتبهم ومصادرهم ؟! وأن يلتزم معها الحياد الكامل فلا يصوب ولا يخطىء ولا يرجح ؟

ذلك ما سوف نراه فى الفصول الآتية إن شـاء الله تعالى ، ونحن نرافق هؤلاء الأئمة العظام وغيرهم فى رحلة علمية ، نستمع فيها إليهم ونقرأ لهم ، ونأخذ عنهم . ونسترشدهم فى الوصول الى الحق الـذى هو غاية الجميع .

القسم الأول

مع القدماء :

إن الذين كتبوا عن العقائد الإسلامية ، واستعرضوا مقالات الفرق فيها — من القدماء — عـدد كبير ، وليس فى وسـع الدارس أن يتتبعهم جميعاً ولا أن يستحضر كل ما قالـوه ، ولكن فى إمكانـه أن يقـوم بدراسات بعضهم ، وأن يأخذهم كأمثلة أو نماذج يستدل بها على الأسلوب أو المنهج الذى سلكوه أو سلكه أكثرهم •

وبعد دراسة لموضوع الإباضية فى عدد من تلك الكتب ، واستعراض لمناهجها وأساليبها فى البحث ، استقر رأيى على اختيار خمسة من المؤلفين لأقوم معهم بهذه الرحلة العلمية ، التى آمل أن يجد كل قارىء يصحبنا فيها بعض المتعة إذا لم يتحصـل فيها على فائدة •

وقد فضلت أن أبدأ المسير مع هؤلاء الخمسة الذين اخترتهم كنماذج حسب ترتيبهم الزمنى على ما يأتى :

١ — أبو الحسن على بن اسماعيل الأشعرى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ

٢ — عبد القـاهر بن طاهـر البغـدادى المتـوفى سنة ٤٢٩ هـ

٣ — أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ

٤ — أبو المظفر شاهفور بن طاهر الأسفراييني المتوفى سنة ٤٧١ هـ

٥ — أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ

إننى أعتقد أن هؤلاء الكتاب هم من أشهر من كتب فى هذه المواضيع ، وكتبهم تعتبر مصادر ومراجع لا يستغنى عنها باحث فى هذا المجال ، وكل من جاء بعدهم إنما هو عالة عليهم ، منهم يأخذ ، أو على منهاجهم يسير .

وأما الكتب فهاهى حسب ترتيبهم السابق .

١ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين	الأشعرى
٢ ـ الفرْق بين الفرَق	البغدادى
٣ ـ الفصل فى الملل والنحل	ابن حزم
٤ ـ التبصير فى الدين	الأسفراييني
٥ ـ الملل والنحل	الشهرستانى

الإباضية عند الأشعرى

قد يعجب القارىء الكريم إذا قلت له : إن أبا الحسن الأشعرى رغم أنه كتب عن الإباضية كثيرا ، فإنه لا يعرف عن الإباضية شيئا ، وإن أكثر ما كتبه عنهم لا علاقة لهم بـه ، ولا علاقة له بهـم وليتضح للقارىء الكريم هذا القول فإننى أرجو منـه أن يرافقنى قليـلا ، وأن يقرأ الفصـول المعقودة لدراسة أبى الحسن الأشعرى مع الإباضية •

يقول أبو الحسن الأشعرى فى كتابه (مقالات الإسلاميين) صفحة ١٧١ من الجزء الأول ما يلى :

« ومن الخوارج الإباضية :

فالفرقة الأولى منهم يقال لهم الحفصية كان إمامهم حفص بن أبى المقدام ، زعم أن بين الشرك والإيمان معرفة الله وحـده ، فمن عـرف الله سبحانه ثم كفر بما سـواه من رسـول أو جنـة أو نار أو عمـل بجميع الخبائث من قتل النفس ، واستحلال الزنى ، وسائر ما حرم الله من فروج النساء ، فهو كافر برىء من الشرك » •

واستمر الأشعرى يذكر أمثال هذه الشنائع لهذه الفرقة ثم قال : « والفرقة الثانية منهم يسمون اليزيدية ، كان إمامهم يزيد بن أنيسة » ثم ذكر آراء هذه الفرقة وشنائعها ، ومنهـا : « وزعم أن الله سبحانه سيبعث رسولا فى العجم ، وينزل عليه كتابا من السماء يكتب فى السماء وينزل عليه جملة واحـدة » • ويقول بعد أسطر : « وتولى — أبى يزيد هذا — من شهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوءة من أهل الكتاب ، وان لم يدخلوا فى دينه ، ولـم يعملوا بشريعته ، وزعـم أنهـم بذلك مؤمنون • ثم يقول :

« والفرقة الثالثة من الإباضية أصحاب حارث الإباضى ، قالوا فى القدر بقول المعتزلة ، وخالفوا فيه سائر الإباضية » • وبعد أن يذكر لهم جملة من التشنيعات يقـول :

« والفرقة الرابعة منهم ، يقـولون بطاعة لا يراد الله بهـا ، على مذهب أبى الهذيل ، ومعنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعا لله ، إذا فعل شيئا أمره الله به ، وإن لم يقصد الله بذلك الفعـل ، ولا أراده به » •

هكذا بدأ أبو الحسن الأشعرى حديثه عن الإباضية فبمجرد ما ذكرهم بدأ فى تقسيمهم الى فرق ، وجعل ينسب الى كل فرقة جمـلة من الآراء والأقوال •

والقارىء الكريم عنـدما يبدأ فى قراءة ما كتبـه الأشـعرى عن الإباضية يفهم أن الإباضية ينقسمون الى أربع فرق كبرى هى هـذه الفرق التى ذكرها ، وأن بعض هذه الفرق قد انقسم أيضا الى فـرق أخرى فرعية ، وذكر الأشعرى أقوالا أخرى وشنائع أخرى نسب بعضها الى جميع الإباضية ، ونسب بعضها الى احدى تلك الفرق •

وعند الرجوع الى كتب الإباضية التى ألفت فى عصر أبى الحسن والتى ألفت قبله والتى ألفت بعده ، فإن القارىء لن يجد فيها شيئاً عن هذه الفرق ، ولا عن أسمائها ولا عن آرائها ولا عن أئمتها • وخذ ما شئت من كتب السير والتراجم عنـد الإباضية ، التى تتقصى أخبـار أئمتها وعلمائها ومشائخها ، فإنك لن تجد ولا إشارة عابرة الى أولئك الأئمـة الذين ذكرهم الأشعرى واعتبرهم أئمة لفرق كاملة من الإباضية •

واقرأ ما شئت فى كتب العقائد عند الإباضية ، فإنك لن تجد ذكرا لهذه الفرق ولا لآرائها ، وكل ما نستطيع أن نعتذر به عن ايراد أبى الحسن لهـذه التفاصيل أنه وقع فريسة لبعض المشنعين ، فكان يتلقى مقالات

الفرق عن ناس يثق بهم ، ولكنهم ليسوا فى المحل الذى يراه لهم ويضعهم فيه من الثقة والصـدق • سـواء كان نقـله عنهـم عن طريق الرواية والسماع ، أو عن طريق القراءة والإطلاع فى كتب مدونة • فهو لم يشر إلى أىّ ذلك على كل حال •

ويكفى فيما أعتقد لنفى أن يكون ما قاله أبو الحسن عن الإباضية صحيحا جهلهم به ، وعـدم ذكرهم لأى شىء منـه فى مراجعهم العامة والخاصة المكتوبة والمتحـدثة •

يقول أبو الحسن : « فالفـرقة الأولى يقال لهـم الحفصية ، كان إمامهم حفص ابن أبى المقدام ، ومع كثرة ما قلبت فى كتب الإباضية ومع العناية والبحث فإننى لم أعثر على هذا الإسم الذى اعتبره أبو الحسن إماما من أئمتهم • ولم اعثر كذلك على شىء من أخبار فرقته وآرائها • وقد نسب أبو الحسن الى هـذه الفرقة وإمامها لأقـوالا يكفى بعضها لإخراجهم من الإسلام ، والحكم عليهم بالشرك والردة ، إذا سـبق أن كانوا مسلمين ، منهـا : إنكار النبوة ، وإنكار الجنـة والنار ، ومنهـا استحلال الزنى وغيره مما حرمه الله ، وأشياء أخرى من هذا النـوع • وهى كافية — إذا قال بها حقا — للحكم بخروجه وخروج من تبعه فيها من الإسلام • فكيف يصح أن تنسب هذه الفرقة إلى إحدى فرق المسلمين ؟ وكيف يصح لن يقال فيهم إنهم فرقة من الإباضية ؟ ! •

قد تكون هذه الفرقة موجودة ولها علاقة ما بفرقة أخرى من فـرق المسلمين وقد يكون حفص هذا إماما فى أية فرقة أخـرى • أما أن يكون هو وأتباعه — إن وُجِدَ — وِوُجِدُوا — فى الإباضية ، وأن تـكون آراؤه التى سـاقها أبو الحسن آراء الإباضية ، فهـذا هـو المسـتحيل بعينه • ويتصفح أى كتاب من كتب العقائد عند الإباضية سـوف يتضح أن ما بها يناقض مناقضة كاملة لهذه المزاعم التى ساقها أبو الحسن على لسان حفص ونسبه ونسبها الى الإباضية •

ويقول أبو الحسن الأشعرى «والفرقة الثانية يسـمون اليزيدية ، كان إمامهم يزيد ابن أنيسة » وذكر فيما ذكر من آراء هذه الفرقة ما يلى : « وزعم — أى يزيد بن أنيسة — أن الله سبحانه سيبعث رسـولا من العجم ، وينزل عليه كتابا من السماء يكتب فى السماء وينزل عليـه جملة واحـدة ، فترك شريعة محمد ، ودان بشريعة غيرها وزعم أن ملة ذلك النبىء الصابئة ، وليست هذه الصابئة التى عليها الناس اليوم ، وليس هم الصابئين الذين ذكرهم اللـه فى القرآن ، ولم يأتوا بعـد ، وتولى من شهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة من أهل الكتاب وإن لـم يدخلوا فى دينه ولم يعملوا بشريعته ، وزعم أنهم بذلك مؤمنون » •

والغريب فى الأمر أن القارىء الكريم اذا رجع إلى مصادر الإباضية من كتب وأسماء علماء منذ أوائل القرن الثانى الهجرى الى هذا العصر فإنه لن يجـد عند الإباضية هذا الإمام الذى سماه أبو الحسن الأشعرى — يزيد بن أنيسـة — ولا يجـد عندهم ذكرا لفرقته ولا لآرائه ، بـل إنهم يحكمون على من يدين بمثل تلك المقالات بأنه مشرك خارج عن الملة ، ومن كان مشركا خارجا عن ملة الإسـلام ، لا يمكن أن يحسب فى فرق المسلمين • ولست أدرى كيف ساغ لأبى الحسن أن يزيد — هذا اليزيد — الى الإباضية ، وأن يحشر معهم فرقته • هذا ان وجـد حقا ووجـدت له فرقة — وكيف ساغ له أن يحسبها فى فرق الإسـلام ، وينسـبها الى إحدى طوائفه وهو نفسه يحكم عليها بالخروج من الإسـلام حين يقول فى الفقرة السـابقة : « فترك — أى يزيد بن أنيسة — شريعة محمـد صلى الله عليه وسلم ودان بشريعة غيرها » ويضيف أبو الحسن الفـرقة الثالثة الى الإباضية فيقـول :

« الفرقة الثالثة من الإباضية أصحاب حـارث الإباضى ، قالوا فى القدر بقول المعتزلة وخالفو فيه سائر الإباضية • وزعموا أن الاستطاعة قبـل الفعـل » •

وهذا الحارث أيضا لم يحـرث عنـد الإباضية ولم يزرع لا آراء ولا حبوبا ولم يحصد الإباضـية عنه أو عن فرقتـه شيئا • ان كان حقا حـرث فى أى مكان •

ولو أن أبا الحسن حشر هذا الحارث مع المعتزلة لكان أقرب ما دام يقول بقولهم فى القدر ، ومسألة القدر هى أم المسائل فى النقاش الفلسفى الذى جرى بين المذاهب الإسلامية فى وقت مبكر ، وكانت المميز الواضح بين مذاهبهم والمهم الموضوع أنه لا يوجـد لهذا الحارث الذى لم يجد أبو الحسن أبا فجـاء به هكذا يسـوقه حتى أدخله عند الإباضـية وتركه • لا يوجد عند أى الإباضية أى ذكر لهذا الحارث أو رأى أو فرقة أو نسب ، ولا حتى مـرور ضيافة فى مراجـع الإباضية مما استطعت الحصول عليه خالية منه ومن آرائه ومن فرقته فإذا كانت حقيقته وحقيقة آرائه فى الواقع كما هى عند الإباضية فإنه رجـل لا وجود له ولا لفرقته أما آراؤه فهى صـورة فى مخيـلة مشـنع على الإباضية ألقـاها على أبى الحسن فوثق به وأثبتها فى كتابه دون نقد أو تمحيص •

ويستمر أبو الحسن فى تعداد فرق الإباضية فيقول :

« والفرقة الرابعة منهم يقولون بطاعة لا يراد الله بهـا على مذهب أبى الهذيل » ثم يشرح هذه العبـارة فيقول : « معنى ذلك أن الإنسان قد يكون مطيعا لله اذا فعـل شيئا أمره الله بـه وان لم يقصـد الله بذلك الفعل ولا أراده به » •

ويبدو أن أبا الحسن لم يجد لهـذه الفرقة إماما ، فلم يذكـر لهـا اماما ، وانما جاء يسـوق أتباعها كما يسـاق القطيع حتى أدخلهم فى حظيرة الإباضية وتركهم • ولو أنه سمى هذه الفرقة بالهذلية • ما دامت تقول بقوله ، لكان لذلك وجـه ، لأنه لم يذكـر لهذه الفرقة قولا غـير القـول السـابق •

وعلى كل حال فهذه فرقة ليس لها امام وليس لها اسم ، وكل ما فى الأمر أنه نسب إليها قولا يناقض مناقضة كاملة ما عند الإباضية فى هـذا الموضـوع ، فكيف تـكون من الإباضية وهى تقول بمـا يناقض رأى الإباضية مناقضة كاملة •

والباحـث إذا تأمـل ما جـاء عن الإباضية فى كتاب « مقـالات الإسلاميين » لأبى الحسن الأشعرى ثم قارنه بما عند الإباضية • سـواء كان ذلك يتعلق بأسماء الأئمـة والعلماء ، أو بأسـماء الفرق • أو بالآراء والمذاهب ، فإنه يخرج بنتيجة غريبة • وهى أن ما أتعب الإمام الكبير به نفسه ، وكتب فيه صفحات طوالا عن الإباضية فيما يظن • لا علاقة لـه ألبتة بالإباضية ، وأن أولئك الأئمة الذين زعمهم أئمة لفرق منهم ، ليسوا هم ولا فرقهم من الإباضية فى قليل ولا كثير ، إذا صح هذا التعبير • أما مقالاتهم وآراؤهم فهى ليست أقرب الى الإباضية منها الى الشافعية أو المالكية أو غيرها من المذاهب الإسلامية •

ويستطيع القارىء الكريم أن يعود الى كتب التاريخ وكتب العقائد التى ألفها الإباضية قبل أبى الحسن الأشعرى وبعده اذا شاء أن يتأكـد ويعرف الحقيقة بنفسـه • فقـد ألف علماء الإباضية وأئمتهم الحقيقيون كثيرا من الكتب فى التفسير والحديث والفقه بجميع فروعه ، وفى التوحيد وعلم الكلام ، وفى أصـول الفقه كتبا مختلفة منها القيم الذى يعتبر من أهم مصادر الثقافة الإسـلامية التى تشع نورا على مختلف العصـور ويعتبر من الذخائر التى تزخر بها المكتبة الإسلامية العامة •

كما ألفوا فى السير والتاريخ والتراجم ، ولا سيما سير أئمة الإباضية وعلمائهم • ولكنه ليس فى شىء من هذه المؤلفات شىء مما ذكره الإمـام الأشعرى عن الإباضية فى هذا الفصـل من كتابه الكبير •

وفى عصر أبى الحسن الأشعرى كان الإباضية وعلماؤهم منتشرين

فى جميع ما يسمى اليوم بالبلاد العربية : كالحجاز والعراق والشام وجنوب الجزيرة ، ومصر • بل إنهم كانوا يكونون أغلب السكان فى المغربين الإسلاميين الأدنى والأوسط • ويوجد لهم عدد من كبار العلماء — حينئذ — فى كل الحواضر الإسلامية كمكة والمدينة والبصرة وعمان وحضرموت واليمن ومصر وبلدان الشمال الأفريقى •

ومع هذا فإن أبا الحسن لم يذكر أحدا من أئمة الإباضية كجابر بن زيد وجعفر بن السماك العبدى ، وأبى سفيان قنبر ، وصحار العبدى وأمثالهم من أئمتهم فى النصف الثانى من القرن الأول ولا ذكر شيئا من أقوالهم • ولم يذكر أحدا من أئمتهم فى النصف الأول من القرن الثانى أمثال أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، وضمام بن السائب ، وأبى نوح صالح الدهان ، وعبد الله بن يحيى الكندى ، والجلند بن مسعود العمانى ، وأبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى وهلال بن عطية الخراسانى — وأضرابهم • ولا ذكر شيئا من أقوالهم • ولم يذكر أحدا من علماء النصف الثانى للقرن الثانى أمثال الربيع بن حبيب ، وأبى سفيان محبوب ابن الرحيل ، وأبى صفرة عبد الملك بن صفرة ، وعبد الرحمن بن رستم ، ومحمد بن يانس ، وأبى الحسن الأيدلانى وأضرابهم ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم •

ولم يذكر أحدا من علمائهم فى النصف الأول للقرن الثالث أمثال أفلح بن عبد الوهاب وعبد الخالق الفزانى ومحكم الهوارى والمهنا بن جيفر ، وموسى بن على ، وأبى عيسى الخراسانى ، وأضرابهم ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم •

ولم يذكر أحدا من علمائهم فى النصف الثانى من القرن الثالث ، أمثال محمد بن محبوب ، ومحمد بن عباد ، والصلت بن مالك ، وأبى اليقظان بن أفلح ، وأبى منصور الياس وعمروس بن فتح وهود بن محكم ، ولم يذكر شيئا من أقوالهم •

ولم يذكر أحدا من علمائهم فى النصف الأول من القرن الرابع أمثال ابن خزر يغلى بن أيوب ، وأبى القاسم يزيد بن مخلد ، وأبى هارون موسى بن هارون ، ولا ذكر شيئا من أقوالهم • وقد كان علماء هذه الطبقة والطبقة التى سبقتها معاصرين لأبى الحسن الأشعرى ، لأنه عاش ثلاثين سنة من القرن الرابع فهو معاصر لعلماء النصف الثانى للقرن الثالث وعلماء النصف الأول للقرن الرابع ، ورغم ذلك فإن أبا الحسن لم يذكر أحدا من هؤلاء الأئمة أو ممن كان معاصرا لهم أو سبقهم من علماء وأئمة الإباضية المعروفين ولم يذكر شيئا من مقالاتهم •

فهو إما أنه لا يعرفهم ولا يعرف شيئا من مقالاتهم ، وإما أنه يعرفهم أو يعرف بعضهم على الأقل ويعرف مقالاتهم ، ولكنه لا يجد فيها شيئا يستدعى النقد والتعليق أو حتى مجرد العرض • فلم يتحدث عنهم وعن مقالاتهم بخير ولا بشر • فترك الإباضية الحقيقيين برجالهم ومقالاتهم ، وألقيت بين يديه مقالات وأسماء لفرق مجهولة عند الإباضية كل الجهل ، وأقوالها تناقض ما عند الإباضية كل المناقضة ، فزعمت المصادر التى استقى منها أن هذه الفرق والمقالات للإباضية باعتبارهم أباضية أو منهم ، والإباضية منها برآء بعداء ليسوا أقرب إليها من أبى الحسن نفسه •

فكيف وقع أبو الحسن فى هذا الخطأ الشنيع ، مع أنه من أوائل من انتبه إلى أسباب الزيف عند كتاب المقالات ومن أوائل من شرح الطرق التى يصل منها الخطأ إلى من يكتبون عن الفرق ومقالاتها ومذاهبها ، ومن أوائل من حذر من الوقوع فيها ؟ !!

تشنيعات الأشعرى على الإباضية

علمت أيها القــارىء الكريم فى الفصــل الســابق أن من ذكرهم أبو الحسن الأشعرى تحت عنوان الإباضية بأئمتهم وفرقهم ومقالاتهم ليسوا فى الإباضية من قليل ولا كثير ، ونضيف لك فى هــذا الفصل أن التشنيعات التى نسبها إلى الإباضية لا علاقة لها بهم ألبتة ، فإن كانت تلك الشنائع آراء لتلك الفرق التى ذكرها سابقا ، وأن تلك الفرق كانت موجــودة بالفعل ، فإن تلك الفرق أبعد الناس عن الإباضية وأن بعض مقالاتها كاف عند الإباضية للحكم على أصحابها بالشرك .

وإن شئت المزيد من ذلك فاستمع إليه يورد أقــوالا عن الإباضية تنسب إليهم قصد التشنيع عليهم .

يقول أبو الحسن :

« وقالوا من سرق خمسة دراهم فصاعدا قطع » .

« وقال بعضهم فيمن دخل فى دين المسلمين وجبت عليه الشرائع والأحكام ، وقف على ذلك أو لم يقف ، سمعه أو لم يسمعه » .

« وقال بعضهم : ليس على الناس المشى إلى الصــلاة والركوب إلى الحج ولا شىء من أسباب الطــاعات ، التى يتوصل بهــا إليهــا ، إنما عليهم فعلها فقط » .

« وقالوا جميعهم : إن الواجب أن يستتيبوا من خالفهم فى تنزيل

أو تأويل ، فإن تاب وإلا قتل ، كان ذلك الخلاف فيما يسع جهله أو فيما لا يسع جهله » .

« وقالوا : من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتيب فإن تاب وإلا قتل » .

« وقال بعضهم : ليس من جحد الله وأنكره مشركا حتى يجعل معه إلها غيره » .

« وقال بعضهم : بتحليل الأشربة التى يسكر كثيرها إذا لم تكن الخمر بعينها » .

هذه أمثلة من الأقوال التى نسبها أبو الحسن إلى الإباضية وظاهر أن القصد من نسبة هذه الأقوال إليهم إنما هو التشنيع عليهم وتكريههم إلى بقية فرق المسلمين وتأمل قوله « وقالوا جميعهم إن الواجب أن يستتيبوا من خالفهم فى تنزيل أو تأويل ، فإن تاب وإلا قتل » .

والتناقض واضح بين الأقوال التى ينسبها أبو الحسن إلى الإباضية أو الى بعض فرق الإباضية حسب زعمه . وقارن إن شئت الفقرة السابقة بما يقوله عن الإباضية (١) «ويزعمون أن مخالفيهم من أهل الصلاة كفار وليسوا بمشركين حلال مناكحتهم وموارثتهم » ويقول بعد أسطر :

---

(١) يزعم هنا انهم يوجبون استتابة مخالفيهم فمن لم يقبل قتل ثم يقول فى نفس الكتاب انهم يجوزون مناكحة مخالفيهم وموارثتهم وشهادتهم على اوليائهم وحرموا دماءهم . فكيف تقبل شهادة من يجوز قتله وكيف تربط اواصر مصاهرة مع من ترى وجوب قتله : انه التناقض الذى لا يخفى وهو كلام يسقط نفسه .

« وحرام قتلهم وسبيهم » التناقض هنا واضح وقصد التشنيع ممن نسب إليهم ذلك واضح . ولست أتهم أبا الحسن كما قلت غير مرة ، ولكنى أتهم المصادر التى استقى منها والمراجع التى اعتمد عليها ، سواء كانت مصادر مكتوبة أو كانت مصادر متحدثة . ونحن نعتب على أبى الحسن وهو الذى يقرر فى أول كتابه أن كثيرا ممن يكتب عن مقالات الفرق يتعرض للكذب ، وعدم التحرى ، وعدم التقصى فى البحث ، والغلط فى إيراد الأخبار — أن يقع فريسة سهلة رغم معرفته لذلك — وأن يقع فيما وقع فيه غيره ممن خفيت عليهم دسائس السياسة الماكرة ومكائد العصبية الفاجرة ، وأكاذيب الغلاة والمتنطعين . وهم موجودون فى كل مذهب وفرقة بلا استثناء .

ومما يدخل فى هذا الباب من تلفيق الأخبار والقصص ، للتشنيع على الفرق المخالفة ما أورده أبو الحسن فى كتابه السابق فقد قال : فى ص ١٧٥ ما يلى :

« وكان رجل من الإباضية يقال له ابراهيم ، أفتى بأن بيع الإماء من مخالفيهم جائز ، فبرىء منه رجل منهم يقال له ميمون ، وممن استحل ذلك ، ووقف قوم منهم فلم يقولوا بتحليل ولا تحريم ، وكتبوا يستفتون العلماء منهم فى ذلك ، فأفتوا بأن بيعهن حلال ، وهبتهن فى دار التقية حلال ، ويستتاب أهل الوقف من وقفهم فى ولاية ابراهيم ومن أجاز ذلك ، وأن يستتاب ميمون من قوله ، وأن يبرأ من امرأة كانت معهم ، كانت وقفت فماتت قبل ورود الفتوى ، ولن يستتاب ابراهيم فى عذره لأهل الوقف فى جحدهم الولاية عنه — وهو مسلم يظهر إسلامه — وأن يستتاب أهل الوقف فى جحدهم البراءة عن ميمون

ـ وهو كافر يظهر كفره ـ فأما الذين وقفـوا ولم يتوبوا من الوقف وثبتوا عليه • فسموا الواقفة ، وبرئت الخوارج منهم ، وثبت ابراهيم على رأيه فى التحليل لبيع الإماء من مخالفيهم وتاب ميمون » •

ولم تنته القصة عند هذا الحـد ، وإنما استطرد الإمام ثم عـاد بعد سبعة أسطر فقال :

« ثم رجع بنا القول إلى الإخبـار عن الاختـلاف فى أمر المرأة ، فافترقت فرقة فى الواقفة وهم الضحاكية ، فأجازوا أن يزوجـوا المرأة المسلمة عندهم من كفار قومهم فى دار التقية ، كما يسع الرجـل منهم أن يتزوج المرأة الكافرة من قومه فى دار التقية ، فأما فى دار العلانية ـ وقد جازحكمهم فيها ـ فإنهم لا يستحلون ذلك فيها •

ومن الضحاكية فرقة وقفت فلم تبرأ ممن فعـله ، وقالوا لا نعطى هذه المرأة المتزوجة من كفار قومنا شيئا من حقـوق المسلمين • ولا نصلى عليها إن ماتت ، ونقف فيها ، ومنهم من برىء منها •

واختلفوا فى أصحاب الحـدود فمنهم من برىء منهم ، ومنهم من تولاهم ، ومنهم من وقف واختلف هؤلاء فى أهل دار الكفر عندهم • فمنهم من قال : هم عندنا كفار ، إلا من عرفنا إيمانه بعينه ، ومنهم من قال هم أهل دار خلط فلا نتولى إلا من عرفنـا فيه إسـلاما • ونقف فيمن لا نعرف إسلامه ، وتولى بعض هؤلاء بعضـا على اختلافهم • وقالوا : الولاية تجمعنا ، فسموا أصحاب النساء ، وسموا من خالفهم من الواقفة أصحاب المراة • وصارت الواقفة فرقتين ، فرقة تولوا الناكحة ، وفرقة ينتسبون إلى عبد الجبار بن سليمان ، وهـم الذين يتبرأون من المرأة الناكحة من كفار قومهم •

وهذا خبر عبد الجبار الذى خطب إلى ثعلبة ابنته ، فسأل ثعلبة أن بمهرها أربعة آلاف درهم ، فأرسل الخاطب إلى أم الجارية مع إمرأة يقال لها أم سعيد يسأل هل بلغت ابنتهم أم لا ؟ وقال إن كانت بلغت وأقرت بالإسلام لم أبال ما أمهرها ! فلما بلغتها أم سعيد ذلك قالت : ابنتى مسلمة بلغت أم لم تبلغ ، ولا تحتاج أن تدعى إذا بلغت ، فرد مرة أخرى ذلك عليها ، ودخل ثعلبة على ذلك الحال ، فسمع تنازعهما ، فنهاهما عنه ، ثم دخل عبد الكريم ابن عجرد وهما على تلك الحال . فأخبره ثعلبة الخبر ، فزعم عبد الكريم أنه يجب دعاؤها إذا بلغت ، وتجب البراءة منها حتى تدعى إلى الإسلام ، فرد عليه ثعلبة ذلك وقال : لا ! بل تثبت على ولايتها فإن لم تدع لم تعرف الإسلام ، فبرىء بعضهم من بعض على ذلك » .

هكذا انتهت هذه القصة التى أخذت جهدا غير قليل من الإمام الكبير ، وحيزا فسيحا من كتابه القيم ، ووقتا ثمينا من أوقات القارىء وواضح أنه ليس لهذه القصة أية قيمة ، اللهم الا إذا كانت للتسلية والضحك ، أو عند من يجمع مشاكل الناس اليومية للتهويل والتشنيع .

يضاف إلى ذلك أن جميع أبطال القصة ناس مجهولون لا يعرف عنهم شىء . إن أى كاتب يستطيع أن يجد عشرات القصص من هذا النوع فى الأحداث اليومية التى تجرى بين الناس ، فيختلفون ويتخاصمون ، ويعلن بعضهم بعضا ، ويدعو عليه بالثبور وعظائم الأمور وقد يتضاربون فتكون نهاية مشاكلهم عند المحاكم أو حتى فى السجون . وأن كثيرا مما نراه ونسمعه فى كل المجتمعات قد تكون أحداثه أكثر

عجبا وإثارة من هذه القصة التافهة التى تمنيت بحق — لو أن الإمام الكبير أبا الحسن أكرم كتابه ، ونزه قلمه عن الخوض فى هذه الترهات ، وربأ بنفسه عن الاندماج فى هذه السفاسف المفتعلات ، والتى تنال من كرامة قائليها أكثر مما تنال من كرامة من تنسب اليهم .

ولو أن أبا الحسن لم ينسب هذه القصة إلى الإباضية لما كان لى بها شأن فى الوقت الحاضر . أما وقد نسبها إلى الإباضية فأرانى — وأنا أكتب عنهم فى هذا الموضوع — مضطرا آن أوضح للقارىء الكريم فيها بعض النقط .

١ — وردت فى القصة أسماء عدد من الأشخاص هم : ابراهيم ، ميمون ، عبد الجبار ، سليمان ، ثعلبة ، عبد الكريم بن عجرد ، أم سعيد . كما وردت فيها أوصاف لعدة أشخاص هم : العلماء ، الإماء ، امرأة ، امرأة ثعلبة إلخ .

وهذه الشخصيات كلها مجهولة ، سواء ما ذكر منها بالإسم أو بالوصف ، ولا يعرف عنها شىء ، فما قيمة هذه المشاجرة التى تقع بين أفراد مجهولين فى تحقيق علمى يراد منه إثبات آراء فى العقائد ، وتصنيف فرق الأمة على أساس تلك الآراء ، إن أبا الحسن لم يذكر شيئا عن تلك الأسماء المجردة ، فهل يكفى هذا ليكونوا فى الإباضية ؟ ولماذا لم يحسبوا من المالكية أو المعتزلة أو الشيعة أو غيرهم من الفرق والمذاهب الأخرى ، ثم إذا فرض أنهم كانوا حقا من أتباع الإباضية أو غير الإباضية من المذاهب فهل يكفى هذا الموقف فى الشجار والملاعنة لأن يكون كل فرد من المتشاجرين صاحب رأى ورئيس فرقة ؟

٢ — إنك واجد فى جميع الطوائف الإسلامية مشاجرات واختلافات من هـذا النوع فى كل عصر ، بل ربما تجد أحـد" منها وأوسع مـدى ، فما الذى رفع قيمة هذه المشاجرة حتى اهتم بها الإمـام أبو الحسن ، وأثبتها فى كتابه ؟

٣ — إن البحث عن أسماء مجـردة هكذا كإبراهيم ، وسليمان ، وميمون ، فى أحداث التاريخ بحث لا طائل تحته ولا يوصـل منـه إلى نتيجة ، ومع ذلك فقد حاولت أن أتقصى كل أسماء ابراهيم ، وسليمان ، وميمـون ، وثعلبة ، وعبد الكريم ، لعلى أجـد ما يربط بين أحـد تلك الأسماء وبعض أحداث القصـة السابقة — فيما بين يدى من مصـادر التاريخ الإباضى وكتب مقـالاتهم — فلم أتمكن من تحقيق هذه النزوة الحمقاء التى أخذت منى جهدا غير قليل فى البحث والتنقيب • وحاولت أن أجد قصة عند الإباضية تشبه من قريب أو بعيد أحـداث هذه القصة ولو اختلفت فيهـا أسماء الأبطـال فلم أوفق فى ذلك • وعلمت فى كتب المقالات أن بعض هذه الأسماء تنسب إليهم فرق مستقلة تحت العنوان الكبير (الخـوارج) ويطلق عليهـا أسماء منسـوبة إليهم كالثعالبة ، والعجاردة ، والميمونية •

ومن المؤسف أن الإباضية لا يعرفون شيئا لا تاريخيا ، ولا دينيـا — عن قصة تنسب إليهم كادت تشغل البوليس الدولى ، مما يـدل على أنهم فى الواقع لم يحضروا ذلك النزاع الواقع على بيع الإماء ، ولا النزاع الواقـع فى خطبة بنت ثعلبة ، ولـم يقفوا فى تلك السـوق الحامية ، ولا شهدوا ذلك العرس الذى نتج عنـه سـيل من الشتائم ، وتبـادل اللعنات • فنسبة هذه القصة إلى الإباضية من أعجب العجب — ، ونسبة

أبطالها إلى أئمة الإباضـيـة أو علمائهـم ، من أكاذيب التاريخ التى لم تتستر حتى بقليل من الحياء ، وإن جازت حتى على كبار الأئمة أمثـال أبى الحسن .

ولا شك أن مخترع هذه القصـة إنما أراد أن يكثر من عدد الفرق الفرعية المنسوبة إلى الإباضية حتى يظهرهم بمظهر المتشددين الذين يتنازعون لأتفه الأسـباب ، فيتحالفون ويفترقون إنسياقا وراء العواطف ودوافع الغضب أكثر مما هو انسياقا وراء دوافع العقيدة والدين .

وقد استطاع أن يخترع هذه القصـة وأن يولد من أحـداثها عددا من الفرق أطلق عليها أسماء : الضحاكية ، أصحاب النسـاء . أصحاب المرأة . الواقفة .

ومفهوم بالبداهة أن شخصا ما أراد التشنيع على الإباضية فاخترع هذه القصة ونسجها على المنوال ثم وجـد أبا الحسن الأشعرى وهـو يهتم بدراسة الفرق وأقوالها وآرائها فألقاها إليه فأثبتها أبو الحسن دون تمحيص أو تحقيق . وليت أبا الحسن حين كتب هذا نسبه إلى مصدره حتى تبرأ ساحة الإمام العظيم من أية مسئولية ، وتكون العهد راجعة إلى أصحابها .

مقالات الإباضية عند الأشعرى

لقد علم القــارىء الكريم أن أبا الحسن الأشعرى كان يحسب أن الإباضية يتكونون من الفرق السابقة التى ناقشناه فيها ، والتى أثبتنــا للقارىء الكريم بأنه لا صلة بينها وبين الإباضية • وفى حــديثه عن تلك الفرق كان يعرض — حسب ظنه — مقالات الإباضية ونحــن فى هــذا الفصل سوف نحاول أن نكشف أن أبا الحسن فى عرضه لتلك المقالات كان أيضا عرضة للانسياق مع قوم غلب عليهم حب التشنيع ، فالتجأوا إلى الغموض والإبهام حينا ، وإلى عبارات موهمة لمعــان غير محدودة أو غير مقصودة حينا آخر ، كما تساهلوا فى إضافة أقوال أو تغييرها لإثبــات ما يريدون •

يقول أبو الحسن فى كتابه مقالات الإسلاميين (١) وهو يتحــدث عن الإباضية : « وجمهور الإباضية يتولى المحكمة كلها إلا من خــرج ، ويزعمون أن مخالفيهم من أهل الصلاة كفار وليسوا بمشركين ، حــلال مناكحتهم وموارثتهم • حــلال غنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب ، حرام ما وراء ذلك ، وحرام قتلهم وسبيهم فى السر ، إلا من دعا إلى الشرك فى دار التقية ودان به ، وزعموا أن الدار يعنون دار مخالفيهم — دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار كفر يعنى عندهم •

وحكى عنهم أنهم أجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم ، وحرموا الاستعراض إذا خرجوا : وحرموا دمــاء مخالفيهم حتى يدعــوهم إلى

---

(١) مقالات الاسلاميين الجزء الأول طبع مكتبة النهضة ص ١٧٠ .

دينهم ، وقالوا إن كل طاعة إيمان ودين ، وإن مرتكبى الكبائر موحدون وليسوا بمؤمنين » •

ويقول فى موضع آخـر من الكتاب :

والإباضية يقولون إن جميع ما افترض اللـه سبحانه على خلقه إيمان ، وأن كل كبيرة هى كفر نعمة لا كفر شرك ، وأن مرتكبى الكبائر فى النار خالدون مخلدون فيها •

ووقف كثير من الإباضية فى إيلام أطفـال المشركين فى الآخـرة ، فجوزوا أن يؤلمهم الله سبحانه فى الآخـرة على غير طريق الانتقـام ، وجوزوا أن يدخلهم الجنة تفضـلا • ومنهم من قال : إن الله سبحانه يؤلمهم على طريق الإيجـاب ، لا على طريق التجويز » •

ويقول فى صفحة ١٨٦ من نفس الكتاب :

« ومن مؤلفى كتبهم ومتكلميهم عبد اللـه بن يزيد ، ومحمـد بن حرب ، ويحيى بن كامل وهؤلاء إباضية » •

ويقول فى صفحة ١٨٩ من نفس الكتاب ما يلى :

« إلا أن الإباضية لا ترى اعتراض الناس بالسيف ، ولكنهم يرون إزالة أئمة الجـور ، ومنعهم من أن يكونوا أئمة بأى شىء قدروا عليـه بالسيف أو بغـيره ••

هـذا أهـم ما قاله أبو الحسن الأشعرى عن الإباضية ومقالاتهم بالإضافة إلى التشنيعات السابقة التى نقلت للقـارىء الكريم أكثرهـا فيما مضى • ولعـله من المهـم أن أوضـح للقارىء الكريم فى هـذا الفصل أن جميع الأسماء التى وردت فى الفصل الذى كتبه أبو الحسن

عن الإباضية لا علاقة لها بالإباضية فيما عدا اسمين هما عبد الله بن إباض وهو الإمام الذى ينسب إليه المذهب وعبد الله بن يزيد الفزارى كان من الإباضية وخالفهم فى بعض المسائل فانفصل عنهم وانتظم فى فرقة التكار وقد ذكر ابن النديم عددا من الكتب المنسوبة إليه منها :

كتاب التوحيد ، كتاب الرد على المعتزلة ، كتاب الرد على الرافضة ، كتاب الاستطاعة • ولا أعلم أن شيئا من هذه الكتب قد بقى فى مكان ، أما أصحاب هذه الفرقة فلم يبق لهم وجـود فيما أعلم •

أما محمد بن حرب ، ويحيى بن كامل اللذان نص أبو الحسن أنهما من متكلمى الإباضية ومؤلفيهم كأنما كان يشك فى السابقين وهـو على يقين فى هؤلاء ، فإنه لا يوجـد لهما أى ذكر عند الإباضية فيما اطلعت عليه ، ويؤسفنى أن أرد على الإمام الكبير نصه هذا • وله أن يحشرهما فى أية فرقة أخرى أما عند الإباضية فليس لهما مكان إنه لا يوجـد لهما أى أثر فى المكتبة الإباضية الواسعة التى حرصت أن تحتفظ بتراثها منذ القرن الأول فحفظت فتـاوى ومراسـلات الأئمة جابر وأبى عبيـدة وغيرهم وحتى ما ضاع منها حفظت أسماؤها وبعض ما جاء فيها كديوان جابر وتفسير عبد الرحمن بن رستم وتفسير أبى يعقوب الوارجلانى •

إن كتب الإباضية ، التاريخية منها والشرعية لم تذكر لنا شيئا عن هذين الرجلين ولا عن مقالاتهما أو مؤلفاتهما كما لم تذكر ذلك عمن سبق أن نسبة أبو الحسن إلى الإباضية • وأنا حين أؤكد للقـارىء الكريم هذا النفى فإنما أؤكده فيما وصلت إليه يدى من كتب الإباضية المطـولة منها والمختصرة ، ولا أدعى استقصاءها فإن ذلك من المستحيل •

وقد يقول قائل ربما ضاعت هذه الكتب فى زحمة التاريخ وهذا شىء مألوف • ولا شك أن ضياع الكتب شىء لا ينكر • ولكن الكتاب إذا ألف وعرفه الناس فلابد أن ينقل عنه أو على الأقل أن يذكر اسمه ويذكـر مؤلفه • سواء أخـذت منه آراء أو أقوال أو لم تؤخـذ • وهذا ما لـم يحدث بالنسبة لهؤلاء • فلم تذكر أسماؤهم ولا كتبهم ولا بعض آرائهم ما يجعلنا نجزم بأنهم لم يكونوا من الإباضية مطلقا بل نجـزم أنهم غير معروفين عنـد الإباضية وحتى الذين ذكروهم فى تعـداد الفرق كالقطب وعبد الكافى فإنما اعتمد على غير مصادر الإباضية •

ولا شك أن الإباضية من أول المذاهب التى اهتمت بالتأليف وحرصت على الاحتفاظ بآثار الأئمة وتاريخهم وتراجمهم ، وليس فيما اطلعت عليه أى ذكر لهؤلاء الناس ، ومعنى ذلك أنهم من غير الإباضية ونسبوا إليهم خطأ • وهذا يؤكـد ما ذهبنا إليـه أولا فى أن أبا الحسن لا يعـرف الإباضية فى الحقيقة وأن ما كتبه عنهم إنما نسب إليهم خطأ أو جهـلا أو قصدا للتشنيع • أما المقـالات التى نسـبها إلى الإباضية فى عمومها والتى نقلت لك بعضها فى أول هذا الفصل ، فهى مزيج مما يقره الإباضية ويقولون به ، ومما ينكرونه ويردونه ، ومما يحكمون على من يقول بـه بالردة والكفر ، وواضح من هذا أن ما جاء موافقا لمقالاتهم وعقـائدهم فإنما جاء عن طريق الصدفة ، لا عن طريق الدراسة والمعرفة •

ويهمنى فى ختام هذا الفصل أن أؤكـد من جديد للقارىء الكريم أننى أضع الإمام أبا الحسن فوق الشبهات ، وإنما انجر اليـه الخطأ عن طريق من وثق فيه ونقـل عنه • فى عصر كثرت فيه النزعات •

ونستخلص من مناقشاتنا لأبى الحسن فى الفصول السابقة ما يلى :

١ — إن جميع الأشخاص الذين اعتبرهم أبو الحسن إما رؤساء لفرق من الإباضية ومن مؤلفيهم ومتكلميهم لا وجود لهم عند الإباضية •

٢ — الإباضية لا يعرفون شيئا عن هؤلاء الرجال ولا عن فرقهم •

٣ — الإباضية لا يعرفون أيـة فرقة من تلك الفرق التى نسـبها أبو الحسن إليهم ولا يقولون بأكثر أقوالها •

٤ — المقالات التى نسبها — هكذا على العمـوم — إلى الإباضية أو إلى جمهورهم هى خليط مما يذهب إليـه الإباضية • ومما يردونه ، ومما يحكمون بالشرك على معتنقيه •

٥ — بدأ الإباضية بالفعـل فى تأليف الكتب منذ القـرن الثـانى الهجرى • وتسلسلت الكتب وتسلسل العلماء والأئمـة إلى اليوم وليس فى هذه السلاسل شىء مما نسبه إليهم أبو الحسن •

٦ — عاش أبو الحسن الأشعرى فى القرن الثالث الهجرى وعاش ثلاثين سنة فى القرن الرابع • وقد كان للإباضية إمامات بالمشرق وإمامات بالمغرب واشتهر لهم أئمة وعلماء ومفسرون ومحدثون ومتكلمون ، وفقهـاء فى أكثر العواصم الإسلامية حينئذ ولكنه لم يذكر أحـدا منهم ولم يشر إلى كتاب من كتبهم •

٧ — الفترة التى عاش فيها أبو الحسن كانت فترة ازدهار علمى للإباضية فى المشرق والمغرب ورغم ذلك فإن أبا الحسن لم يشر إلى أحـد من معاصريه من علماء الإباضية •

ومعنى هذا كله أن الإباضية الذين كتب عنهم أبو الحسن لا وجود لهم فى الواقع ، وان الإباضية الموجودين فى الواقع والذين كانوا يعيشون كما يعيش سائر الناس لا وجود لهم فيما كتبه عنهم أبو الحسن . أى أن أبا الحسن لم يكتب عن الإباضيين الحقيقيين .

ومنذ ألف أبو الحسن الأشعرى كتابه « مقالات الإسلاميين » ، أصبح مصدرا يستقى منه الكتاب ، ومرجعا يعود اليه المؤلفون ، فينقلون ما فيه من أخطاء وصواب ، وحق وباطل ، تارة بالنص وتارة بالمعنى ، وتارة يشيرون إليه وأحيانا يغفلون عن الإشارة .

ولقائل أن يقول إن هناك مؤلفين آخرين كتبوا فى الموضوع ، فى عصر أبى الحسن من قبله أيضا وهذا صحيح . غير أننى أستطيع أن أزعم أن شهرة أبى الحسن ومركزه العلمى ، ومواقفه فى مجالات المحاججة والجدل جعلته يطغى على الآخرين جميعا . فأصبح أهم مرجع وأوثق حجة عند المؤلفين الذين جاءوا من بعده .

ولا يسعنى وأنا أختتم هذا الفصل إلا أن أبدى ملاحظة ربما تساعد على تبرير ما بلغ إلى الإمام الأشعرى كما بلغه وذلك أنه ربما كان من طلاب جابر أو طلاب أبى عبيدة من عرف بتلقيه العلم عن أحدهما واشتهر بذلك وظنه الناس إباضيا بينما هو لم يكن من الإباضية أو أنه قال ببعض تلك المقالات فأعرض عنه الإباضية ولم يحسبوه منهم ولم يذكروه فى سيرهم وتوهمه غيرهم أنه منهم رغم ما يقول به .

البغدادى والإباضية

بعد أبى الحسن الأشعرى بنحو قرن تقريبا جاء مؤلف آخر اهتم بالحديث عن الفرق والمقالات الإسلامية . هذا المؤلف هو :

عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى . وقد اشتهر بنسبته الأخيرة بين المؤلفين .

كتب البغدادى عن الإباضية كما كتب عن غيرهم من الفِرَق الإسلامية فى كتابه — ألفرق بين الفِرْق — الذى حققه الأستاذ : محمد محيى الدين عبد الحميد وعلق عليه ونشره .

إن القارىء بمجرد البدء فى قراءة مقدمة كتاب البغدادى (الفرق بين الفِرَق) يحس كأنه داخل فى معمعة حامية الوطيس وكأنه يرافق محاربا شديد المراس قد دجج نفسه بجميع أنواع الأسلحة استعدادا لدخول معركة ينبغى له أن يقضى فيها على عدد من الخصوم .

أو كأنه يقف إلى جانب شخص وضعه الله سبحانه وتعالى فى طريق الناس يوم الحساب . وأعطاه صلاحية التحكم فى مصائرهم ، فهو يقف مزهوا يعترض طريق المحشورين . وكلما مرت به طائفة وجههم حسب رأيه فيهم حيث يريد ! أو صاح : أيتها الطائفة أنتم من أهل السنة مغفور لكم ، اسلكوا هذا الطريق إلى الجنة . فإذا جاءت طائفة أخرى صاح بهم أنتم من أهل الأهواء اذهبوا مع هذه الطريق إلى الجحيم ، وتبدو له طائفة مقبلة فيصيح بها بأعلى صوته أنتم يا من تسيرون هنالك إنكم معتزلة فأنتم فرقة ضالة ادخلوا النار . أما أنتم أيتها الفرقة التعسة فقد قيل إنكم خرجتم من الإسلام فادخلوا النار وبئس القرار .

واذا شئت أن تتضح لك هذه الصورة فما عليك أيها القارىء الكريم إلا أن تقرأ كتاب (الفرق بين الفـرق) وإذا شئت أن أضـع بين يديك نموذجا فلا بأس وها أنا أنقل لك فقرات مما قاله فى مقـدمة كتابه (١) السابق الذكر بأسلوبه القوى البليغ :

« سألتم أسعدكم الله بمطلوبكم — شرح معنى الخبر المأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم فى افتراق الأمة ثلاثا وسبعين فرقة ، منهـا واحدة ناجية ، تصير إلى جنة عالية ، وبواقيها عادية تصير إلى الهاوية ، والنـار الحامية ، وطلبتم الفرق بين الفرقة الناجية ، التى لا تزل بهـا القدم ، ولا تزول عنها النعم ، وبين فرق الضـلال ، الذين يرون ظـلام الظلم نورا ، واعتقاد الحـق ثبورا وسيصلون سعيرا ولا يجـدون من دون الله نصيرا ، فرأيت إسعافكم بمطلوبكم من الواجب فى إبانة الدين القويم ، والصراط المستقيم ، وتمييزها من الأهواء المنكوسـة ، والآراء المعكوسـة » .

وفى الصفحة الرابعة من الكتاب ذكر أن كتابه يشتمل على خمسـة أبـواب :

الأول : فى بيان الحديث المأثور فى افتراق الأمة ثلاثا وسـبعين فرقـة .

الثانى : فى بيان فرق الأمة على الجملة ومن ليست منهـا على الجمـلة .

الثالث : فى بيان فضائح كل فرقة من فرق الأهواء الضالة .

---

(١) الفرق بين الفرق صفحة « ٣ » .

الرابع : فى بيان الفرق التى انتسبت إلى الإسلام وليست منها .

الخامس : فى بيان الفرقة الناجية وتحقيق نجاتها ، وبيان محاسن دين الإسلام .

وهكذا استطاع المؤلف فى إيجاز أن يقسم الناس ثلاثة أقسام قسم خارج عن الأمة الإسلامية فلا حديث له معه وقسم هو أهل الأهـواء وفى هذا القسم ألف الكتاب ليكشف عن فضائحهم أما القسم الثالث فهم الفرقة الناجية .

ويقول المؤلف فى الفصـل الأول من نفس الكتاب صفحة ١٣ بعـد أن ناقش معنى كلمة أمة الإسلام وعلى من تدل — ما يلى :

من كانت بدعته من جنس بدع المعتزلة أو الخوارج أو الرافضـة الإمامية ، أو الزيدية ، أو من بدع النجارية أو الجهمية أو الضرارية ، أو المجسمة فهو من الأمة فى بعض الأحكام ، وهو فى جـواز دفنـه فى مقابر المسلمين وفى ألا يمنع حظه فى الفىء والغنيمة إذا غزا مع المسلمين ، وفى ألا يمنع من الصـلاة فى المساجد .

وليس من الأمة فى أحكام سـواها ، وذلك وأنه لا تجـوز الصـلاة عليه ولا خلفه ، ولا تحـل ذبيحته ، ولا نكاحه لامرأة سنية ، ولا يحـل للسنى أن يتزوج المرأة منهم إذا كانت على اعتقادهم .

ولا شك أن القارىء الكريم عندما يقرأ مقدمة الكتاب يتضح لديه أن المؤلف قد قرر أن يقسم الأمة إلى أقسام ثلاثة : قسم حكم بخروجهم من الملة رغم انتسـابهم إلى الإسـلام ، وقسم ما أوردهـم إلا لذكر فضائحهم والتشنيع عليهـم وتلمس أخطائهم ، وإظهار ما به ضـلوا فى نظـره .

ثم حكم على القسمين بالضلال وقذف بهم جميعا فى جهنم •

أما القسم الثالث فقد حكم عليهم بالسعادة مسبقا أيضا لأنهم فى نظره من أهل السنة على طريقة الشاعر الذى يقول :

ولو كنت بوابا على باب جنة   لقلت لهمـذان ادخلوا بسلام

هكذا على العموم دون مراجعة •

وليته حين تلمس أخطاء تلك الفرق التى عزلها عن السنة وفتش عن فضائحهم رجع إلى مصادرهم ولم يأخذها من مصادر خصومهم — إن صح هذا التعبير — وهو ولا شك واجد ما يتشبث به إن كان لا يهمه إلا أن يدفع بتلك الفرق اليائسة الى النار •

وقد كتب البغدادى عن الإباضية فيمن كتب فى الفرق ومن المؤسف ان هذا المؤلف أيضا لم يهتم مطلقا بأن يتصل بأئمة الإباضية الحقيقيين وعلمائهم ولا بأن يطلع على عقائدهم ومقالاتهم فى كتبهم • وإنما رجع إلى ما كتبه وقاله عنهم غيرهم ، ويبدو أنه اعتمد على أبو الحسن الأشعرى كثيرا فنقل ما قاله عنهم تارة بنفس العبارة ، وتارة بتصرف قليل • على أنه لم يذكر أنه نقل عنه أو اعتمد عليه •

يقول فى كتابه الفَرْق بين الفِرَق ص ١٠٣ ما يلى :

« أجمعت الإباضية على القول بإمامة عبد الله بن إباض ، وافترقت فيما بينها فرقا ، يجمعها القول بأن كفار هـذه الأمة — يعنون مخالفيهم من هـذه الأمة — برآء من الشرك والإيمان • وأنهم ليسـوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار ، وأجازوا شهادتهم ، وحرموا دماءهم فى السر واستحلوها فى العلانية ، وصححوا مناكحتهم والتوارث منهم ، وزعمـوا

أنهم فى ذلك محاربون لله ولرسوله لا يدينون دين الحق ، وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض والذى استحلوه الخيل والسلاح ، فأما الذهب والفضة فانهم يردونها على أصحابها عند الغنيمة .

ثم افترقت الإباضية فيما بينها أربع فرق وهى : الحفصية والحارثية واليزيدية ، وأصحاب طاعة لا يراد الله بها » .

بعد هذا قال إن اليزيدية غلاة وأنه سوف يعود إليهم فيذكر مقالاتهم عندما يتحدث عن الغلاة وتحدث عن الحفصية والحارثية وأصحاب طاعة لا يراد الله بها فأوردو عنها ما أورده أبو الحسن ثم قال فى نفس الكتاب صفحة ١٠٦ ما يلى .

« وزعمت الإباضية كلها أن دار مخالفيهم من أهل مكة دار توحيد ، إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى عندهم » .

ثم ذكر ثلاثة أقوال فى النفاق (١) نسبها إليهم وبعد ذلك قال :

يعد الجملة التى حكيناها عنهم شذوذا فى الأقوال انفردوا بها .

منها أن فريقا منهم زعموا أن لا حجة لله تعالى على الخلائق فى التوحيد وغيره إلا بالخبر وما يقوم مقام الخبر من إشارة وإيماء .

ومنها أن قوما منهم قالوا كل من دخل فى دين الإسلام وجبت عليه الشرائع والأحكام ، سمعها أو عرفها أو لم يسمعها أو لم يعرفها .

---

(١) راجع ان شئت هذا الموضوع فى الفصل مع عبد القادر شيبة الحمد .

ومنها : أن قوما منهم قالوا بجواز أن يبعث الله تعالى إلى خلقه رسولا بلا دليل يدل على صدقه •

ومنهم : أن قوما منهم قالوا : من ورد عليه الخبر بأن الله تعالى قد حرم الخمر أو أن القبلة قد حولت فعليه أن يعلم أن الذى أخبره به مؤمن أو كافر •

وعليه أن يعلم ذلك بالخبر ، وليس عليه أن يعلم أن ذلك عليه بالخبر ،

ومنها : قول بعضهم ليس على الناس المشى إلى الصلاة ، ولا الركوب والمسير إلى الحج ولا شىء من الأسباب التى يتوصل بها إلى أداء الواجب ، وإنما يجب عليهم فعل الطاعات الواجبة بأعيانها دون أسبابها الموصلة إليها •

ومنها : قولهم جميعاً بوجوب استتابة مخالفيهم فى تنزيل أو تأويل ، فان تابوا وإلا قتلوا ، سواء كان ذلك الخلاف فيما يسع جهله أو فيما لا يسع جهله •

وقالوا : من زنى أو سرق أقيم عليه الحد ثم استتيب ، فان تاب ، وإلا قتل •

وقالوا : إن العالم يفنى كله إذا أفنى الله أهل التكليف ولا يجوز إلا ذلك لأنه إنما خلقه لهم •

وأجازت الإباضية وقوع حكمين مختلفين فى شىء أو حد فى وجهين ، كمن دخل زرعا بغير إذن مالكه فإن الله قد نهاه عن الخروج منه إذا كان خروجه منه مفسداً للزرع ، وقد أمره به •

وقالوا : لا يتبع المدبر فى الحرب إذا كان من أهل القبلة موحدا ، ولا تقتل منهم امرأة ولا ذرية ، وأباحوا قتل المشبهه واتباع مـدبرهم وسبى نسائهم وذراريهم وقالوا : إن هذا كما فعل أبو بكر بأهل الردة » .

وبعد هذا يعيد قصة بيع الإماء وسوقهن الحامية التى نقلتها لك عن أبى الحسن الأشعرى . ولعل القارىء الكريم يدرك بعد قراءة ما سبق أن البغدادى قد اعتمد كل الاعتماد على الأشعرى ورغم حرصـه على التصرف القليل فإن عبارة الأشعرى بحروفها كثيراً ما تطل من هنا أو هناك .

والذى يدعو إلى التأمل هو أن البغدادى قـد اعتبر الإباضية من الخوارج .

وأنهم لذلك فرقة ضالة ويجب أن يقال عنها فضائح ويلتمس لهـا شنائع وذهب يورد تلك لفضائح أو الشنائع حيناً بدعوى أنهـا مقالـة الإباضية جميعاً وحينا آخر بدعوى أنها قول بعضهم أو قوم منهم .

إن البغدادى كان يعيش فى القرنين الرابع والخامس ، وفى هـذا العصر كان الإباضية قد عرفوا فى أغلب البلاد الإسلامية من خراسان إلى الأندلس واشتهرت لهم مـؤلفات فى أغلب فروع الثقافة الإسلامية — لاسيما علم الكلام — ودونت تواريخهم وسيرهم وعرف علماؤهم وأئمتهم فى طبقات يأخذ بعضها عن بعض إلى أصحاب رسول الله ﷺ . كما أن أكثر المذاهب الإسلامية قد تميز بعضها عن بعض فى أصولها وفروعها ، وآرائها ومقالاتها وأئمتها وعلمائها . ومع ذلك فإن أولئك الذين ذكرهم البغدادى هم أولئك الذين ذكرهم الأشعرى من قبله حاشرين إيـاهم

فى الإباضية أو الوالإباضية لا يعرفون عنهم شيئا ولم يذكروهم لا فى كتبهم ولا فى طبقات علمائهم •

إن البغدادى قد سلك نفس المسلك الذى سلكه من قبله الأشعرى وقد علمت فى الفصول السابقة أن أغلب ما كتبه عن الإباضية ونسبه إليهم — لا يمت إليهم بصلة • وأن البغدادى وهو يسلك نفس المسلك ويعتمد نفس المصادر هو الآخر لا يعرف شيئاً عن الإباضية • وأن كل ما كتبه عنهم سواء كان حقاً أو باطلا فإنما هو تشنيعات وتلفيقات إليه عن ناس يريدون أن يوقدوا نار الفتنة ضد الإباضية ، وأن يجعلوهم مكروهين من بقية إخوانهم المسلمين فينسبون إليهم عقائد ومقالات يبرأون منها وممن يقول بها ، ويسوقون عنهم أقوالا فى غاية الغموض والإبهام ، لإثارة الرأى العام ضدهم وقد يفسرون بعض الجمل أو الكلمات تفسيرا غير صحيح ولا مقصود عند الإباضية لزرع وهم فى نفوس الآخرين • ولا شك أن أصابع السياسة الماكرة وراء كل ذلك وأن هؤلاء العلماء الذين يكتبون إنما تلقوا معلوماتهم عن مصادر مستغلة أو مستغفلة مع العلم أن لديهم الاستعداد الكافى لتلقى وتصديق كل ما يقال لهم عن تلك الفرق التى حكموا عليها بالضلال مسبقاه •

ومن نافلة أن نعيد هنا ما أشرنا إليه سابقاً من أن البغدادى قد زعم كما زعم غيره أن الإباضية من الخوارج وأن هذه الفرقة من الفرق التى لا يجوز للسنى أن يصلى عليها ولا أن يصلى وراءها ، وأنه لا يجوز للسنى حسب زعمه أن يتزوج منها ، ولا أن يأكل من ذبائحها • وقد ردد هذا الكلام فى مقدمة الكتاب • وفى الفصول الختامية منه أورد هذه الأحكام بشىء من التفصيل وزاد عليها ونسب بعض هذه الأحكام إلى أئمة عظام •

وأحسب أنــه لا دعوة أشــد إيقاداً لنار الفتنة ، وشقاً لصفوف الأمة ، وتفريقا لوحدة الكلمة وتمزيقا لشمل المسلمين — من هذه الدعوة .

وعلى كل حال فقد طوى التاريخ البغدادى فيما قد طوى كثيرا من تلك الفرق التى كانت تملأ فراغا ضخما فى حياة المسلمين . وبقى كتــابه يحمل آراء شاذة كما تحمل كثير من الكتب فى كثير من المذهب .

وقد عرفت الأمة المسلمة ، وخبرت وأيقنت ، النتائج والآثار والتى تســبب عن العصبية المذهبيــة والجنســية ، والاتبــاع الأعمى للخطط السياسية . ورأت رأى العين وذاقت فى مرارة ما لحقها فى جراء ذلك من اضرار .

وهى اليوم تحاول أن تجمع الكلمة ، ترد الشارد وتسكت الــداعى الى الفتنة . ولكن من حين الى آخر تقوم أقلام هنا أو هناك فتعود الى ما طواه التاريخ فى اخطاء لترسمه من جديد فى بلاهة وسذاجة وغفلة .

يسَّر الله للعاملين المخلصين سبيل الوفاق ، وأعانهم على جمع كلمة الأمة التى فرقتها المذاهب الدينية والمطامع السياسية فى العهــد الماضى وتفرقهم السياسة ، ومناصب التحكم ومذاهب الاقتصاد ، وفتنة الأسماء والألقاب ، والشعارات الكذابة فى العصر الحاضر .

وفى ختام هذا الفصل يهمنى أن أقــول للقارىء الكريم إن بعض الأقوال التى نسبها الى الإباضية تحمل تكذيبها فى نفسها وهى التى نسبها، فيما زعم الى فرقة من الفرق التى ألحقها بالإباضية وكذلك الأقوال التى زعــم .

أن بعضا من الإباضية أو قوما منهم كان بها فهذه الأقوال المنسوبة الى بعض أو الى قوم لا تحتاج الى تكذيب لأنها هى نفسها لم تستطيع أن تنتهض فتقف وإنما لاذت بجناح من الإباضية وأما ما نسبه إليهم جميعا فسوف نعود إليه بالنقاش فى آخر الكتاب إن شاء الله مع ما يتحصل لدينا من أقوال غيره فنؤكد ما يقول به الإباضية حقيقة ونؤكد ما لا يقولون به حقيقة ونكشف عما أورد بطريقة موهمة أو مبهمة والله المستعان ٠

ابن حزم والإباضية

عاش ابن حزم الأندلسى فى القرن الخامس الهجرى ، وقد عنى هو الآخر بالمذاهب الإسلامية وكتب عنها ٠

ويؤسفنى أن أقول إن العالم الكبير لم يوفق فيما كتب عن الإباضية بل لقد تجنى عليهم فى بعض الأحيان ٠ وكلامه أحيانا — يهدم بعضه بعضاً ما كما أن بعض دعاويه لا يمكن أن تصدق — مهما حاول الإنسان أن يجد لها مبررات — والى القارىء الكريم الأمثلة ٠

يقول فى كتابه (الفصل فى الملل والنحل) صفحة ١٨٨ ما يلى :

« ذكر بعض من جمع مقالات المنتمين الى الإسلام أن فرقة من الإباضية رئيسهم رجل يدعى فريد بن أبى أنيسة — وهو غير المحدث المشهور كان يقول : إن فى هذه الأمة شاهدين عليها : هو أحدهما ، والآخر لا يدرى من هو ولا حتى متى هو ٠ ولا يدرى لعله قد كان قبله ، وأن من كان من اليهود والنصارى يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله الى العرب لا إلينا كما يقول العيسوية فى اليهود ، قال : فإنهم مؤمنون

أولياء الله تعالى وإن ماتوا على هذا العقد ، وعلى التزام شرائع اليهود والنصارى ، وأن دين الإسلام سينسخ بنبىء من العجم يأتى بدين الصابئين . وبقرآن آخر ينزل عليه جملة واحدة . »

ويعقب العالم الكبير على هذا بقوله : « قال أبو محمد : ألا إن جميع الإباضية يكفرون من قال بشىء من هذه المقالات ، ويتبرأون منه ، ويستحلون دمه وماله » .

والعجيب فى الأمر أن حزم يقرر أن جميع الإباضية لا يقولون بشىء من آراء ابن أنيسة هذا ، ويحكمون على من قال شىء من هذا بالكفر ، ويستحلون دمه وماله ، فكيف ساغ عنده إذن أن يسوق هذا الرجل وطائفة : أولا فى فرق المسلمين وهم ينكرون المعلوم من الدين بالضرورة ، ثم لم اختار أن يجعلهم من الإباضية . وجميع الإباضية كما يقرر هو نفسه يكفرون من يقول بذلك . هل بينهم وشيجة نسب ، أو علاقة مصاهرة ، أم نزع عرق أم رابطة صداقة بريئة مجردة .

إنه لا شىء من ذلك طبعا ولكن بعض المتعصبين المشنعين الذين لا يزنون ما يقولون ، أطلقوا هذه الأكذوبة فنقلها ناقلون ومنهم العالم الكبير ابن حزم ولكنه اضطر معها أن يقرر موقف الإباضية منها فعقب بملاحظته الصائبة ربما استنادا الى معرفته الشخصية أو الى ما ذهب إليه من سبقه كالبغدادى الذى اعتبر هذه الفرقة خارجة عن الإسلام .

والحقيقة أن أمثال هذا التخليط والتناقض سبق أن أوردنا له أمثلة عن بعض كتاب المقالات السابقين . كان المفروض من ابن حزم بما اشتهر به من الذكاء ، ودقة الملاحظة ، وسعة الاطلاع ، ولذاعة النقد

الذى يبلغ الى حد القسوة أحيانا — ألا ينزلق فيما انزلـق فيـه غيره ، وأن ينظف كتابه من هذه الترهات الفارغة التى تكذب نفسها ، وليس لها من قيمة اللهم إلا زيادة الصفحات فى الكتاب الذى ترد فيه •

وليت ابن حزم اكتف بهذه الفقرة بعد أن كذبها ولكنه اســتمر فى الطريق •

قال ابن حزم فى نفس الكتاب :

« وقالت طائفة من أصحاب حارث الإباضى أن من زنى أو ســرق أو قذف فإنه يقام عليه الحد ، ثم يستتاب مما فعل ، فان تاب تـرك ، وإن أبى التوبة قتل على الردة » •

وقد سبق أن ناقشنا هذا القول الذى نقله ابن حزم ولم يسنـده وأوضحنا بما فيه الكفاية أن الإباضية لا يعرفون هذا الحارث ولا فرقته وأن حـكم الإباضية على الزانـى والسـارق والقـاذف هـو حـكم الله وحكم رسوله عليهم • رجم للمحصن وجلد لغير المحصن ، وقطـع من الرسغ للسارق ، وجلد للقاذف • بشروط مفصلة فى كتب الفقه • وقد وقعت حوادث أقام فيها أئمة الإباضية الحدود على من وجبت عليه ، أثناء إماماتهم • المشرق أو المغرب ذكرتها كتب التاريخ والوقائع مفصـلة فى مناسباتها • ولم يذكر أحد أن أئمة الإباضية تجاوزوا حدود الله فى إقامة الحد فقتلوا من لا يلزمه القتل • والإباضية لا يحكمون على من لـزمه الحد بالردة تاب أو لم يتب • وإسناد هذا القول إليهم كـذب عليهم • وكل ما عند الإباضية فى الموضوع أنهم يرأون من مرتكب الكبيرة سواء كانت من الكبائر التى تقام عليها الحدود أو كانت مـن الكبائـر التى لا حدود عليها • والبراءة إنما يوقعونها على مرتكب المعصية (الكبيرة)

مادام مصرا عليها ولم يتب • فإذا تاب منها أسبغوا عليه ثوب الولاية • وأعتقد أن هذا الموقف هو الموقف الذى يتخده كل مسلم حريص عـلى إسلامه وكيف يستطيع المسلم التقى الورع أن يضفى محبته وولاءه على إنسان يجاهر الله بالمعصية ويصر عليها

والشخص الذى يقام عليه الحد لا يخلو إما أن يقام عليه الحـد بعد اعترافه وإعلانه للتوبة (كما عز) مثلا فهذا لا يختلف اثنـان فى صدق توبته ووجوب ولايته • وإما أن يجب عليه الحد ويقام وهـو مصر على معصيته ولا يعلن التـوبة مما ارتكب وهذا لاخـلاف بين اثنين من الإباضية فى وجوب البراءة منه فما كان لمؤمن صادق الإيمان أن يضفى محبته وولاءه على إنسـان يجاهر الله بالمعصية ويصر على ذلك • ولنا أظن أن الحـد فى حالة التوبة تطهير وفى حالة الإصرار عقوبة وفى كلتـا الحالتين لا يتجـاوز تقـدير الشـارع فيـه • ولا فرق بين من أقيم عليه الحـد من العصاة ومن لم يقم عليه بل إن الكبائر كلها ما كان عليه حد وما لم يكن — عند الإباضية موجبـة للبراءة وليس أكثر من البراءة ومعنى البراءة هى البغض والجفاء فى الله بسبب ارتكاب المعصية وعدم الدعاء بالمغفرة والرحمة للعصاة وليس أكثر من ذلك •

ولو عنى الإمام ابن حزم نفسه قليلا لعرف حقيقة أحكام الإباضية وسيرتهم — ولا سـيما وقـد عاش فى الأندلس — وقد كانت الدولة الرشيدية قائمة فى الجزائر قبل ذلك بقليل وسيرة أئمتهـا كانت حينئذ لا تزال متناقلة بين الألسنة ، وطرق اقامة الحـدود وإجراء الأحكام فى تلك الدولة كان مما يقصه الناس بعضهم على بعض ويتحدثون به ، كما كان فى إمكان الإمام ابن حـزم أن يحصـل فى ذلك الحـين على بعض

الكتب الفقهية ويعرف منهـا رأى الإباضية الحقيقى • إقامة الحـدود ولكن الإمام ابن حزم انساق فى التيـار السـابق ، تيـار السخط على ما حسبه فرقا مخالفة بدافع شديد لا شعورى يقويه السخط ورغبـة ملحة فى التشنيع على تلك الفرق • وقد أضاف إلى ما ذكره فى كتـابه من تلك الشنائع المختلفة شنائع أخرى زعم أنها من مشاهداته •

قال فى كتابه (الفصل فى الملل والنحل) صفحة ١٨٩ ما يلى :

« وشاهدنا الإباضية عندنا بالأندلس يحرمون طعام أهل الكتاب ، ويحرمون أكل قضيب التيس والثور والكبش ، ويوجبون القضـاء على من نام نهارا فاحتلم ، ويتيممون وهم على الآبار التى يشربون منها ، إلا قليلا منهم » •

لا شك أنه يقول هذا الكلام إرادة للتشنيع على الإباضية وسوف نناقش هذه المسائل فى فصـل « مسـائل فقهية اجتهادية » وفى باب التشنيع أيضا ما يقوله فيما بعد فتأمله فيما يلى :

قال ابن حزم : فى (الفصل فى الملل والنحل) ص ١٩١ ما يلى :

« وإلى قول الثعالبة رجع عبد الله بن إباض فبرىء منه أصحابه فهم لا يعرفونه اليوم ، ولقد سألت من هو مقدمهم فى علمهم ومذهبهم عنه فما عرفه أحـد منهم •• » وهذا القول من ابن حـزم من أغـرب الأقوال وإن كان قد تردد على كثير من الألسنة والأقلام ، من هـم الثعالبة ؟ وما هو قولهم الذى رجع إليه عبد الله بن إباض ولماذا رجع ؟ وهل رجع فى قول واحـد أو فى عدد من الأقوال ؟ وما هى تلك الأقوال

التى رجع فيها ابن إباض إلى قول الثعالبة ؟ وهل رجع إليهم فى قـول واحـد أم أنه رجع إليهم فى جميع أقوالهم ؟ أسئلة حائرة وليس لهـا جـواب عند ابن حزم ولا عند غيره ممن أورد هذه الدعوى من أولئك الكتاب الذين يختطفون الإشاعات دون تثبت ثم يروجون لها وهى من أقوى الأدلة على أنهم يكتبون عما لا يعرفون أو على الأقل عما لـم يتحققوا من صحته . كيف عرف ابن حـزم أن ابن إباض رجـع إلى قول الثعالبة ؟ أين وجـد أن أصحابه برئوا منه : ومن هـو هذا المقدم الذى معه ابن حـزم بالتحقيق فوجـده لا يعـرف شيئا عن إمامته ؟ إنها سلسلة من الدعاوى والادعاءات الواهيـة المتداعيـة يهـدم بعضها بعضا . والمؤلف فيها جميعا لا يشير إلى المصـادر التى اعتمد عليها .

ابن حزم يزعم أنه سأل من هو مقدمهـم فى علمهم ومذهبهم فلم يعرفوا شيئا عن ابن إباض . فكيف علم أنهم يبرأون منه ، وهل يعقل أن يبرأ ناس من شخص لا يعرفونه ولا يعرفون عنه شيئا !

هل اهتم العالم الكبير حقا بالتثبت أو ذهب يسـأل عن الإباضية وإمامهم ؟ أم هى صورة من نسج الخيال يقصد منها التشنيع دون معرفة شىء حقيقى ؟ لو أراد ابن حـزم التحقق لاستطاع الاتصـال بعلمـاء الإباضية بالفعل ولذكر أسماء أولئك العلماء أو المقـدمين الـذين يعتبر قولهم حجة فى الموضوع . أو أن يطلع على كتبهم ويستمد منها الحقائق التى تناقش ولا تنكر وفى الصورة السابقة يبدو لى أن ابن حـزم سمع عمن ينتسب إلى الإباضية فى الأندلس وقـد يكون من سمع عنـه من العوام وقد يكون صاحب سـطوة أو ثروة اشتهر بسببها بين النـاس فذهب إليه ابن حزم يسأله عن إمامه ابن إباض فلم يجد عنده شيئا .

ولو سلكنا هذا المسلك اليوم — على انتشار الثقافة — مع ثمانين فى المائة من أتباع المذاهب لكانت النتيجة واحـدة شبيهة بما توصل إليـه ابن حزم فلو أنك أخذت تردد السؤال من هو محمد بن إدريس ؟ على من يصادفك من أتباع الشافعى بل على بعض المقدمين من التجار وأصحاب المزارع الكبيرة وغـيرهم لمـا وجـدت عند الكثير منهـم ما تريده من المعارف ، ولا يزيد الكثير منهم على أن يردد ذلك السؤال فى لهجة فيهـا استغراب وأحسنهم حـالا من يضيف إلى ذلك فيقـول لك هو إمامنـا العظيم أو هو الإمام العظيم أو إمام المذهب الشافعى أو ما يشبه هـذا مما لا غناء فيـه . فهل نستطيع أن نبنى على ذلك حكما ونقـول لقـد سألنا عن الشافعى أتباعه أو بعض المقـدمين من أتبـاعه فلم يعـرفوا عنـه شيئا .

لم يزعم أحد من الإباضية أن عبد الله بن إباض رجع الى قول الثعالبة ولا يوجد أحد من الإباضية يبرأ منه فهم مجمعون على ولايته ويعتبرونه من أئمة المسلمين ومن كبار التابعين ويحفظون سيرته وقد دونوها فى كتبهم ويعرفون الكثير من أقواله فى القضايا الشرعية وهم مع ذلك لا يرفعونه الى مكانة التقديس ، كما لا يرفعون الى مكانة التقديس أى شخص غير معصوم . ويرون أن فى أقواله كما فى أقوال غيره من الأئمـة مأخـوذاً ومتروكاً . صوابا وخطأ . ولا ينزهونه عن هذه المرتبة أى إمام سواء كان من أئمتهم أو أئمة غيرهم ويحتكمـون فى كل شىء الى الدليل حتى اشتهرت بينهم هـذه العبارة (يعـرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال) فدعوى أن ابن إباض رجع الى قول الثعالبة وإن الإباضيـة يبرأون منه هى الأخرى دعوى تحاول أن تلحق بركب التشنيعات التى تنسب الى الإباضية وأئمتهم . الغريب حقـاً مـن كتاب المقالات أنهم

ينسبون الى الإباضية من ليس منهم ويعتبرونهم أئمة ورؤساء فرق لهم ويحولون أئمتهم الحقيقيين فيلحقونهم بطوائف أو فرق أخرى ولعله مما يرفه على القارىء أن نختم هذا الفصل بما يلى :

قال ابن حزم فى كتابه (الفصل بين الملل والنحل) ص ١٩١ ما يلى :

« ومن حماقاتهم قول بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد ، فانه كان يقول : كل ذنب صغير أو كبير ، ولو كان أخذ حبة من خردل بغيرحق ، أو كذبة خفيفة على سبيل المزاح فهى شرك بالله » .

هذه كما يرى القارىء الكريم ليست من حماقات الإباضية ، وإنما هى من حماقات العالم الكبير ابن حـزم الأندلسى ، وللعلمـاء الكبـار حماقاتهم . من هو هذا البكر الـذى لا يعرف أبوه ولا أمـه ولا حتى عصبة أبيه وإنما ينسب الى أخواله . ثم يكون هذا البكر المجهول النسب إماماً له أقوال يعتمد بها وتذكر فى الكتب ثم إن العالم الكبير ابا محمد ابن حزم وهو يصنف المسلمين على فرق يعثر على هذا الرجل فلا يجد له مكانا ثم يأتى به يسوقه حتى يجد فراغا بين صفوف الإباضية فيلقيه هناك ثم ينسبه إليهم ثم يلقى عليهم تبعة حماقاته .

الواقع أنه لا أسخف فى التشنيع على الناس من هذا المستوى ، إن الإباضية لا يعرفون هذا الشخص المجهول ، ولا يعرفون أقـواله ، ولا يسودون بها بياض صحفهم ، وينزهون كتبهم عن مثل هذه الأضاليل . والدعاوى الفارغة ، والمقالات الشاذة ، وهم أحرص على أوقاتهم وأوقات قرائهم أن تضيع فى مثل هذه الحماقات التى تعاون على نسج خيوطها : التعصب والانغلاق ، والدعاية الفاجرة ، والخيال السقيم ، وعدم الأمانة فى النقل

والشهادة ، ثم توجيه السياسة الماكرة بأساليبها المختلفة ، فوقع ضحية لذلك جماعة من أفذاذ العلماء أمثال ابن حزم الذى نتحدث عنـــه وبعض من سبقه أو سوف نشير إليه ، وجازت عليهم تلك الأخطاء كلها رغـم ادعائهم الحذر والحيطة .

ونحن فى الواقع قد نلتمس للأقدمين عذرا إذا قصروا فى الوصول الى الحقائق بسبب ما أشرنا إليه من العـوائق . أما المعاصرون الذين يعنون أنفسهم للكتابة عن غيرهم فليس لهم أى عذر فى التقصير ، لسهولة المواصلات ، ويسر المراجع ، وزوال الضغوط المادية والمعنوية من طرق الباحثين ، مشاهداتهم عيانا للأضرار التى لحقت الأمة المسلمة بسـبب التشتت والفرقة ، وإدراكهم أن التشتت والفرقة إنما نتـج عن تشـــدد أصحاب المذاهب الفرق فى استمساكهم بآراء أئمتهم ، ونقمتهم ومحاربتهم لكل من يخالفهم ، مما يولد رد الفعل الأشد عصبية والأكثر انغلاقاً .

عسى الله أن يلهم الأمة المسلمة رشدها ، ويجمع صفها ، ويعيدها الى المحجة البيضاء ، تحافظ على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتقتـــدى بأصحابه فى هديهم ، وتعتبر بقية الأئمة والعلماء إنما هم جنود خـدموا الشريعة الإسلامية حسب اجتهاداتهم وفهمهم ، يصدر منهم الصــواب والخطأ ليس من حقنا أن نزيد أعمالهم أيهما أرجح ولا أن نفاضل بينهم ، وإنما علينا أن نأخذ من أقوالهم ما أيده الدليل من كتاب أو سنة باعتبار قوة الدليل لا باعتبار صدوره من إمام معين . وليس لنا أن نخرج غـيره ممن لم نأخذ بقوله ، لأننا لا نأخذ بأقوال الناس وإنما نأخـذ بأحكام الله . ولسنا على أحد ممن مضى بمسيطرين .

أبو المظفر الاسفراييني والإباضية

من علماء القرن الخامس الذين كتبوا عن فرق الأمة الإسلامية : أبو المظفر الاسفراييني • وقد كتب عن الإباضية فيمن كتب عنـه من الفرق والقارىء الكريم حين يقرأ كتاب أبى المظفر يجده صورة أخرى باهتة للبغدادى • فهو يدخل الموضوع كما يدخل محارب متحمس الى ساحة معركة حربية حاسمة يتقابل فيها خصمان عنيدان • وهو يعد قبل ذلك كل ما يستطيع من أسلحة ، أو كل ما أوتى من قوة لينتصر الفريق الذى يريده ويحطم خصمه تحطيما لا يقوم من بعده •

بهذه الروح يبدأ أبو المظفر كتابه (التبصير) وفى المقدمة قسـم الأمة الإسلامية الى قسمين : حكم بالهدى والاستقامة ثم الجنة لقسم وحكم بالزيغ والضلال ثم النار للقسم الآخر • وهى صورة تكاد تكون طبق الأصل مما عند أستاذه البغدادى • وليس يهمنا فى هذا الفصل ــ بطبيعة الحال ــ إلا حديثه عن الإباضية •

قال فى كتابه التبصير طبعة ١٩٥٥ ص ٥٦ ما يلى :

« الفرقة السادسة الإباضية ، وهم أتباع عبد الله بن إباض • ثم هم فيما بينهم فرق ، وكلهم يقولون إن مخالفيهم من فرق هذه الأمة كفار لا مشركون ولا مؤمنون ، ويجوزون شهاداتهم ، ويحرمون دماءهم فى السر ، ويستبيحونها فى العلانية ، ويجوزون مناكحتهم ويثبتون التوارث بينهم ، ويحرمون بعض غنائمهم ، ويحللون بعضها • ويحللون ما كان من جمـلة الأسـلاب والسـلاح ويحرمـون ما كان من ذهب أو فضـة ، ويردونها الى أربابها » •

بعد هذه المقدمة الصغيرة التى سبقه إليها البغدادى وأبو الحسن انتقل الى ذكر الفرق السابقة التى ذكرها من قبله أبو الحسن والبغدادى والعبارة فى الغالب عبارة البغدادى مع تصرف بسيط واضح التصنيع بعد أن ذكر تلك الفرق ومقالات كل منها بما فيها من شناعات وأباطيل كما عرضناها من قبل • عرض الى قصة الجارية التى نقلناها بتفاصيلها عن أبى الحسن • وقد اختصرها الاسفراييني ولم يهتم بها اهتمام الأشعرى والبغدادى • والإسفراييني فيما كتبه عن الإباضية فى هذا الكتاب لم يبذل هو الآخر أى مجهود لمعرفة أى شىء حقيقى عن الإباضية • وإنما انساق مع تيار من سبقه ممن كتب عنهم من غيرهم فاعتبرهم فرقة من فوق الخوارج كما فعل الأشعرى والبغدادى وابن حزم من قبله ثم نسب إليهم تلك المقالات التى رأيتها عند الأشعرى ، وجعل من أئمتهم أولئك الأشخاص الذين نسبهم إليهم من سبق دون تحقيق أو تمحيص أو تعليق هو كل ما امتاز به عن سابقيه أنه تتملكه — أثناء كتابه — من حين الى آخر ثورة غضب عارمة فيصب على تلك الفرق وأصحابها سيلا من الشتائم واللعنات •

وقد أحس محقق الكتاب الشيخ محمد زاهد الكوثرى بملاحظتين عن مؤلف الكتاب — قال فى مقدمته للكتاب ص ١٣ ما يلى :

« والمصنف رحمه الله استوفى فى هذا الكتاب — فى غير إملال ولا إخلال — بيان عقائد أصحاب الملل والنحل ببعض عنف فى بعض المواقف »•
ويقول بعد أسطر :

« وقد غمز الرازى فى الأجوبة النجارية أبا منصور البغدادى

بالتعصب والقسوة ، وأبا الفتح الشهرستانى السارى وراءه بذلك أيضا ، ولكن الثانى ألطف لهجة بكثير » •

ويقول بعد أسطر :

وقصارى ما يؤخذ به علماء هذا الشأن عدم التثبت فى « عزو الأقوال كما سبق » • والقارىء الكريم حين يقرأ هذه الفقرة الأخيرة من كلام الشيخ الكوثرى يدرك أن الشيخ قد رأى أن أقوالا تنسب الى غير أصحابها ، وأن ناساً يقولون ما لم يقولوا كما أنه اقتنع بملاحظة الرازى على بعضهم شدة التعصب وعبارة شيخنا الكوثرى الناعمة التى تشير الى الملاحظات السابقة تحمل معنى الاعتذار عن هذا التصرف من علماء هذا الشأن وكأنه لا يرى فى ذلك كبير يأس بل إنه حاول أن يبرر موقفهم العنيف ضد الفرق المخالفة • ويبدو لى أن هذه النقطة بالذات ـ نقطة عدم التثبت فى عزو الأقـوال ـ نقطـة مهمـة • فان عـدم التثبت فى نسـبة الأقـوال الى أصحابها وعدم التحقق من معرفة ذلك معرفة صحيحة • يؤدى الى نسبتها الى قوم هم برآء منها • وقد يؤدى ذلك الى الحكم على ناس بالفسق أو الكفر أو البدعة أو الضلال • وهم أبرياء من ذلك وأصح عقيـدة ممن يرميهم بـذلك •

وفى الصفحات السابقة أوضحت للقارىء الكريم أمثلـة كثيرة فى عدم التثبت والتحرى فيما نسبه بعض الكتاب الى الإباضية وأن بعض ما نسبوه إليهم على أنه من مقالاتهم يحكم الإباضية على القائلين به بأنه مرتد كافر ، أبو المظفر كما أشرت فى السابق كان متأثرا بالبغدادى تأثرا كبيرا ويظهر هذا واضحا جليا فى أسلوب الكتابة وفى المنهج الذى سلكه وفى الحنق الشديد على أصحاب الفـرق والمقالات التى تناولها • وفى

العنف الذى طبع أحاديثه به • وفى عدم التحرز من الحكم عليها بأحكام المشركين الى درجة التبجح بذلك • ثم المغالاة فى مدح الفرق الموافقة الى درجة الإعتزاز والافتخار بالملوك الظالمين وما شادوه من أبنية وأزهقوه من أرواح •

يقول الاسفراييني فى كتابه التبصير ص ١٧٦ وهو يعدد مآثر أهل السنة ما يلى :

« وأما أنواع الاجتهادات الفعلية التى مدارها على أهل السنة والجماعة فى بلاد الإسلام فمشهورة مذكورة ، مثل المساجد والرباطات المثبتة فى بلاد أهل السنة • إما فى أيام بنى أمية وإما فى أيام بنى العباس ، مثل مسجد دمشق المبنى فى أيام الوليد بن عبد الملك ، وكان سنيا قتل فى أيامه ، ما شاء الله من الخوارج والروافض » •

ويقول بعد أسطر :

« وكان بعض المصريين يتغلبون ويسعون فى عمارة شىء منه ولكن لا موقع لما كانوا يفعلونه مع سوء اعتقادهم » •

وبقطع النظر عن دين الوليد بن عبد الملك الذى يقول عنه أكثر المؤرخين أنه كان جبارا عنيدا كما جاء فى مروج الذهب للمسعودى ص ١٦٦ من الجزء الثالث ما يلى :

« وكان الوليد جبارا عنيدا ظلوما غشوما » •

فإن الوليد توفى سنة ٩٦ والمذاهب التى يطلق عليها لفظ أهل السنة

لم توجد بعد فإن أبا حنيفة كان حينئذ غلاما ومالك كان ابن سنة واحدة . أما الشافعى وأحمد فلم يولدا بعد . فلو فرض أن الوليد قدم من أعمال الخير ما يعتز به المسلمون أو يذكرونه فى مقام الاحتجاج فإن ذلك يكون سابقا لنشأة المذاهب والفرق ولا حق فيه لهم ودعوى أنه كان سنيا دعوى لا تقوم على أساس ، ولو صح هذا لكان الاعتزاز بعمر بن عبد العزيز أولى وأحق . وإذا افتخر أهل السنة بما قام به الملوك والأمراء ونسبوه إلى أنفسهم فهل يعتبر من أعمال أهل السنة المنجنيقات التى وجهت إلى الكعبة والأعمال الوحشية التى قام بها قادة الدولة الأموية فى المدينة المنورة مثلا . لا شك أن القارىء الكريم يلحظ هنا أصابع السياسة الماكرة وهى توجه أقلام العلماء فى دهاء لما تريده فتزين أعمال الدولة الأموية وتعتبرها من أمجاد أهل السنة بينما تنثنى إلى ما يشابه تلك الأعمال لما قام به العبيديون فأسقطوه من الحساب بدعوى فساد نياتهم .

هذا بعض ما تفعله السياسة الماكرة فى توجيه الأقلام .

أما تعبير المؤلف عن الوليد : « وكان سنيا قتل فى أيامه ما شاء الله من الخوارج والروافض » فيوهم أنه إنما اعتبر الوليد سنيا لأنه أمعن فى قتل الروافض والخوارج . ولا شك أن الإمعان فى قتل المسلمين لمخالفتهم فى قول أو رأى يناقض السنة ولا يكون دليلا على التمسك بما ما لم يكن إقامة لحد من حدود الله . وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » . وإذا جاز له أن يعتبر الوليد بن عبد الملك سنيا وأعجبه أنه قتل فى أيامه

ما شاء الله من المسلمين الآخرين أفلا يعتبر الحجاج أيضا سنيا ويعجبه أيضا العدد الهائل الذى قتله الحجاج قال المسعودى فى مروج الذهب صفحة ١٧٥ من الجزء الثالث ما يلى :

« وأحصى من قتله سوى من قتل فى عساكره وحروبه فوجد مائة وعشرين ألفا ، ومات فى حبسه خمسون ألف رجل ، وثلاثون ألف امرأة ، منهن ستة عشر ألفا مجردة ، وكان يحبس النساء والرجال فى موضع واحد » .

أبو الفتح الشهرستانى والإباضية

اشتهر أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى ، وقد ذاع صيته بين كتاب المقالات فى العقائد ، ويعتبر كتابه (الملل والنحل) من أهم المراجع فى هذه المواضيع وكثير من كتاب اليوم يعتمدون عليه كمصدر محقق ثابت لا يناقش . ويهمنا أن نرافق هذا المؤلف الكبير بعض الوقت لنستجلى موقفه ، ونرى هل استطاع أن يتجنب الأخطاء التى وقع فيها من سبقوه ؟

يقول أبو الفتح فى كتابه (الملل والنحل) الجزء الأول من الطبعة الأولى لمكتبة الحسين التجارية ص ٤ ما يلى :

« ومن المعلوم الذى لا مراء فيه أنه ليس كل من عبر عن غيره بمقالة ما فى مسألة ما عد صاحب مقالة » .

ويقول : صفحة ٦ ما يلى :

« وشرطى على نفسى أن أورد مذهب كل فرقـة على ما وجـدته كتبهم من غير تعصب لهم ، ولا كسر عليهم ، دون أن أبين صحيحه من فاسده ، وأعين حقه من باطله » •

فهل وفى أبو الفتح لمـا خططه لوضع كتابه • وشرطه على نفســه من استقاء الآراء والعقائد من مصادر أصحابها ؟

يؤسفنى أن أقول أنه لم يفعل ذلك ، وأنه سلك نفس المسلك الـذى مرّ به سابقوه ، فهو يبحث عن أسماء الرجـال وينسب إليهم الأقوال ليبلغ بعدد الفــرق إلى اثنتين وسبعين فرقة يدفعهـا جميعا ــ محسنها ومسيئها ــ إلى النار ويستخلص منها الثالثة والسـبعين فيقـودها إلى الجنة • وقد اعتمد فى ذلك كله على من سبقه من أصـحاب الكتب التى ناقشنا بعضها وإن كان قد خالفهم فى جزئيات يسيرة ربما عرضنا لبعضها فى نهـاية هذا الفصـل •

وعد أبو الفتح أنه سيذكر الفرق بتجرد ، وأنه لا يصحح ولا ينتقد ، ولا يصـوب ولا يخطىء ، ولا يميز بين الصحيح والفاسـد ، والحـق والباطل ، ولكنه ناقض نفســه من الخطـوة الأولى • ومن مقدمة الكتاب جرد سيفه وجعل ينظم صفوف الفرق ويصففها فى طوابير طويلة تمتـد جذورها فى أعمـاق التاريخ من عصره إلى عهد إبليس متخـذة فى كل عصر مظهرا مناسبا من موقــف إبليس إلى موقف المشركين المنافقين إلى موقف الفرق الضالة ، ويحاول أن يربط العلائق الوثيقة بين هذه الفـرق الضالة وأسلافها فى نظره من المنافقين أو المشركين أو الشياطين • وهـو

يرجع جميع الفرق الضالة فى نظره إلى أصــول أربعة • يقــول فى صفحة ١٠ من كتابه ما يلى : « فاللعين الأول لما أن حكم العقل على من لا يحتكم عليه العقل لزمه أن يجرى عليه حكم الخالق فى الخلق أو حــكم الخلق فى الخالق ، والأول غلو والثانى تقصير ، فثار من الشبهة الأولى مذاهب الحلولية والتناسخية والمشبهة والغــلاة من الروافض حيث غلوا فى حق شخص من الأشخاص حتى وصفوه بصفات الجــلال • وثار من الشبهة الثانية مذاهب القدرية والجبرية والمجسمة حيث قصروا وصفــه تعالى بصفات المخلوقين ، فالمعتزلة مشبهة الأفعال والمشبهة حلولية الصفات وكل واحــد منهم أعور بأى عينية شــاء ، فإن من قال إنمــا يحسن منــه ما يحسن منا ، ويقبح منه ما يقبح منا ، فقد شــبه الخــالق بالخلق • ومن قال يوصف البارىء بما يوصف به الخلق ، أو يوصف الخلق بمــا يوصف به البارىء تعالى عز اسمه فقد اعتزل عن الحق •

وسِنْخ القدرية طلب العــلة فى كل شىء وذلك من سِنْخ اللعــين الأول إذ طلب العلة فى الخلق أولا والحكمة فى التكليف ثانيا • والفائدة تكليف السجود لآدم عليه الســلام ثالثا • وعنه نشأ مــذهب (الخــوارج) إذ لا فرق بين قولهم لا حكم إلا الله [1] ، ولا يحكم الرجال ، وبين قوله لا أسجد إلا لك • أأسجد لبشر خلقته من صلصال • وبالجملة (كلا طرف قصــد الأمور ذميم) (فالمعتزلة) غلوا فى التوحيد بزعمهم حتى وصلوا إلى التعطيل بنفى الصفات (المشبهة) قصروا حتى وصفوا الخالق بصفات الأجسام (والروافض) غلوا فى النبوة والإمامة حتى وصلوا إلى الحلول

---

(١) هذه الكلمة مقتبسة من القرآن الكريم فى قوله تعالى : « ان الحكم الا لله » فى سورة الأنعام وفى سورة يوسف كل ما فعله من قال هذه الكلمة أنه أتى بما النافية بدلا من ان النافية •

(والخوارج) قصروا حيث نفوا تحكيم الرجال وأنت ترى أن هذه الشبهات كلها ناشئة من شبهات اللعين الأول ، وتلك فى الأول مصدرها ، وهذه فى الآخرة مظهرها » .

وهكذا ترى من أول الأمر أنه حاول أن يربط بين إبليس وأصول الفرق بتلك الخيوط الضعيفة التى توهم صلاحيتها للربط فهو قد حكم عليها مسبقا بالضلال والزيغ واتباع الهوى وإنما يوردها ليحدد بها الإحصائية ويلتمس لها المبررات التى تجعلها ضمن الموكب الضخم الذى يدفعه كتاب المقالات إلى الهاوية .

وفيما يتعلق بوعده ألا يكتب عن أية فرقة إلا بناء على ما يجده فى كتب علماء تلك الفرقة فيؤسفنى أن أقول أن الإمام الشهرستانى قد أخل بوعده ولم يوف به ، ولم يعمل بالشرط الذى شرطه على نفسه ، هذا على الأقل بالنسبة إلى الإضية . ولست أدرى موقفه من كتب الفرق الأخرى وإن كنت أحسب أنه لا يختلف .

والحقيقة أن هذا الموقف من نسبة الآراء والعقائد إلى مصادر أصحابها موقف خطير . فالكاتب حين يعد قراءه بأنه يعتمد فى نسبة الأقوال على مصادر أصحابها ، يضع الثقة به فى الميزان ، فإن وفى كان أهلا للثقة والتصديق فى كل شىء ، وإن أخل بوعده ، كان موضعا للشك يجرى البحث من ورائه لتحقيق ما يقول :

قال أبو الفتح الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل الجزء الأول ص ٢١٢ ما يلى :

« الإباضية أصحاب عبد الله بن إباض الذى خرج فى أيام مروان

ابن محمد فوجه إليه عبد الملك بن محمد بن عطية فقاتله بتبالة وقيل إن عبد الله بن يحيى الإباضى كان رفيقا له فى جميع أحواله وأقواله » .

وقال (أى ابن إباض) إن مخالفينا من أهل القبلة كفار غير مشركين ، ومناكحتهم جائزة ، وموارثتهم حلال ، وغنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال ، وما سواه حرام — وحرام قتلهم وسبيهم فى السرغيلة الا بعد نصب القتال . وإقامة الحجة .

وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى . وأجازوا شهادة مخالفهم على أوليائهم ، وقالوا فى مرتكبى الكبائر أنهم موحدون لا مؤمنون .

ثم ذكر عدة مقالات قال إن الكعبى حكاها عنهم ويهمنى أن يعرف القارىء الكريم الملاحظات الآتية عن مرافقتنا لأبى الفتح الشهرستانى :

١ — ذكر أن عبد الله بن إباض خرج أيام مروان بن محمد وقتل بتبالة . وهذا خطأ تسرب إلى أبى الفتح وإلى جملة ممن كتب عن الموضوع . لأن عبد الله بن إباض لم يعش إلى زمن مروان وإنما توفى فى أواخر أيام عبد الملك ولعل الذين ذكروا هذا القول اشتبه عليهم بأحد الرجلين : المختار بن عوف ، أو بلج بن عقبة ، من أصحاب عبد الله بن يحيى طالب الحق وهم جميعا من الإباضية .

٢ — والمقالات التى نسبها الى الإباضية هى بعض ما نسبه له من تحدثنا عنهم سابقا وسوف نعرض لها فى بعض فصول هذا الكتاب ونوضح فيها ما كان منها موافقا لمقالات الإباضية ، وما كان مخالفا لها ، وما صيغ بغموض وإبهام يحتاج إلى شىء من الإيضاح والبيان .

٣ — ذكر جملة من المقالات المنسوبة إلى الإباضية ، ونص على أن الكعبى حكاها عنهم • وهذا موقف سليم من أبى الفتح حين تخلص من عهدة تلك الأقوال ونسبها إلى من حكاها بما فيها من صدق أو غيره •

٤ — حسب الحفصية والحارثية واليزيدية فرقا مستقلة ولم يدخلها فى الإباضية وهو موقف فيه تمحيص وتحقيق خالف فيه السابقين ممن كتبوا فى الموضوع •

٥ — لم يذكر قصة ثعلبة ولا قصة بيع الأمة وما بنى على ذلك ، فسلم كتابه من تلك النزعات الفارغة • والأباطيل الجوفاء •

ويتضح من هذا أن أبا الفتح وإن سلك طريق الآخرين فى تقسيم الفرق والحكم عليها إلا أنه كان أكثر دقة واجتهادا وتحريا من سابقيه ، وخالفهم فى عدد من المواقف تقدر له ، ولا نأخذ عليه شيئا غير ما ذكرناه سابقا فى تورطه كما تورط غيره فى حكمه على مجموعة من الفرق بالضلال مسبقا مع شرطه على نفسه أنه سيقف من الجميع موقفا سلبيا لا يصوب ولا يخطىء ، ثم وعده بالرجوع إلى مصادر الفرق فى نسبة الأقوال وعدم وفائه بذلك • وبالنسبة الى الإباضية بدلا من أن يرجع الى علمائهم أو كتبهم التجأ إلى الكعبى • وغيره ممن لم يذكره فوقع فى أخطاء كان حريا ألا يقع فيها • أما خطؤه فى تاريخ عبد الله بن إباض فهذا خطأ قد لا يسلم من مثله الكثير من الكتاب •

وعلى كل حال فأبو الفتح عندما كتب عن الإباضية لم يأخذ مقالاتهم من مصادرهم وإنما أخذها من مصادر غيرهم ولكن ذكره لتلك المقالات

كان يتسم بدقة الملاحظة والمعرفة لآراء الفرق ، ولذلك فقد نسب ما قيل له عن الإباضية الى رواته ، وجعل بعض من ما كان يحسب على الإباضية وليس منهم فرقا مستقلة وأغفل قصة النزاع على الأمة والطفلة ، وهـذا وحده يعتبر منه نقدا وردًا على كتاب المقالات السابقين • وهى خطـوة تستحق الثناء والتقـدير •

الباب الثانى

مع المعاصرين

* مع الأستاذ على مصطفى الغوالى
* مع أبى زهـــرة
* مع عبد القادر شيبة الحمد
* مع الدكتور هويدى
* مع الدكتور هويدى أيضا
* د . هويدى فى تبعية المستشرقين
* مع عز الدين التنوخى
* مع الأستاذ إبراهسم محمد عبد الباقى
* مع الأستاذين : التنوخى وإبراهيم عبد الباقى

الباب الثانى

مع المعاصرين

الكتب التى تحدثت عن الفرق الإسلامية فى هذا العصر – سواء كانت تعنى بالفرق جميعها أو ببعضها – كثيرة ، ومناهجها فى البحث مختلفة ، والإحاطة بها غير ممكنة ، والأساليب تناولتها بها تختلف من كاتب إلى كاتب ، منهم التقليدى الذى يرجع إلى المصادر القديمة ، فيأخذ عنها بالنص أو بالمعنى لا يخرج عن دائرة تلك المصادر المحدودة التى عرضها ووثق بها ، وهو فى ذلك لا يستخدم فكرا ، ولا يعمل رأيا . ومنهم من يميل عن المصادر العربية إلى المصادر الأجنبية ، يصطنع أسلوبهم ويتخذ منهجا – فى بحثه – شبيها بمناهجهم ، ويقتبس منهم الآراء والنظريات ، ويبنى على مقتضاها الأحكام . ومنهم من يبذل الجهد ويطلع على مختلف المصادر . ولا يبنى حكمه على فرقة إلا بعد الرجوع إلى مصادرها هى نفسها ، ومقارنتها بما قيل عنها .

وبعد دراسة لموضوع الإباضية فى عدد من كتابات المعاصرين واستعراض لمناهجهم وأساليبهم استقر رأيى على أن آخذ نماذج منهم تمثل الاتجاهات السابقة :

وكان اختيارى لمن يمثل الاتجاهات السابقة كما يلى :

١ – الأستاذ على مصطفى الغرابى

٢ – الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة

٣ ـ الأستاذ عبد القادر شيبة الحمد

٤ ـ الدكتور يحيى هـويدى

٥ ـ الأستاذ عز الدين التنوخى

٦ ـ الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقى

أما كتبهم التى كانت مرجعا للدراسة فى هذه الفصـول فهى حسب الترتيب السـابق :

الكتاب	المؤلف
١ ـ تاريخ الفرق الإسلامية	الأستاذ الغوابى
٢ ـ المذاهب الإسـلامية	الأستاذ أبو زهرة
٣ ـ تاريخ المذاهب الفقهية	الأستاذ أبو زهرة
الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة	الأستاذ شيبة الحمد
تاريخ فلسفة الإسلام من القارة الإفريقية	دكتور هويدى
مقدمات على مجموعة فى الكتب	الأستاذ عز الدين التنوخى
الدين والعلم الحديث	الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقى

أرجو أن يجد القارىء الكريم متعة فى مرافقة هؤلاء الكتاب العظام .

مع الأستاذ على مصطفى الغوابى

هذا مؤلف معاصر كتب عن الفرق الإسلامية ، وهو فى كتابته عن هذه

الفرق كان يبذل جهدا مشكورا ليظهر بمظهر الاعتدال وعدم التعصب ، واستعمل فى كتابته أسلوبا غاية فى الرقة واللطف .

وكان يحاول أن يجمع فـرق المسـلمين جميعا على صعيد المحبـة والاحترام والتعاون ، وأن يذكر ، لكل منهـا — على الأقـل — مزاياها الظاهرة فى سلوكها العام ، وفى خدمتها للإسلام . ولكنه مع كل ذلك لم يسلم من عدد من الانزلاقات . سببها له اعتماده المطلق وثقته الكاملة فى جانب واحـد من كتب المقالات فقد اعتمد فى جميع ما كتبه عن الإباضية — وهم فى نظره وفى مصادره فرقة من فرق الخـوارج — على المصـادر الآتيـة :

المقـالات للأشعرى

والفرق بين الفرق للبغـدادى

والملل والنحـل للشهرستانى وكتاب التبصير للإسفراييني

وهذه الكتب الأربعة قد سبق أن تحدثنا عنها وعـرفنا موقفها من الإباضية كما أشار أحيانا قليـلة إلى الرازى ، واعتمد فى معرفة مواطن الإباضـية فى العصر الحـاضر على المستشرق جولدتسيهر . ومعـروف بالبداهة أنه مادامت هذه مصـادره فإنه لن يخـرج فى تكوين رأيه عن نطاقها ، اللهم إلا باللهجة والأسلوب . ومع كل هذا فقد كانت له وقفات جديرة بالتقدير لأنها تدل على نزعة حرة فى التفكير فعمل بوعى ، وأنـه لا ينساق مع التيار دون أن يرى ما فى طريقه من تعرجات وأخاديد .

قلت : إنه يعتبر الإباضية فرقة من الخوارج ولذلك فإنه من المهـم

ـ فيما أرى ـ أن أصحبه قليلا حينما يعرض لهم حتى أستطيع أن أحدد جوانب النقاش على أسس واضحة .

يسوق ثلاثة تعاريف لمعنى كلمة الخوارج فيقول :

١ ـ « إنهم سموا خوارج لخروجهم عن على بن أبى طالب » .

ويعزو هذا التعريف إلى أبى الحسن الأشعرى .

٢ ـ يرجح فى هامش الصفحة أن التسمية مأخـوذة من قوله تعالى (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه المـوت فقـد وقع أجـره على الله) وعلى هذا تكون التسمية لقب مدح لاذم" وتكون منهـم لا من مخالفيهم ، وأن حياتهـم التى صبغت بالتفانى فى القتـال تحقيقا لمبادئهم تساعدنا على هذا الاستنتاج .

٣ ـ « إن كل من خرج عن الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا سـواء كان الخروج فى أيام الصحابة على الأئمـة فى كل زمان ، وعلى هـذا التعريف يـكون تسميتهم بالخـوارج من مخالفيهم لامنهم ، وأن الخوارج مستمرون فى كل وقت مادام يوجـد من يخـرج على رؤساء الحكومات » وينسب هذا التعريف إلى الشهرستانى .

ورغم أنه يرجح التعريف الثانى إلا أنه يقول : « ولكن هناك فرق بين الخـوارج بهـذا الاصطلاح ـ أى الاصطلاح الـذى نسـبه إلى الشهرستانى ـ والخوارج الذين نؤرخ لهم . وهو بعـد أن يذكر هذا يحاول أن يلخص حركتهم فى مجرى التاريخ ولـكن هـوة عميقة تعترض طريقه فلا يستطيع أن يتخطاها ـ كما فعل المؤرخون وأصحاب المقـالات

من قبله — دون وقفـة رائعة من التفكير والتأمل • ثم يستعرض آراء الخوارج فى الجملة — كمـا تصورها مصـادره ثم ينتقل إلى استعراض فرقهم الأصلية فرقة فرقة حتى يصـل إلى الإباضية متبعا فى ذلك نفس المنهج الذى سارت عليه تلك المصادر ولكنه فوجىء مفاجأة أخـرى — لم يهتم لها السـابقون — تركته يقف فى حيرة وتأمل •

ولكى نوضح للقارىء الكريم هذين الموقفين يجدر بنا أن نعود إليهما بشىء من التفصيل • كان الأستاذ الغوابى يلخص حركة الخـوارج فى مجرى التاريخ حسب مصادره السابقة وتتبعها حتى ذكر أن أهل النهروان قتلوا جميعا ولم ينج منهم إلا تسعة أشخاص من أربعة آلاف وتذكر تلك المصادر أن الأربعة الآلاف لم يستطيعوا أن يقتلوا من محاربيهم إلا تسعة أشخاص كأنما كان أولئـك النـاس مقيدين لا يحملون سـلاحا • وأن أولئك التسعة الذين نجوا من تلك المجـزرة الرهيبة تفرقوا فى البـلاد ولا شك أن من كان على مثل هذه الحالة لا يستطيع أن يقوم بحـركة فى مدى قريب • ولكنه فوجىء وهو يستعرض أحداث التاريخ بأن العصر الأموى ابتداء من معاوية — وبعد أن قـتـِل المحكمة كلهم على ضفة النهر — كان مشحونا بحركة دائبة للخروج فلم يظهر له كيف يربط الصلة بين المحكمة الذين قضى عليهم حسبما تذكر المصادر وبين حركة الخـوارج فيما بعد ويتساءل عن هذه العلاقة فيما بينهما فى حـيرة ولكنه لا يحظى بجواب لأن المؤرخين السابقين لم يقدموا أى شىء عن ذلك بل إنهـم لم يهتموا أو لم يحسوا به ولذلك فهو يستسلم فى ارتياب وحيرة ثم يتخـذ موقفا ظن أنه يقدم بعض الحل إذا لم يقدم الحـل كله فاعتبر المحكمة سلفا للخوارج ولو أنه لم يستطع أن يوضح هذه الرابطة السلفية أو يقدم لها تفسيرا اللهـم إلا إذا كان يراها — فيما بينه وبين نفسه — بوراثـة

فكرية أو نسبية غير مباشرة • ذلك أن المحكمة إنما كان الخلاف بينهم وبين أمير المؤمنين على وقد انتهوا فى سنة ٣٧ من الهجرة أما الخوارج فقد وضح موقفهم بمبادئهم الخاصة ضد الأمويين فى سنة ٦٤ للهجرة بقيادة الأزارقة والنجدات كما يرى الأستاذ الغوابى وإذن فهنالك انفصام تاريخى عملى بين حركة المحكمة وحركة الخوارج وهناك انفصام فكرى بينهما أيضا وإن لم يشر إليه الأستاذ الغوابى صراحة ولكنك تحسه وأنت تقرأ وذلك أن الميدان الذى يشتغل فيه الخوارج غير الميدان الذى اشتغل فيه المحكمة •

وحين كان يستعرض مبادىء الخوارج وأفكارهم عامة وجد أن المصادر التى يعتمد عليها ترميهم بالشذوذ والتشدد وضحالة الفهم والعقل ، فلما استعرض فرقهم فرقة فرقه واستعرض الإباضية — كفرقة من الخوارج حسب المصادر التى يعتمدها — لم يجد فيها تلك الصورة الشرسة البغيضة التى ترسم عن الخوارج — سواء كان القصد من الرسم إعطاء صورة عنهم أو إعطاء صورة لهم — فوقف وقفته الثانية من التأمل والتفكير ، والمؤرخون — كالعادة — لا يقدمون له الحل وهو لا يستطيع أن يتهم المصادر التى يعتمد عليها ، فهى من الكثرة والتعدد بحيث لا يسهل اتهامها • وخطر له الحل فهو قد افترض أن للخوارج سلفا وخلفا فما يمنع أن يكون الخلف قد غيروا موقفهم عن سلفهم فتساهلوا بدل التشدد الذى كان عند سلفهم ولما كانت آراء الإباضية لا تحمل شيئا من طابع الخوارج الذى تصفه المصادر ، ومواقفهم لا تتفق مع مواقف أولئك المتشددين فما يمنع أن يكون الإباضية هم خلف الخوارج ولكنهم تساهلوا وعدلوا عن موقفهم المتزمت • ولا شك أن هذه الفكرة كانت فى مبدأ الأمر خاطرة خطرت فى ذهن الأستاذ الغوابى وهو يقلب وجوه الرأى للخروج من الهوة التى تركها المؤرخون وكتاب المقالات دون

أى اهتمام ، وانتقلت الخاطرة فصارت فرضا ثم صارت حقيقـة حلت المشكلة فى ذهن الأستاذ وبنى عليها بحثه فيما بقى • ولكن هذه الخاطرة أو الفرضية كالفرضية الأولى تبقيان متأرجحتين كالخشبة التى توضـع للعبور فوق هوة عميقة ما تطؤها قدم حتى تهتز ويحس المار بالحقيقـة المختفية تحته • وأحب هنا أن أذكر للقـارىء الكريم أن الكتاب الذين تناولوا الخوارج فى أبحاثهم ثلاثة أقسام :

القسم الأول هم أولئك الكتاب المتشددون الناقمون الذين يخرجونهم من الإسلام أو يكادون ، وهم يرمون عليهم كل أوزار التاريخ الإسلامى يقول مؤرخ معاصر (١) : « ومنذ أن خرجوا على سيدنا على انفتح باب الفتنة فلم يسد بعد • ولن يسد مادام لهم أنصار على وجه الأرض » •

القسم الثانى هم أولئك الذين ينقلون ما يجدونه فى المصادر دون دراسة أو تفهم أو تحليل وآراؤهم تكون حسب الصدفة فإذا وقعوا على مصادر تميل الى الخوارج أو تعطف عليهم كان لهم رأى وإذا وقعـوا على مناوئة لهم كان لهم رأى آخر مغاير •

القسم الثالث هم أولئك الـذين يقفون منهم مـوقف الاعتـدال يحسبونهم من جملة المسلمين ويتحدثون عنهم بلطف وسماحة وقد يلتمسون لهم الأعذار وربما أيدوهم فى بعض آرائهم ومبادئهم وفى هـذا القسم الأستاذ على مصطفى الغوابى وقد حاول أن يعتذر للخوارج بأعذار سبق أن اعتذر لهم بها كتاب سابقون وفى إمكانى أن ألخصها لك فى عـدد من النقاط مستخلصة من فصله « الحكم عليهم » كما يأتى :

١ — كان إدراكهم للتعاليم الدينية إدراكاً سطحياً •

---

(١) انظر كتاب الفتح العربى فى ليبيا الطبعة الأولى ص ١٠٤ .

٢ — كان يصاحب إدراكهم إخلاص لما عرفوه من الدين حسـب فهمهم •

٣ — إخلاصهم لعقائدهم جعلهم ينكرون على كل من يخالف أمراً من أمور الدين — حسب فهمهم وإدراكهم — •

٤ — هذا الإنكار جعلهم يحكمون على مخالفيهم بالشرك أو الكفر •

٥ — عدم الدقة فى الأحكام كانت عند أوائل الخوارج •

وهكذا ترى أن الاعتذار عنهم — حتى ممن يعطف عليهم ويتسامح معهم — هو الآخر اتهام بصورة أخرى قد تكون أقسى وأشد •

والمشكلة الحقيقية فى كتاب المقالات ان الواحد فيهم حين ينتصب للكتابة يعطى لنفسه حقين ثابتين ينطلق من خلالهما :

الحق الأول أن الفرقة التى ينتسب اليها هى التى تمثل الإسلام حقيقة فهى غير خاضعة لا للتقويم ولا للنقد ولا للمقارنة وحكمها على غيرها هو حكم الإسلام نفسه وآرؤها وعقائدها هى الميزان الذى توزن به عقائد وآراء الآخرين •

الحق الثانى يرى أنه ما دام ينتسب الى فرقه محقة تمثل الإسلام فمن صلاحياته أن يحكم على الفرق الأخرى وأن يقرر بعدها أو قربها من الإسلام بمدى الخلاف الذى بين تلك الفرق وفرقته •

وهو لا يجـد أى حرج فى أن يصدر أحكاما عامة أو خاصـة على الآخرين بهذا الاعتبار على هذا الأساس •

ولذلك قال الأستاذ الغوابى رغم اعتداله ومحبته لوحدة المسلمين فهو قد حدد لنفسه موقفا فى فرقة محقة لا تخضع للتقويم ومن موقفه العالى ذلك يرى الفرق الأخرى وهى ترتكب أخطاءها ولما كان من طبعه اللين والتسامح فقد راح يعتذر عنها — تأليفا — وثانيا — بأنها فرق ساذجة بسيطة ليس لها ملكة الفهم ولا التعمق والتفكير ومن كانت هذه حالته فينبغى ألا يؤاخذ وإنما يستأنس ويستجلب ويرفق به •

أو هذا على الأقل بالنسبة لما رآه عن الخوارج وقد أطلت النقاش فى موضوع الخوارج لأنه يعتبر الإباضية فرقة منهم وأغلب ما يقال عن الخوارج يشمل الإباضية •

بعد هذا يسرنى أن أنقل إليك بعض ما قاله فى الإباضية خاصة • فقد جاء فى كتابه القيم (تاريخ الفرق الإسلامية) فى فصل الخوارج ما يلى :

« وأما الإباضية وهم إحدى الفرق الأصلية (١) عند الأشعرى وينسبون لرئيسهم عبد الله بن إباض فإن فروعهم هى :

١ — الحفصية وإمامهم حفص بن أبى المقدام •

٢ — اليزيدية أصحاب يزيد بن أنيسة •

٣ — الحارثية أصحاب حارث الإباضى •

---

(١) يقصد أنها فرقة أصلية من فرق الخوارج لأن أبا الحسن الأشعرى يرى أن الخوارج ينقسمون أولا الى فرق أصلية وأن كل واحدة من الفرق الأصلية تنقسم الى عدد من الفرق يعتبرها الأشعرى فرقا فرعية للخوارج .

٤ — ومنهم من يسمون أصحاب طاعة لا يراد بها وجه الله ومنهم الواقفية ومن الواقفية الضحاكية « واقفية أخرى » وسبب تسمية الأولى والثانية بالواقفية أن كلتيهما وقفت بين فريقين اختلفا على حكم فلم ينضما الى أحد الفريقين المختلفين وقالوا نقف فسموا واقفة لهذا » •

وقد سبق أن اطلع القارىء الكريم على هذه الفرق المزعومة عند الكتاب الأقدمين كأبى الحسن ومن ذكر بعده بتفصيل أكثر • وعلم هناك أنه لا أساس لنسبة هذه الفرق الفرعية الى الإباضية وأن ما ينسب إليها من المقالات لا يقول به الإباضية ومنه ما يحكمون على قائله بالكفر •

وقال الأستاذ الغوابى فى نفس المصدر ما يلى :

« أما الإباضية فقد تساهلوا فى كثير من الأحكام التى كان يشدد فيها سلفهم فقالوا إن مخالفيهم من أهل القبلة كفار غير مشركين (١) ، وأن مناكحتهم جائزة ، ووراثتهم حلال ، وأن أموالهم إذا غنمت من الحرب حلال ، إذا كانت مما يعين على الحرب كالسلاح ، وما عدا هذا فى الأموال فهو حرام ، ويحرم قتلهم غيلة وفى السر ، وإنما يجوز القتل إذا أقاموا على خصومهم الحجة ، وأعلنوهم بالقتال ، وقالوا إن جميع ما افترضه الله سبحانه على خلقه إيمان فعندهم الإيمان تدخل فيه الأعمال ، والأعمال جزء منه ويظهر أن هذا الرأى هو الغالب على فرق الخوارج ، فتلك لطائفة تقدس الأعمال وترفع من شأنها ، ونعم هذا الرأى • وليت المسلمين يتمسكون به ، إلا أنه إذا ارتكب مؤمن كبيرة من

---

(١) انساق الغوابى مع التيار فاستعمل هذا التعبير الملتوى وله ما اختار.

الكبائر فهو كافر كفر نعمة لا كفر شرك ، ولكن مع قولهم بهذا فإنهم يقولون بتخليده فى النار •

وقالوا إن دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد لا دار كفر ، وهذا أيضا من نواحى تساهلهم • حيث أن سلفهم كانوا يقولون إن دار مخاليفهم دار شرك ، ومما خالفوا فيه سلفهم وكانوا أكثر تساهلا منهم فيه أنهم أجازوا شهادة مخالفيهم ، وأما أطفال المشركين فبعضهم يلازمهم على غير طريق الانتقام ، وجوز أن يدخلهم الله الجنة ، وبعضهم يقول إن إسلامهم واجب لا جائز ، ومن هنا نرى أن متأخرى الخوارج كانوا أكثر تساهلا مع مخالفيهم أكثر من متقدميهم ، وأن هذا التساهل بدأ يزداد شيئا فشيئا ولا ندرى هل سبب هذا التسامح هو أنهم ضعفوا لكثرة حروبهم فهم يريدون أن يتقربوا من مخالفيهم شيئا فشيئا حتى لا تقوم بينهم الحرب أم أنهم لما اتسعت مداركهم وعرفوا ما لم يكن يعرفه سلفهم الذين كانوا من عرب البادية ، وفيهم سذاجة وعدم عمق فى التفكير ، كانوا أكثر تسامحا مع مخالفيهم من سلفهم ولا مانع من أن يكون قد اجتمع لديهم السببان معاً • فالحروب قد أضعفت من حماسهم ، وأن مداركهم قد أتسعت عن مدارك سلفهم ، وأصبحت نظرتهم فاحصة وعميقة فى نواحى الدين أكثر من سلفهم » •

ويقول فى موضع آخر من الكتاب ما يلى :

« ولكن يظهر أن عدم الدقة فى الأحكام كانت عند أوائل الخوارج — كما قلت — وأما متأخروهم فإنهم قد دققوا فى الأحكام ، وفرقوا بين عمل وعمل ، ولم يشتطوا فى أحكامهم ، كما اشتط سلفهم وكما لاحظنا

فيما تقدم صارت أحكامهم على مخالفيهم فيها تسامح وفيها تساهل •
ليس كل مخالف لهم كافرا أو مشركا ، وليس أطفال المشركين مخلدين
فى النار • وليس حكمهم حكم آبائهم ، ويلاحظ أنه لما ضعفت قوتهم
الحربية اتجهت نفوسهم نحو الإنتاج العلمى ، حتى أصبحت لهم مؤلفات
فقهية وكلامية ولغوية وأدبية ، ويلاحظ أن فرقهم لم يبدهم أعداؤهم تماما
بل بقى منهم إلى عهدنا هذا جماعات يسكنون فى إفريقيا الشمالية من
خوارج الإباضية وهؤلاء يقيمون فى اقليم جبل نفوسة بطرابلس الغرب ،
ويوجد كذلك فريق آخر بزنزبار بأفريقيا الشرقية » •

هذا ما قاله الأستاذ الغوابى عن الإباضية خاصة وواضح أنه استقى
جميع معلوماته عن الخوارج عامة وعن الإباضية خاصة من مصادر
غيرهم فهو لم يذكر أى كتاب من كتب الإباضية كما لم يذكر أى كتاب
للخوارج إن بقيت لهم كتب بعد هذا أود أقف مع الأستاذ الغوابى
وقفات قصيرة لمناقشة بعض النقاط الواردة فى بحثه •

النقطة الأولى : مخالفوهم :

من المؤسلف أن الذين كتبوا عن الإباضية — وهم يحسبونهم
من الخوارج كانت تسيّر أقلامهم عقدة مستحكمة لم يكد يتخلص منها
واحد منهم ذلك أن بدا فى يوم ما كانت قد رسمت ببراعة الخط الذى
يسير عليه من يكتب عن الخوارج وأن يكون هذا الخط لا يخرج فى طبيعة
سيره عن معاملتهم لمخالفيهم وسار كتاب المقالات فى الخط المرسوم
لا تكاد كتاباتهم عن الخوارج تخرج عن معاملاتهم لمخالفيهم ومحاسبتهم
عليها الحساب العسير ، ولم يسمح أولئك الكتاب لأنفسهم أن يبحثوا
ويناقشوا الجانب الثانى من الموضوع وهو معاملة مخالفيهم لهم ولم يخطر

لهم أن يفرضوا حتى مجرد فرض أن هذا السلوك ربما كان رد فعل أو من باب الدفاع .

وقد خضع الأستاذ الغوابى لهذا التوجيه وسار مع نفس الخط فذكر — فى الفقرات القليلة كلمة مخالفيهم نحو عشر مرات صراحة فوق دلالة الضمير عليها . ولكثرة ما ترددت على ما فى كتب المقالات ولأنها المتجه الأساسى للكتاب ومركز لبحوثهم سميتها عقدة الكتاب عن الخوارج .

٢ — الانسياق مع التيار :

انساق الأستاذ الغوابى مع تيار كتاب المقالات فذهب يعدد فروع المسألة الواحدة كما كانوا يفعلون هم للتهويل والإكثار ولو تأمل قليلا لوجد أنه قد ذكر للإباضية فى الفقرات السابقة إحدى عشرة مقالة منها ثمانى مقالات تتعلق بمخالفيهم . « هم غير مشركين ، مناكحتهم جائزة . وراثتهم حلال ، غنيمة أموالهم غير جائزة ما عدا السلاح (١) ، لا يجوز قتلهم غيلة أو فى السر ، لا يجوز قتال خصومهم إلا بعد الإعلان وإقامة الحجة ، دارهم دار إسلام ، شهادتهم جائزة على موافقيهم » وهذه المقالات كلها مسائل فرعية لموضوع واحد وهى فروع تنبى على أصل واحد هو الإسلام فما دام الإباضية يرون أن جميع من نطق بكلمة التوحيد هو مسلم سواء وافقهم أو خالفهم وأنه بنطقه بكلمة الشهادة قد اكتسب جميع الحقوق التى عند غيره من المسلمين أو التى

---

(١) الاباضية لا يبيحون شيئا من أموال المسلمين حتى السلاح خوفا لما ينسبه اليها كتاب المقالات .

يمنحها الإسلام للمسلمين فلا داعى لأن نبدأ فى تعداد تلك الفروع فرعاً فرعاً • لأنها من حقوق المسلمين جميعاً ولا تسقط عنهم إلا بأسباب حددتها الشريعة كما يسقط حق الباغى وقاطع الطريق فى عصمة دمه و لايباح ماله ولا سبى عياله • بل إن تلك الحقوق والحرم مصونة لكل مسلم لا تسقط أبدا مهما ارتكب ولا تضيع منه إلا بالخروج من الإسلام • والشىء الوحيد الذى يفقد الإنسان حق صيانته مع أنه مسلم إذا وجدت أسبابه هو دمه وذلك كالباغى والزانى •

٣ ــ تســاهل الخلف :

يقول الأستاذ الغوابى ــ إن خلف الإباضية تساهلوا عن سلفهم وقد أعاد هــذه الفكرة عدة مرات • ولست أدرى على أى مستند بنى حكمه هــذا ، فهو فيما يبدو لا يعرف أى كتاب من كتب الإباضية لأنه لم يذكر منها شيئاً فى مراجعه ومع ذلك فأنا أقول له إن تغير الاجتهادات فى غير القطعيات من محاسن هذه الشريعة ولم يخل منهــا مذهب من المذاهب الإسلامية وقد يتغير رأى عالم واحد فى قضية واحدة فيكون له فيها رأى أو آراء ولم يكن ذلك دليلا على أن صاحب الرأى الأول ، أو أن العالم فى رأيه الأول ، كان سطحياً أو ضــيق التفكير •

ومع هذا فأنا أؤكد للأستاذ الغوابى أن المسائل التى أوردها لم يتغير فيها رأى خلف الإباضية عن سلفهم فيما عدا مسألة واحدة هى مسألة أطفال المشركين فقد كانت عند السلف خلافية ورجح الخلف أنهم من أهل الجنة خدماً للمسلمين طبقاً للأحاديث الواردة فى الموضوع • أما المسائل الثمانية التى ذكرناها سابقا فهى فروع لأصل واحد كما قلنا ورأى سلف الإباضية فيها هو هذا الرأى الذى سجلناه وتكاد تجمع كتب التاريخ أن

أول من حكم بالشرك على مخالفيه من المسلمين فعاملهم معاملة المشركين وأسقط عنهم تلك الحقوق السابقة هو نافع بن الأزرق • وتكاد تجمع كتب التاريخ أن عبد الله بن إباض كان من أوائل من رد على نافع رأيه هذا اذا لم يكن أولهم على الإطلاق وقد سجلت منذ ذلك التاريخ حوالى سنة ٦٤هـ مواقف حاسمة لعبد الله بن إباض وجابر بن زيد فى مقارعة الخوارج فى موضوع الحكم بالشرك على المخالفين والقعدة وفى موضوع الحكم بالشرك على مرتكب الكبيرة • بل لقد كان الإباضية من أشد المسلمين على الخوارج فى هـذا الموضوع بالذات حتى أنهم كانوا يطردون من يرى رأيهم من حضور مجالسهم واجتماعاتهم ويمنعونهم من الحديث بآرائهم تلك خوفاً على ضعفاء الناس وعوامهم • وأود الآن أن يعرف الأستاذ الغوابى ومن يرى رأيه أن سلف الإباضية — بعد الصحابة الذين هم سلف لجميع فرق الأمـة ومنهم الإباضـية — هم هؤلاء جابر بن زيد وعبد الله بن إباض وجعفر بن السماك العبدى وصحار بن العباس العبدى ثم من أخذ عنهم •

وليس فوق هؤلاء سلف غير الصحابة كما قلت آنفاً أما التابعون من طبقة جابر كالحسن والسعيدين وعطاء وغيرهم ممن هو فى درجتهم فهم أيضاً سلف لجميع الأمة والإباضية يضعونهم فى مكانهم بعد أصـحاب رسول الله ﷺ يأخذون عنهم جميعاً •

وبهذا يتضح أنه لا معنى لـما يراه من أن خلف الإباضية تساهلوا عن سلفهم فى المواضيع التى عرضها أما فى غيرها من المواضيع الاجتهادية فى الفقه العملى فهم فيه كبقية الأمة قد يذهب أحد مجتهديهم من الخلاف الى التيسير فى مسألة كان السلف يرى فيها التشديد ويحضرنى فى ذلك مثلان قريبـان :

الأول فى قضاء رمضان فإن المعمول به عند الإباضية أنه يجب التتابع فى القضاء كما يجب فى الأداء • وذهب الأستاذ باكلى عبد الرحمن من علماء الإباضية المعاصرين الى عدم وجوب التتابع تيسيراً على الناس واستناداً الى ما ذهب اليه بعض الأئمة من غير الإباضية •

الثانى : يرى علماء السلف من الإباضية أن طعام أهل الكتاب يحل إذا كانوا تحت الذمة أما إذا لم يكونوا كذلك فلا يحل طعامهم ولا نكاح نسائهم • وكأنما يرون أن هـذا مرتبط بالجزية والجزية تدل على وجود رقابة اسلامية عليهم فإن انعدمت الجزية انعدمت الرقابة وإذا انعدمت الرقابة انعدم هـذا الإكرام أو الشرف الذى يعطى للكاتب دون غيره •

وقد زار أستاذنا إبراهيم بيوض أحد أئمة الإباضية ومجتهديهم فى العصر الحاضر • أوروبا ورأى العنت الذى يتكبده طلبة العلم بصفة خاصة فى موضوع الأكل فذهب الى تحليل ذبائح أهل الكتاب مطلقاً سواء كانوا تحت الذمة ولم يكونوا كذلك تيسيراً على الناس واعتماداً على العموم فى الآية الكريمة واستناداً الى ما ذهب اليه بعض أئمة المسلمين فى مختلف العصور •

والمشكلة التى تركت الأستاذ الغوابى يضطرب هذا الاضطراب • ويفترض خلفاً متساهلا وسلفاً متشدداً فى قضايا انتقلت عبر القرون بألفاظها وحروفها هو ربطه للإباضية فى عجلة الخوارج اعتماداً على كتاب المقالات من غير الإباضية ودون الرجوع إليهم فى كتبهم •

٤ — بحث عن الأسباب :

يختار الأستاذ على الغوابى فى أسباب تساهل الإباضية عن سلفهم

وتسامح المتأخرين منهم عن المتقدمين وبعد الحيرة والتساؤل يستنتج أن ذلك كان للأسباب الآتية :

١ ــ ضعفوا لكثرة حروبهم فهم يريدون أن يتقربوا من مخالفيهم شيئاً فشيئاً حتى لا تقوم بينهم الحروب •

٢ ــ اتسعت مداركهم وعرفوا ما لم يكن يعرفه سلفهم •

٣ ــ سلفهم كانوا من عرب البادية وفيهم سذاجة وعــدم عمق فى التفكير •

لا شك أن هذه الأسباب التى ذكرها الأستاذ الغوابى هى افتراضات قدمت لحلول مشاكل هى الأخرى افترضت افتراضاً ولا يعنينا فى شىء ، ما إذا كان يوافق الأستاذ الغوابى فى هذه الافتراضات أحداً من المستشرقين أو من الكتاب الآخرين • ولقــد كان بودنا لو أن الأستاذ الغوابى بنى استنتاجاته وفروضه بعد أن يكون اطلع ودرس تاريخهم الذى كتبوه عن أنفســهم •

أشار الأستاذ الغوابى إلى ضعفهم بسبب كثرة حروبهم وربما يفاجأ القارىء بعكس الصورة إذا وضعت بين يديه الحقائق الآتية :

إن كتب التاريخ الإباضية ــ وهى أعلم بهم وبحروبهم ــ لم تذكر لهم حرباً فى الجزيرة العربية غير حرب واحدة هى الحركة التى قام بهــا عبد الله ابن يحى الكندى المشهور ــ بطالب الحق ــ طيلة عهــد الدولة الأموية رغم أن الإباضية كانوا منتشرين فى جميع أنحــاء البلاد العربية

وكان مركز تكوينهم وتجمعهم هو البصرة ورغم أن إمامهم عبد الله بن إباض كان شخصية مليئة بالنشاط والحركة وكان شديد العنف فى نقــده لملوك الدولة الأموية وسجلت له مناظرات مع عبد الملك بن مروان كما كان شديد العنف فى نقده للخوارج وسجلت له أيضاً فى ذلك مواقف ورسائل إلا أنه لم يشترك فى عملية حربية لا ضد هؤلاء ولا ضد هؤلاء بل لمــا طلب إليه عدد من الناقمين على الحكم الأموى أن يبايعوه رفض فى شدة ثم أشــار إلى عمران المساجد بالذكر والصلاة وقال فى لهجــة احتجاج أعلى هؤلاء يجوز الخروج ؟! ويتضح من هــذا أن تلك الفترة التى كانت مليئة بالدماء أمسك الإباضية أنفسهم فلم يلوثوها اللهم إذا كان من أفراد متطرفين ينتمون إلى الإباضية بالإسم لا بالمبدأ ..

وقد قام باسم الإباضية عدد من الدول فى أربعة مواضع من البلاد الإســلامية هى :

١ ــ دولة فى عمان استقلت عن الدولة العباسية فى عهد أبى العباس السفاح سنة ١٣٢ هـ ولا تزال إلى اليوم . ولم تبدأ أحداً بحرب ، ولم تحاول أن تتوسع ، ولكنها هوجمت عــدة مرات فردت الاعتداء وحاولت الرد ، كما قامت فيها صراعات داخلية بين الإمامة والملكية ثم كان لها شرف دفاع الاستعمار الغربى نحو أربعة قرون فقد اتجه الاستعمار الغربى منذ القرن الخامس عشر الميلادى إلى الشرق وكانت دولة عمان من أهم الدول التى وقفت لصده ومحاربته منذ ذلك الحين إلى اليوم وقد كانت زنجبار شبه إمارة تابعة لعمان ثم استقلت بنفسها وبقيت كذلك حتى أزالها تعاون الإلحاد والعنصرية الإفريقية ضــد العروبة والإسلام .

٢ ـ دولة قامت فى ليبيا ١٤٠ هـ ولم تعمر طويلا فقد انتهت بعد نحو ثلاث سنوات .

٣ ـ دولة قامت فى الجزائر سنة ١٦٠ هـ وقد بقيت إلى حوالى ١٩٠هـ ثم قضت عليها الدولة العبيدية ومنذ ذلك الحين لم يرفع الإباضية السلاح فى المغرب الإسلامى ضد المسلمين ولم تمتد أيديهم لإراقة الدماء اللهم إلا تلك المواقف النبيلة الشريفة التى وقفها أهل جزيرة جربة ضد الغزو الأسبانى عدة قرون وكانت لهم فى ذلك مواقع بطولة يعتز بها الإسلام والمسلمون أو مواقفهم مع كل مواطن تونسى ضد فرنسا فى حروب الاستعمار . وما عدا المواقف الحاسمة من جميع إباضية المغرب الإسلامى فى ليبيا وتونس والجزائر ـ ضمن جميع المواطنين فى هذه البلاد لصد الاستعمار الغربى عند هجومه وفى حروب التحرر عند إخراجه .

٤ ـ دولة قامت فى الأندلس ولا سيما فى جزيرتى ميورقة ومينورقة وليس لدينا من أخبارهما الكثير . وقد انتهت يوم انتهت الأندلس وأطفأ التعصب الغربى شعلة الإسلام فى تلك الديار .

ومن هذه الصورة الموجزة يتضح أن الإباضية كانوا بعداء جداً عن الموقف الذى تصورهم فيها الأستاذ الغوابى من كثرة الحروب أما من حيث تقربهم إلى غيرهم من المسلمين فلا شك أن هذا واقع ولكن ليس على الأساس الذى ظنه الأستاذ الغوابى ولكن على الأساس الذى أشار إليه رسول الله ﷺ « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بحسن أخلاقكم » أو كما قال:

أما من حيث اتساع المدارك ومعرفة خلف الإباضية ما ليس يعرفه

سلفهم فهم فى هذا كبقية المسلمين • ولا شك أن العلوم فى تقدم والفكر فى اتساع وهذا فى جوانب علوم الحياة أما من حيث علـوم الشريعة ، فربمـا يكون العكس هو الصحيح • وهذا ليس بالنسبة للإباضية فقط وإنما بالنسبة لجميع المسلمين ، ذلك أن السلف — لقربهم من عهد النبوة — أعلم بمصادر التشريع فى كتاب وسنة وأقرب إلى فهمها فهما أصح ، وما يقال فى السنة يقال فى الإجماع ، ذلك أن الإجماع بمعناه المعروف عند الأصوليين لم يقع بعد عهد السلف فهو وإن اعتبر من مصادر التشريع إلا أنه لم يقع بعد ذلك العهد ، أما الإجماع الذى سبق عهد السلف وأعنى به الإجماع الذى وقع زمن الخلافة الرشيدة وهو إجماع الصحابة فهم أعرف به لأنهم هم الذين نقلوه إلى الخلف • بقيت مصـادر التشريع الأخرى كالقياس والاستبدلال مما هو مجال للاجتهاد واستنباط الأحكام فى الحوادث والنوازل • فلا شك أن ثروة المتأخرين منه أكثر من ثروة المتقدمين وكلما امتدت الحياة بالإنسان أضيف إلى هـذا الباب كثير من الأحكام • ويتضح من هذا أن خلف الإباضية لم يكونوا أوسع مدارك من سلفهم وكذلك بقية مذاهب الأمة وهذا من حيث استيعاب مصادر التشريع الأساسية التى هى الكتاب والسنة والإجماع •

أما الفقرة الثالثة من الأسباب التى افترضها فى سلف الإباضية وهى اعتبارهم من عرب البادية وفيهم سذاجة وعدم عمق فى التفكير • فهى صورة قد ترددت كثيرا على أقلام المستشرقين عندما يكتبون عن الفتوح الإسلامية بأيدى العرب • فهم يصورون حركة الفتوح بأنها هجمـات مجموعات بشرية من بدو الصحراء ضـاقت بهم الحياة وحملهم شظف العيش على المغامرة بغزو العـالم المتحضر لمكاسب مادية • وأن هـذه المجموعات البشرية البدوية من السذاجة وسطحية التفكير بحيث استطاعت

« قيادة ذكية » أن توجههم حسب مطامحهـا فتستفيد منهم وتحصـل بسببهم على انتصارات رائعة •

هـذه النغمة أو هذه الصورة التى يرسمها المستشرقون — لهوى فى نفوسهم — للمسلمين الفاتحين هى نفس النغمة التى رددتها بعض المصادر فى وصف الخوارج عموما وهى نفس الصورة التى أضفاها الكاتب المحترم على الإباضـية •

وقد يحق لنا أن نتساءل كيف استطاع الأستاذ الغوابى أن يحـكم بأن أفق خلف الإباضية أكثر انفساحاً من أفق سلفهم وهو لم يذكر أنه قرأ شيئا من آراء السلف أو آراء الخلف فى مصادرهم وإنما ما أخـذ عنهم من مصادر غيرهم ثم من أين عرف أنهم بدو وفيهم سذاجة وسطحية تفكير وهو لم يتح له أن يقرأ لهم ولم يتح له أيضـا أن يعرف تاريخهم اللهم ما عـدا الصورة الصغيرة المشوهة التى يعرضـها غيرهم لتنفير الناس منهم •

إن أحـكام الأستاذ الغوابى على الإباضية كانت مبنية على أسس غير سليمة وأعتقد لو أنه عرف تاريخهم من مصادر صادقة واطلع على مقالاتهم كما قالوها وكما نسبت إليهم لتغير كثير من أحـكامه ومع هذا كله فأنا أعتذر عن الأستاذ الغوابى بمـا يشبه اعتذاره عن الإباضـية فهو ولا شك مخلص فى دعوته محب لجمع كلمة المسلمين جميعاً مقدر لهم فى كل فرقهم معتز بهم بأخطائهم وإنما وقع فى عدد من الانزلاقات بسبب جهله بحقيقة تاريخهم وجهله بحقيقة مقالاتهم وجهله بالفروق الحقيقية بين المذاهب التى تحـدث عنها ونسبها جميعا إلى الخوارج • لم يبق لى

فى ختام هـذا الفصل إلا أن أذكر أن خلف الإباضية كسلفهم يحاولون بكل ما أوتوا من جهد أن يتقربوا من بقية المسلمين ، وكلمة المسلمين تجمع كل من أقر بالجمل الثلاث مهما كان مذهبه . وإذا سعى إليهم أحد منهم ذراعا سعوا إليه باعا . وهم يتعاملون مع جميع المسلمين على مدى التاريخ كما يتعاملون مع أنفسهم . ويدعون كامل الحق لغيرهم من المسلمين أن يكيفوا عقائدهم وعباداتهم على ما صح عندهم من طرقهم التى وثقوا بها واعتمدوها ، وليس يطلب الإباضية من غيرهم هـذا الحق وهو أن يتركوا فى عقائدهم وعباداتهم على ما صح عندهم ووثقوا به واعتمدوه .

مع أبى زهرة (١)

يقول الأستاذ محمد أحمد أبو زهرة فى كتابه (المذاهب الإسلامية) صـــفحة ١٢٧ ما يلى :

« الإباضية هم أتباع عبد الله بن إباض وهم أكثر الخوارج اعتدالا ، وأقربهم إلى الجماعة الإسلامية تفكيرا ، فهم أبعدهم عن الشطط والغلو ، ولذلك بقوا • ولهم فقه جيد ، وفيهم علماء ممتازون ، ويقيم طوائف منهم فى بعض واحــات الصــحراء الغربية ، وبعض آخــر فى بلاد — الزنجبار — ولهم آراء فقهية ، وقد اقتبست القوانين المصرية فى المواريث بعض آرائهم ، وذلك فى الميراث بولاء العتاقة ، فإن القــانون المصرى آخره عن كل الورثة حتى عن الرد على أحــد الزوجين ، مع أن المذاهب الأربعة كلها تجعله عقب العصبة النسبية ، ويسبق الرد على أصــحاب الفروض والأقارب » •

وجملة آراء الإباضــية :

١ — إن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفارا • ويقولون عنهم أنهم كفار نعمة لا كفار فى الاعتقاد ، وذلك لأنهم لم يكفروا بالله ، ولكنهم قصروا فى جنب الله تعالى •

---

(١) عند كتابة هذا الفصل كان الأستاذ ابو زهرة حيا يملأ الدنيا علمــا وعملا وشاء الله أن يختاره الى جواره قبل أن يطبع هــذا الكتاب ويطلع على ما قلنــاه عنــه .

٢ ــ دماء مخالفيهم حرام ، ودارهم دار توحيد وإسلام ، إلا معسكر السلطان ، ولكنهم لا يعلنون هذا ، فهم يسرون فى أنفسهم أن دار المخالفين ودماءهم حرام •

٣ ــ لا يحل من غنائم المسلمين الذين يحاربون إلا الخيل والسلاح وكل ما فيه من قوة فى الحروب ، ويردون الذهب والفضة •

٤ ــ تجوز شهادة المخالفين ومناكحتهم والتوارث معهم •

وفى هذا كله يتبين اعتدالهم وإنصافهم لمخا...

ويقول الأستاذ أبو زهرة فى كتابه (تاريخ المذاهب الإسلامية) الجزء الثانى فى تاريخ المذاهب الفقهية صفحة ٥٣ مايلى :

« فرق لها مذاهب فقهية :

هذه الفرق السياسية منها ما ليس له مذهب فقهى قائم بذاته ، ومنهم من ليس له مذهب فقهى ، ويتبع مذهب طائفة أخرى قريبة منه فى الاعتقاد •

وأن الفرق التى لها مذاهب فقهية معتبرة ثلاثة هى :

الإثنا عشرية : فلها مذهب فقهى مقرر ، وله منطق فكرى ودينى وينسبون مذهبهم إلى الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه ، وسيكون له بعض البيان عندما نتكلم عن الإمام الصادق •

والثانية : فرقة الزيدية • ولهم مذهب فقهى يقرب فى منطقة من

مذهب أهل السنة والجماعة ، وإمامها هو الإمام الجليل زيد بن على زين العابدين رضى الله عنهما •

والثالثة : الإباضية ، أتباع عبد الله بن إباض ، ولهم فقه مدون ، وللإباضـية جهود فى تحرير مذهبهم •

الأستاذ أبو زهرة من كبار علماء هذا العصر ، الذين تتجه إليهم الأنظـار فى المسـائل الإسلامية وتسمع منهم الكلمة ، وتلتمس عندهم الحجة • ورغم أنه أبدى كثيراً من الاعتدال ، واستعمل الرقة واللطف ، وسجل له آراء جديدة سلمية فى موضوع الفرق وعن الإباضية بالذات ، إلا أنه لم يسـلم من التأثر بالأقوال السـابقة التى ينقصـها التحقيق والتدقيق فى التعبير وجلاء المعانى لكشف الحقائق كشفا لا يحتمل الإيهام أو الإبهـام •

ومع أننا كنا ننتظر من أبى زهرة خاصة ـ لمكانته العلمية الرفيعة ـ أن تكون كتاباته فى جميع المواضـيع الإسـلامية متجردة ، غير متأثرة بأى مؤثر عدا الدراسة العلمية الموضوعية المبنية على الاطلاع الشخصى لاستخلاص الحقائق من مصادرها الثابتة والتى تتحرى مصلحة الأمـة المسلمة والتقريب بين وجهات النظر المختلفة فى مذاهبها وطوائفها • إلا أن الأستاذ أبا زهرة ـ على مكانته السامقة فى المعارف الإسلامية ـ قـد انساق ـ فيما يبدو ـ كما انساق غيره فى تيار تاريخى جارف قد كونته ـ فيما مضى ـ عوامل تحكمت فيها السياسة والعصـبية والفتنة الناتجة عنهما أكثر مما تحـكم فيه العقل والعلم والدين ، وكانت الشفاه والأقلام التى تعمل بتوجيه وإيحاء أكثر سيطرة وعلنية من الأقـلام والشـفاه المسـتقلة •

كما انساق أيضاً مع بعض الكتـاب المعاصرين ممن يتناولون بحث هــذه المواضيع ويناقشونها كما يتناولون ويناقشون القضـــايا السياسية العالمية فى هيئة الأمم المتحدة ، أو كما يدرسها ويخطط لها المستشرقون • فإن المستشرقين وهم يدرسون القضايا الإسلامية لا ينظرون إليها إلا من خلال مناظيرهم الخاصة التى يعرفون بها الحياة عندهم والحياة عندهم تتحرك بالحزبية • فلما وجهوا تلك المناظير إلى قضايا الأمة الإســلامية خيل إليهم أن أسلوب الحياة واحـد ، وتراءى لهم أن يطلقوا على بعض الفرق الإسلامية كلمة أحزاب دينية فأطلقوا هذه التسمية على فرق الشيعة وفرق الخوارج • وفى مقابل هذا رأى أولئك المستشرقون أن يطلقوا على غير الأحزاب الدينية حسب نظرهم كلمة المذاهب الإسلامية أو الجماعات الإسلامية وبهذا ينقسم العالم الإسلامى إلى معسكرين كبيرين أحدهما الأحزاب الدينية والثانى الجماعات الإسلامية وقد راقت هــذه التسمية لبعض الكتاب المعاصرين فاستعملوها ، كما راقت لأستاذنا الكبير أبى زهرة فاستساغها واستعملها فى كتبه • وكان منتظرا منه أن ينظر بدقة فى مثل هـذه التسميات وما وراءها والدوافع إليها فيستعمل الصحيح الأصيل الذى لا يحمــل أى غرض تبشــيرى أو استعمارى ويدع الدخيل الهزيل الذى تكمن وراءه مقاصد أو هو مستوحى من بيئة بعيدة عن الإســلام والمســلمين •

تبع الشيخ أبو زهرة من تأثر بهم فجعل الإباضية فرقة من الخوارج أى فرقة من الأحزاب الدينية ، ولا شك أن الذين قسموا الأمة الإسلامية إلى أحزاب ومذاهب كانوا يقصدون أن يضعوا فى أذهان أصحاب المذاهب أن أصحاب الأحزاب الدينية لا شأن لهم بالفقه ، وأنهم حتى لو بذلوا فيه جهودا مشكورة ، فهى جهود مهدورة لا تستحق النظر •

ورغم أن الأستاذ أبا زهرة يعترف أن الإباضـية يتسمون بالاعتدال وينصفون مخالفيهم ، وأن لهم فقها جيداً مدونا ، وأن لعلمائهم جهودا فى تحرير مذهبهم فإن هذا كله لم يشفع للإباضية عند أبى زهرة أن يخرجهم من نطاق الخوارج ، أو حتى من هـذه التسمية الجـديدة « الأحزاب الدينية » ورغم أن مثل هذه الصفات أو أقل منها للزيدية والجعفرية من الشيعة فاعترف بهم الأسـتاذ أبو زهرة وكتب عن فقههم ومذاهبهم . إلا أن موقفه من الإباضية كان — فيما يظهر لى — موقف الرجل الذى يعرف الحق فى قضية من القضايا فيدور حـوله ، ويصـفه من بعيد ، لا يجسر أن يعلنه فى صراحة ، لأن رواسب معينة تحول دون ذلك .

قـد يعذر الأستاذ أبو زهرة عندما يكتب عن فرق منقرضة لم تخلف وراءها كتباً فيلتجىء إلى ما كتبه عنهم غيرهم ، ويستند إلى ما قالوه عنهم ولكن ما عذر الكاتب المحقق عندما يكتب عن الإباضية فى هـذا العصر معتمداً على مصادر قد ألفت فى عصور بلغت فيها التوجيهات السياسية ، والتعصب المذهبى أسوأ ما يبلغه التوجيه فى التشنيع على المخالفين ؟

الأستاذ أبو زهرة يعيش فى القاهرة . وفى القاهرة يعيش معه عدد كبير من علماء الإباضية الموثوق بعلمهم ، وفيهم أصدقاء للشيخ أبى زهرة ، وفى القاهرة « دار الكتب » وفى دار الكتب مجمـوعة قيمـة من كتب الإباضية ما بين مطبوع ومخطوط ومصور — منها فى العقائد ، ومنها فى الفقه ، ومنها فى الأصـول ، ومنها فى التاريخ ، ومنها فى الشعب الحاصل بين فرق الأمة والاحتجاج والرد ، ولا شك أن الأستاذ أبا زهرة اطلع على بعضها ، ومن ذلك الاطلاع عرف أن للإباضية فقهاً جيداً مدوناً ، وحكم بأنهم معتدلون منصـفون لمخالفيهم .

وكنا نتوقع منه عندما يريد أن يذكر جملة من مقالاتهم أن يسلك أحـد منهجين : إما أن يعبر عن مقالاتهم بلغته وأسلوبه هو وأن يقررها بعباراته بعد أن يستوعبها من مصادرهم •

وأمـا أن ينقـل نفس عباراتهم ، ويثبت نفس النصـوص التى استعملوها وهـذا المنهج أدق وادعى إلى الاطمئنان بالنسبة للقـارىء العادى الذى لا يعرف مقالاتهم •

فلماذا لم يعتمد الأستاذ أبو زهرة على كتب الإباضية ؟ وإذا كانت المصادر التى بين يديه من كتبهم غير كافية أفلا يكون من واجبه — وهو يقف موقف المحقق — أن يعمل على الحصول على ما يكفيه منها ولو ناله من أجل ذلك بعض التعب المـادى أو البدنى ؟ •

لقد رجع الأستاذ أبو زهرة الى مصادر قديمة لم يتوفر لها التحقيق ، ولم يتيسر لها الوضوح ، ولم تتصف بالنزاهة إزاء جميع من تكتب عنهم • فنقل كلام تلك المصادر دون تصرف بعض الأحيان ، أو بتصرف قليل ، كأنما يريد هو الآخـر أن يلجـأ إلى الغموض ، لأن التحقيق العلمى ، والتعبير الواضح قد يكشف أن الحق بجانب فرقة يراد وضعها فى إطـار معين مهما كانت الظروف •

يقول الأستاذ أبو زهرة فيما نقلته عنه سابقا :

« يرى الإباضية أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفارا ، ويقولون عنهم إنهم كفار نعمة لا كفار فى الاعتقاد » •

لقد بقيت هذه العبارة بحروفها أو بتصرف قليل تنقل بين كتاب المقـالات عن الإباضية عشرة قرون كاملة ، ولست أعرف على التحقيق أول من قالها ولكنك تعثر عليها عند أوائل من كتب فى هذا الموضـوع كالأسعر والملطى وغيرهما ، وقد كانت تأتى على أقلام الكتاب السابقين وألسنة المتحدثين منهم من أصحاب هذا الفن . إما عن حسن نية وجهل بحقيقة مقـالات الإباضية ، وإما بقصـد التشنيع عليهم وزرع كراهيتهم فى قلوب بقيـة المسلمين . ولا شك أن أى مسلم إذا قيل له أن الإباضية يعتبرونك غـير مسلم ويرونك كافرا يتملكه الغضب ويثور على الإباضية ويعتبرهم فرقة ضالة ظالمة تستحق اللعنة ولن ينتظر منك أن تشرح له الفرق بين معـانى الكفر . ولقد وصل أولئك الذين يسعون إلى هذه النتيجة إليها بالفعـل وربما إلى أكثر مما أرادوا أو توقعوا فى بعض الأحيان .

وغريب جدا أن يسير أبو زهرة فى هذا الطريق ، فيجرى قلمه السلس البليغ بتلك التعابير الملتوية التى لم يقصد بها الحق فى يوم من الأيام .

إنه كان حقا عليه أن يقف وقفة تأمل وتحقيق كما وقف زميله الأستاذ ابراهيم محمد عبد الباقى حـين عرض للموضـوع فقال فى كتابه القيم (الدين والعلم الحديث) وهو يتحدث عن الإباضية صفحة ٢٦٩ ما يلى :

« رابعا : لا يكفرون أحدا من أهل القبلة إلا إذا أخل بالاعتقاد الإسلامى كإنكار ما علم من الدين بالضرورة وكأن ينكر إنسـان صفة من صفات الله تعالى أو نبيا من الأنبياء أو حرفا من القرآن الكريم » .

قارن أيها القـارىء الكريم بين مقـالى الأستاذين الكبيرين وهما

يعيشان فى بلد واحد ، وعصر واحد ، وبيئة واحدة إلا أن أحدهما جـرى على ما وجده فى مصادر تناوىء الإباضية وتلجأ إلى الغموض فى التعبير عن مقالاتهم حتى توهم الناس بضلالهم وتغريهم بعداوتهم ، فاعتمد على تلك المصادر ونقل عنها ، وترك ما عرفه بنفسه ، وأبتعد عن المصـادر التى تصور مقالاتهم بصدق وتعتبر حجة عليهم لأنها لهم •

أما الثانى فقد كان يكتب كتابة رجل يسعى إلى توحيد كلمة المسلمين وتقريب وجهة النظر بينهم ، وتوضيح آرائهم المبنية على حجج وبراهين يمكن للباحث أن يتجاهلها أو يستهين بها • ويحاول — ما وسعه الجهد — أن يزرع الغشاوة التى وضعتها القرون المتعاقبة على أعين الأمة الإسلامية بقصـد وبدون قصد • وهو لم يكتب عن الإباضية حتى قرأ مجموعة من كتبهم ، ومنها استخلص آراءهم التى عبر عنها ، والتى سوف نعرض لها فى فصـل مقبل إن شاء الله •

على أن هـذا الموضوع الذى عبر عنه الأستاذ إبراهيم عبد الباقى بجملة قصيرة واضحة « لا يكفرون أحداً من أهل القبلة إلا إذا أخـل بالاعتقاد » رأى الأستاذ أبو زهرة أن يرتبط بالتعقيد اللفظى الذى تناقله كتاب المقالات ولم يتمكن أن يتحرر منه فقال : « إن مخالفيهم ليسـوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفارا » فترك القارىء العادى فى حيرة وارتباك لا يعرف منزلة نفسه عند الإباضية ولا منزلتهم عنده •

على أن ذلك الموضوع الذى جارى فيه الأستاذ أبو زهرة الكتاب الأقدمين فى حديثهم عن مقالات الإباضية شىء من الغموض والإبهـام والإيهام • أهم جانب فيه كلمة الكفر والإباضية حين يطلقونها على من

يستحقها لا يفرقون بين موافقيهم ومخالفيهم لأنها فى الحقيقة إنما تدل بوضعها على معان لغوية محـددة نقلها الشارع أحيانا فاستعملها للدلالة على حقائق شرعية باعتبارات محددة فلا أساس لحشر الإباضية ومخالفيهم فى الموضـوع ٠

والواقع أن كلمات الكفر ، والإيمـان ، والنفاق ، والعصـيان ، والشرك ، والكبيرة ، والإسلام ٠ من المباحث اللغـوية والمصـطلحات الشرعية أو الحقائق الشرعية التى تناولتها أقلام أكثر علماء الإسـلام واختلفت أنظارهم فيها حينا واتفقت حينا آخر ٠ وطال فيها الجدال حتى بلغ حـد المراء فى بعض الأوقات ، وللإباضية فى هـذه المواضيع مفاهيم كما لغيرهم والذى ساعدهم أن يطلقوا كلمة كافر على آكل الرشـوة من الإباضية ومن غيرهم هو قول الرسول ﷺ : « الرشوة فى الحكم كفر » وعلى من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه ، قوله ﷺ « من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه فيما يقال فقـد كفر بمـا أنزل على محمد » وعلى من تهـاون بصلاة ، قوله ﷺ : « من ترك الصلاة كفر » وعلى من وجب عليه الحج فلم يؤده ، قوله تبارك وتعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » ٠ وعلى من يتعامل بالربا قوله تبارك وتعالى : « يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم » ٠ إلى كثير من هـذه النصـوص التى وردت بهـذا المعنى والتى إذا أمكن تأويل بعضها بالشرك أو الردة فإن بعضها الآخر لا يمكن تأويله إلا على كفر النعمة الذى هو بمعنى العصيان أو الفسوق ، أما ما يطلق عليه أصحاب الحـديث : كفر دون الكفر ٠

إن الرسول ﷺ وصف المرتشى ، ومصدق الكاهن والعراف والمرابى

والمتهاون فى أداء الفريضة ، والمسلمين المتقاتلين : « إلا لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » بالكفر فما ذنب الإباضية إذا استعملوا هذه الكلمة فى وصف العصاة الذين يرتكبون تلك الموبقات أو ما يشبهها — وهم على يقين أن الرسول ﷺ حين وصف المرتشى والمرابى ومن بعدهما بالكفر لم يحكم عليهم بالشرك أو الردة والخروج من الملة • فاستعمل الإباضية كلمة الكفر فى المواضيع التى استعملها رسول الله ﷺ وفيما يشبهها ولم يريدوا بها فى ذلك الحكم بالشرك أو الردة والخروج من الملة • ولو حكم بالشرك والخروج من الملة على كل من ارتشى وكل من رابى وكل من صدق كاهناً أو عرافا ، وكل من تهاون فى صلاة أو حج فريضة • وكل من ارتكب معصية من المعاصى التى وصف رسول الله ﷺ مرتكبها بالكفر لما بقى من المسلمين إلا العدد اليسير • ولو سرنا مع هذا المنطق لحكمنا على جميع المسلمين بالشرك أو الردة لقوله ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » وقد بدأ ضرب الرقاب بعده بقليل ولم يتوقف حتى اليوم • بل إن رقاب المسلمين لتطير بأيدى المسلمين فى كل يوم حتى هذا العصر ولا يبدو أنها ستتوقف فهل نحكم على هؤلاء كلهم بأنهم مشركون مرتدون ، وهل نحكم على أولئك البسطاء السذج الذين يصدقون كل شىء حتى العراف بأنهم مشركون مرتدون •

إن الإباضية فى استعمالهم كلمة الكفر على العصاة ، لا يفرقون بين مخالفيهم وموافقيهم فليس من حق الأستاذ أبى زهرة أن ينساق مع الأقدمين فيقول : « إن مخالفيهم ليسوا مشركين ولا مؤمنين ويسمونهم كفارا » •

بهذا التعبير الملتوى الغامض الذى يثير الحفائظ ، ويجلب السخط ،

ويوهم أن الإباضية يحكمون على غيرهم من جميع المسلمين بالشرك لأن الكلمة التى يبقى صداها فى ذهن المسلم بعد أن يقال له إن الإباضـية يقولون عنك أنك لست مشركا ولست مؤمناً ولكنك كافر أنه حـكم عليه بالخروج من الإسلام وهذا ما لا يتقبله مهما تورط فى ارتكاب الموبقات ٠

لقـد حرص الأستاذ أبو زهرة أن يأتى بهـذه العبارة الملتوية من المصادر التى استقى منها ، والتى كانت تكتب تحت إيحاءات وإيعازات ، وأن يقرر أن الإباضية يسمون مخالفيهم كفارا ، وليته — إذ فعل — شرح المعنى الذى تدل عليه كلمة الكفر عند الإباضية إذن لخفف فى وقعها وحدتها قليلا ٠ وهو يعلم معناها عندهم ولا ريب ولكنه لم يفعل وإنما علق عليها ببعض كلمات لا تزيدها إلا غموضا عند من لا يعرف الاصطلاحات الشرعية ومدلولاتها الخاصة فليت أستاذنا أبا زهرة ، حاول إسكات هذه النعرة ، وسدّ هذه الثغرة ، وأطفأ هـذه الجمرة ، ودعا إلى التسامح والانفتاح بين طوائف المسلمين جميعا ٠

ويقول الأستاذ أبو زهرة فيما نقلناه عنه سابقا « فهم يسرون فى أنفسهم أن دار المخالفين ودماءهم حرام » ٠ هكذا بالحرف الواحـد ٠ وليت شعرى إذا كانوا يسرون ذلك فى أنفسهم فكيف اطلع عليه الأستاذ أبو زهرة ، ثم أية نفس هـذه التى يحتفظون فيها بهذا السر العظيم ؟ هل هى نفس فردية أم نفس جماعية ؟ ثم من هـذا الذى أخرج هـذا السر وباح به ؟ من هذا الذى أفشى سر الإباضية ؟ إنهم لو عرفوه لقطعوا لسانه !! ما كنـا نتوقع من قلم مثل قلم أستاذنا الكبير أن يخط هـذا الكلام الذى لا يصدقه عقل يحترم نفسه ، ولكن ما الحيلة والأستاذ يريد أن يعيش فى تلافيف عصر ، يلعب بالكلام ، ويحارب بالإيهام ، ويناقش

بالإبهام . ولو رجع إلى كتب الإباضية وهى ليست منه بعيدة لعرف منها أن الإباضية يلتزمون بقوله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها » .
إن الإباضية عملا بتشريع الله الذى بلغه الرسول ﷺ يعلنون ولا يسرون — فى كتبهم ودروسهم ومجالسهم — أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم حرام بكلمة التوحيد ، وأن أصداء خطبة النبى ﷺ فى حجة الوداع لا تزال ترن فى جنبات صدر كل مسلم « ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام » لقد أعلن النبى ﷺ هذا الحكم يوم الحج الأكبر فلماذا يسره الإباضية فى أنفسهم . والإباضية فى تاريخهم الطويل لم يخالفوه ، وليس إسراره من مصلحتهم ولا من مصلحة أحد من المسلمين .

ويقول الأستاذ أبو زهرة فيما نقلناه عنه فى أول هذا الفصل : « ولهم فقه مدون ، وللإباضية جهود فى تحرير مذهبهم » . ويقول فى موضع آخر من كتابه مما نقلناه عنه ، « ولهم فقه جيد وفيهم علماء ممتازون » .

أطلق الأستاذ أبو زهرة هذه الأحكام على الإباضية وفقههم ثم انصرف عنهم كأنما كان يفر من ملاحقة لعنة تاريخية ، ولم يقف إلا حينما بدأ يكتب عن المذاهب الفقهية ، فكتب عن الحنفية ستاً وأربعين صفحة ، وكتب عن المالكية خمسين صفحة ، وكتب عن الشافعية ستاً وخمسين صفحة ، وكتب عن الحنابلة ثمانين صفحة ، وكتب عن الظاهرية سبعاً وستين صفحة ، وكتب عن مذهب ابن تيمية سبعاً وخمسين صفحة . وكتب عن الزيدية ستاً وخمسين صفحة ، وكتب عن الجعفرية أربعين

صفحة • ولكنه لم يكتب عن الإباضـية شيئا ، فما الذى أطلق قلمه هناك وقيده هنا ؟ لقد اعتبر الزيدية والجعفرية أحزابا دينية كما قال ذلك عن الإباضـية ومع ذلك فقد ألحقهما بالمذاهب الفقهية ولم يعط هذه الدرجة للإباضية • لماذا كان الاعتراف بذينك الحزبين ولم يكن بهذا الحزب ؟ رغم أنه حينما كان يعدد الأحزاب الدينية جعل هـذه الفرق الثلاث تشترك فى صفة الحزبية الدينية ، أما المقومات التى أهلتها — فى نظر أستاذنا — لأن تدخل ضمن المذاهب أنها لها فقه مدون •

لماذا يقف شيخنا أبو زهرة من الإباضية هـذا الموقف ؟ أكل ذلك لأن أقلاما يحترمها ذكرت أن الإباضية فرقة من الخوارج ؟ وماذا يضر أبا زهرة لو بحث بنفسه عن معنى الخارجية فى عقائدهم وسلوكهم ليتحقق من الحكم عليهم ، ولعله لو فعل لوجد معنى الخارجية بالعقيدة والسلوك أوضـح وأظهر فى كثير ممن يرمى الإباضية بذلك مصداقا للمثل العربى القديم « رمتنى بدائها وانسلت » ولما وجد فى عقائد الإباضية وسلوكهم أى أثر للخارجية •

يبدو أن الأستاذ أبا زهرة لا يريد أن يخالف المصادر التى استقى منها والتى قد اكتسبت بقدمها جـلالا وقداسة ، ولا يريد أن يعترف بالواقع الذى عليه الإباضية ، لأن ذلك يهدم كثيرا من الأحـكام التى أطلقت عليهم ، ولا يريد أن يعتمد على كتبهم ومصادرهم لأن حـكاية « يسرون فى أنفسهم » تتردد بين عينيه وتثير الشكوك فى نفسه •

وهكذا فضل أن يعتمد على مصادر غيرهم ممن سبقه بقرون ، وأن ينقل ذلك مهما كان موقعه من الصدق والحق ، وأن يتغاضى عنهم رغم

اعترافه — على الأقل فى الجانب الفقهى — بأنهم فى مستوى غيرهم من المذاهب الأخرى التى كتب عنها وأطال الكتابة .

وبعد كل هـذا ألا يحس أستاذنا أبو زهرة بأن اعتباره الإباضية فرقة من الخـوارج أمر يدعو إلى التساؤل حين يحمل آراءهم فى تلك الفقرات التى سبق أن ذكرناها والتى هى ليست خاصة الإباضية وإنمـا هى آراء جميع الأمة الإسلامية فهى ليست قضايا غير مجموعة من الناس باعتبارها خاصة بهم لا يقول بها غيرهم ، وإذا تجاوزنا الفقرة الأولى التى نقلها الأستاذ بحروفها والتى وضعها واضعوها بقصـد الإبهـام والإيهام فإنه يقرر أن الإباضية يحرمون دماء مخالفيهم ويعتبرون دارهم دار إسلام ولا يستحلون من غنائم المسلمين أثناء الحرب معهم إلا السلاح ويجوزون شهادة مخالفيهم والتزوج منهم والتوارث معهم وهل غيرهم من المذاهب يرون غير هذا الرأى ؟ ويقولون بغير القـول إذا إستثنينا بعض الشواذ من جميع المذاهب الذين تتغلب عليهم العصبية ويوجههم الغلو كما ذكرنا أمثلة من ذلك فى بعض الفصـول السابقة . ويبدو لى لو أن الأستاذ أبا زهرة أراد أن يتبع أسلوباً واضـحاً يتخلص من رواسـب الماضى ويتحرر من أصابع السياسة التى صـنعت كثيراً من ذلك الماضى لسهل عليه من بادىء الأمر أن يشرح كلمة الكفر بالمعنى الشرعى لهـا والذى حرص الإباضية على استعماله فقال إن الإباضية يستعملون كلمة الكفر بمعنى كفر النعمة أو المعصـية أو الفسوق فإذا أطلقوا كلمة كفر على أهل التوحيد فالمقصـود كفر النعمة أو العصـيان كما يعبر بعض المذاهب . وإذا اتضح هذا المعنى لكلمة الكفر لم يحتج للأسلوب الملتوى الذى يستعمله الأقدمون كما أنه لا حاجة به إلى كلمة المخالفين التى دستها السياسة الماكرة فى هـذه المباحث وحرص عليها كتاب المقالات دون اهتمام

بمصدرها ومدلولها • والعصيان قـد يكون بسبب المتارفة وقـد يكون بسبب الإهمال وقد يكون بسبب الخطأ فى التأويل • والإباضـية قـد يطلقون حما قلنا آنفاً كلمة الكفر على العاصى من هؤلاء وهم يقصدون معنى العصيان ويتعاملون معه سواء كان من الإباضية أو من غيرهم على الأسس التى ذكرها أستاذنا أبو زهرة • فهذا العاصى بالمقارفة أو بالإهمال أو بالخطـأ فى التأويل — يسميه الإباضية مسلماً ويسمونه موحدا ولكنهم لا يسمونه مشركاً ويرون أن دمه حرام فلا يسفك إلا بما تحل به دمـاء المسلمين ويرون أن ماله حرام إلا بالطرق التى تحل بها أموال المسلمين ويرون أن داره دار للمسلمين وإذا حاربهم لم يستحلوا شيئاً من أمواله حتى السلاح خلافاً لمـا ذكره أستاذنا أبو زهرة ويتعاملون معـه كمـا يتعاملون مع بقية المسلمين • الشهادة والنكاح والميراث وغيرها •

ولسنا نشك أن الأستاذ أبا زهرة يعرف من حقيقة الإباضية ما يعرفه الإباضية أنفسهم عن آرائهم ومقالاتهم ولو تحرر من رواسب الماضى لمـا ذكرهم فى الخوارج ولا فى الأحزاب الدينية •

والآن أستطيع أن ألخص ما عتبنا فيه على شيخنا الكبير فى النقاط الآتيـة :

١ — اعتماده على مصادر الآخرين عند الكتابة عن الإباضية ومقالاتهم وكان فى إمكانه أن يعتمد على كتب الإباضية أنفسهم •

٢ — استعماله لنفس التعابير الملتوية الموهمة التى كانت تستعملها كتب المقالات المتميزة منذ قرون •

٣ ــ تغافله عن دسائس السياسة بحيث أصبح التركيز على معسكرين فكانت كلمة « مخالفيهم » هى محور الحديث .

٤ ــ انسياقه وراء آراء المستشرقين أو من أخذ عنهم فى تقسيمهم الأمة إلى قسمين كبيرين : مذاهب فقهية ، وأحزاب دينية .

٥ ــ إهماله للكتابة عن المذهب الإباضى وفقهه وقد كتب عن كل من المذاهب الفقهية وما يسميه بالأحزاب الدينية .

٦ ــ إرضاء أصحاب المقالات السابقين ومن يترسم خطاهم ، أخرج الأستاذ أبو زهرة الإباضية فى فرق الخوارج ولما لم يجد شيئاً يربطهم بالخوارج أو يجعل لهم مواقف منفردة شاذة تميزهم ذكر عنهم تلك الفقرة الأولى التى أعتقد أنها تميزهم كما ذكر لهم عددا من الأقوال هى ليست خاصة بهم بل على قدر مشترك بين جميع الأمة الإسلامية غير الخوارج فيما يقال عنهم . أو بعض الشواذ حتى من أهل السنة .

٧ ــ كنا نطمع من أستاذنا الكبير أن يكون موقفه فى هذه القضايا الهامة أوضح وأصرح ، وأن يكون أكثر تحرراً ، وأن تكون مساعيه أكثر جدية ونشاطاً وجهداً فى التقريب بين طوائف المسلمين ، وإزالة الجفاء الذى اصطنعته السياسة والتعصب قديما والاستعمار والجهل والتعصب أيضاً حديثاً . ويسرنى فى ختام هذا الفصل أن أعتذر إلى أستاذنا الكبير أبى زهرة عن أية عبارة قد يستشعر منها سوء أدب معه . فأنا على جميع الأحوال أكن له من الإحترام والتقدير ما يستحقه هو وأمثاله من فضلاء علمائنا الاجلاء الذين خدموا الإسلام فى هذا العصر خدمة لا تنساها الأجيال . وإذا عتبت عليه فى النقاط السابقة فإنما هو موقف المتعلم الجسور الصريح مع العالم الغزير المادة الواسع الاطلاع المنفسح الصدر الحليم الذي يحتمل شغب المتعلمين بصبر وحب .

مع عبد القادر شيبة الحمد

فى سنة ١٣٨٧ هـ تشرفت بزيارة مدينة رسول الله ﷺ وكان من أهم ما يشغل بالى — بعد السلام على رسول الله ﷺ ، والصلاة فى الحرم النبوى الشريف ، ثم الوقوف فى منازل الوحى ، ومواطن العبدة والذكرى من مقامات رسول الله ﷺ ومقامات أصحابه رضوان الله عليهم — هو زيارة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، والتعرف بعلمائها الأجلاء . وسنحت لى الفرصة فى يوم فزرتها ، وتشرفت بمعرفة كثير من مشايخها العظام ، وأساتذتها الفضلاء . ولم يتح لى اللقاء بفضيلة رئيسها لأنه حينئذ كان ينجز لبعض المهام كما قيل لى .

تجولت فى رحاب الجامعة العامرة . ودخلت بعض فصولها ، واستمعت إلى بعض المحاضرات فى بعض الفصول . وعندما أردت الانصراف أهدت إلى إدارة الجامعة مشكورة مجموعة من النشرات والمناهج والكتب مما تضعه الجامعة أو تتولى الإشراف عليه ونشره . وخرجت منشرح الصدر مثلوج الفؤاد . فهذه جامعة إسلامية ، تقوم فى دار هجرة النبى ﷺ . توالى إرسال أشعة النور والهداية إلى حوالى سبعين بلداً — فقد قيل لى إن بالجامعة طلاباً من حوالى سبعين بلداً — وهذا فضل من الله عظيم .

فلو نجحت الجامعة فى إحكام رباط المودة والأخوة بين أبنائها لقام بعد زمن وجيز دعاة مسلمون فى كل جنبات العالم يعقدون أواصر الأخوة بين الطوائف المتنافرة ، ويربطون علائق المحبة بين شعوب تدين بالإسلام ولكن فرقت بينهم السياسات والقوميات والعصبيات والأهواء . وعساهم

يعودون بها إلى وحدة متماسكة كالوحدة التى أنشأها سيدنا رسول الله ﷺ ، وتلاميذه الأذكياء الأصفياء النجباء ألبررة • ورجعت إلى البيت أقلب الهدايا الثمينة التى أخذتها من الجامعة العامرة فإذا من بينها كتاب اسمه « الأديان والفرق والمذاهب المعاصرة » والكتاب مقرر على طلاب الشهادة العالية بكليتى الشريعة وأصول الدين بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة •

أما المؤلف فهو الأستاذ عبد القادر شيبة الحمد الأستاذ بالجامعة وقد لقيته بالجامعة لقاء عابرا • كما استمعت إليه وهو يلقى دروس الوعظ والإرشاد فى مسجد الرسول ﷺ بين المغرب والعشاء وقد أعد له هناك كرسى مرتفع ، ومكبر صوت مسماع •

والأستاذ عبد القادر شيبة الحمد رجل يعيش فى عصر الصواريخ والأقمار وقد أتيح له أن يقيم فى مدينة رسول الله ﷺ ملتقى المسلمين من كل بلد ومن كل فرقة • ومن كل مذهب • وضعت له الدولة كرسيا فى الحرم النبوى الشريف ، ليلقى منه رسالة الإسلام ، ويعرف الناس بدينهم ، ويدعو أبناء هذه الأمة إلى لم الشمل ، وجمع الكلمة • وهذه الظروف المساعدة التى تحيط بالأستاذ شيبة الحمد لم تتيسر لأولئك الذين كتبوا عن الفرق الإسلامية فى العصور السابقة •

لقد كان من اليسير على الأستاذ شيبة الحمد أن يتصل بعلماء الفرق وهم يتوافدون على مسجد رسول الله ﷺ فى موسم الحج وفى غيره فيعرف منهم آراءهم وعقائدهم فيما يريد أن يكتب عنه وفيما يريد أن يقدمه فى محاضراته لطلابه ، وكذلك يستطيع أن يعرف منهم أئمتهم وكتبهم

ليتخـــذها مراجع لأبحاثه ، حتى تكون أدنى إلى الحقيقة ، وأقرب إلى الصحة ، وأدعى لإرضاء أصحابها •

ولكن الأستاذ شيبة الحمد — الذى التجأ إلى السـعودية فآوته وأكرمته وفتحت له دور العـلم والتحقيق ، وسلمت إليه جيلا من شباب الأمة الإسلامية ليزودهم بالعلم ويسلحهم بالإيمان ويربط بينهم بالمحبة والأخوة — لم يفعل شيئا من ذلك ، فلم يكبد نفسه عنـاء البحث عن المصادر الحقيقية للفرق ، ولم يتنازل إلى الاستفادة من العلماء ، وإنما عمد إلى كتب ألفت قبل عدة قرون فلخص ما فيها بما فيها كخاطب ليـل وصاغها بأسلوب ينبىء عن الاستعجال تبدو فيه كثير من عبارات البغدادى التى اقتسرت من أماكنها كأنما اختيرت لمـا تحمله من عنف وقسوة ثم جمع كل ذلك بين دفتين ، وجاء به إلى الجامعة الإسلامية كأنما جاء يجرة أسدا من أذنيه ثم طفق يلقى ذلك الخليط على طلبة الجامعة • لقد حدثنى بعض طـلاب الإباضية فى الجامعة • أن أستاذهم حين يتحـدث عن الإباضية • لم يكن يهتم بهم ولا بقولة الحق فى مذهبهم • ولم يكن يستمع إلى أحد إذا أراد مزيدا من المناقشة ، وعندما أخبروه فى بعض ما ينسبه إلى الإباضـية أنه ليس من مقالاتهم وأظهروا له استعدادهم لتزويده بالمراجع التى يستطيع بها التحقق من الموضـوع ، رفض الرجوع إلى كتبهم وإذا حاول أحدهم أن يتجه إليه بسؤال أسكته بتلك النظرة المتعالية التى يحسها بعض الأساتذة المتعجرفين ، وقـد ينبزه بتوبيخة جارحة يضحك لها بعض الطلاب ويتألم لها آخرون •

وهكذا يستمر الأستاذ شيبة الحمد يحاضر لأبناء المسلمين من سبعين بلداً فلسفة تنسب إلى فرق إسلامية لا وجود لتلك الفلسـفة عند تلك

الفرق ويتخذ لها أئمة وعلماء لا تعرفهم ولا تعرف عنهم شيئا بل قد تتبرأ من تلك المقالات ومن يقول بها •

وأعجب ما فى الموضوع أن الأستاذ شيبة الحمد وهو يسبح بين كتب ألفت قبل عدة قرون — ويتحدث عن فرق ومذاهب قد انقرضت هى وأصحابها ونخر السوس عظامها ومع ذلك فهو يسميها « المعاصرة » ومن تلك المذاهب أو الفرق ما لا يعرف عنها شىء البتة غير الاسم الذى أورده كتاب المقالات الناقمون عليها وما نسبوه إليها من شنائع فكيف صارت تلك المذاهب والفرق التى انقطعت حركتها فى مجرى التاريخ وركم عليها الزمن عددا من القرون • كيف صارت فرقا معاصرة ؟؟ والمؤلم فى الموضوع كله أن الكتاب مقرر فى أكبر جامعة إسلامية فى الوقت الحاضر ، وهو يدرس فى المدينة المنورة ، وفى جامعة ترعاها دولة هى الدولة التى أناط الله بها فى هذا العصر خدمة الحرمين الشريفين ورعاية مقدسات الإسلام ، ثم استقبال حجاج المسلمين من جميع أصقاع الأرض بمختلف طوائفهم ومذاهبهم فى كل سنة ، ودعوتهم إلى التفاهم والتعاون والتناصر • وإلى الاتحاد والعمل المتواصل للقيام بأعباء الرسالة التى أنزلها الله تبارك وتعالى لسعادة البشرية •

فكيف تسمح إدارة الجامعة العامرة فى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدرس أباطيل عن فرقة من فرق المسلمين على طلاب سبعين بلدا من مختلف بقاع العالم وفى أولئك الطلاب من ينتمى إلى تلك الفرقة فإذا طلبوا تصحيح الخطأ عن مقالات فرقتهم وهم أعرف بها لم يسمع منهم بل لم يسمح لهم وربما اتخذت ضدهم عقوبات صارمة منها الحرمان من الدراسة وذلك كله بمساعى الأستاذ شيبة الحمد الذى يريد أن تكون

كلمتـــه عن الفـرق نافـذة وحكمه على أصـحاب المذاهب لا راد لـه ولا معقب عليـه •

إذا كان التقليد الأعمى أوجب الراحـة ، أو عدم العناية بالبحـث والتنقيب • أو حتى سوء النية هى الأسباب التى حملت شيبة الحمد على تلك المواقف فكيف ساغ للجامعة العامرة أن تغفل عن مراقبة ما يجرى فيها فى أهم ركن من أركان رسالتها ، وهى القوامـة على كلمـة الحق ، المسئولة عن العمل لجمع كلمة الأمة ، المطالبة بالتحقيق والتثبت والصدق فى جميع ما تقدمه لأبناء الأمـة فى مجـال العلوم الشرعية وإذا غفلت الجامعة عن تتبع ما يقدم للطلبة ومعرفته معرفة تفصيلية فكيف سـاغ للدولة من ورائها أن تسمح لأفراد بتخطيط مناهج وتنفيذها دون أن يخطط لها تخطيط دقيق من أجهزة مسئولة مكلفة بالمراقبة تقدر خطوات العمـل وتوحى بها حتى يتسنى توجيه أبنـاء المسـلمين فى أهم مادة — مادة الشريعة — توجيها سليما مبنيا على الصدق وقائما بالحق •

إننى ما كنت لأعرض للأستاذ عبد القادر شيبة الحمد لو لم يحمل كتابه اسم الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وهـذا النقد الأخـوى لا نرسله إليه فقد ثبت مما قصه علينـا طلابه ومن بعض المواقف مـع غيرهم أنه يملك من الجرأة ما يحـول بينه وبين الرجـوع إلى الحـق وإنما توجه كلمة العتب الأخوى أو الالتماس الأخوى إلى إدارة الجامعة العامرة ، ورئيسها الوقور وأساتذتها العظام •

كنا نأمل أن تعمل الجامعة الإسـلامية على التحقيق فيما يقال عن فرق المسلمين وأن تأخـذ آراءهم ومقالاتهم من كتبهم وعلمائهم وبذلك

يمكن للجامعة أن تعلن كلمة الحق ، وتجمع الشمل ، وتوحـد الصف وتكون فى مركز القيادة الروحية لهذه الأمة بجميع مذاهبها لأنها مهدت اللقاء بينهم على نور العلم وجعلت كل واحد منهم يعرف ما عنـد الآخر فى يقـين • وإذا عسر على المؤلفين الأقدمين أن يعرفوا مقالات المذاهب والفرق من مصدرها فأخذوها من حيث ما اتفق فتسرب إليهم الخطأ والأباطيل • فقد تيسرت الوسـائل اليـوم — والحمد لله — للمؤلفين والعماء للاتصـال والاطلاع ولا سيما لعلماء ومؤلفى الدولة السـعودية ، فهى تملك من الإمكانات البشرية والمادية والروحية ما يمكنها من الاتصال بأصحاب جميع المذاهب الإسلامية المعاصرة حقا • ومعرفة عقائدها فى مصادرها سـواء كانت كتبا أو رجالا وأخذها منهـا •

وفى إمكانها أن تعقد مؤتمرا سـنويا لعلماء جميع المذاهب الإسلامية سواء كان ذلك فى أيام الحج أو فى غيره تطرح فيه القضايا الهامة وتوضح الآراء والعقائد بحججها وبراهينها • وتزود الجامعة بالمراجـع المعتمدة لكل مذهب وإيضاح الأقوال المعمول بها • على أن يكون هذا المؤتمر عرض وإيضاح لا مؤتمر جـدال يريد فيه كل أصحاب مذهب أن يبرهنوا على صحة مذهبهم وبطلان غيره • فإن فتح هذا الباب لا يأتى بنتيجة وقـد يأتى بنتيجة عكسـية •

بل إننا نطمع فى الجامعة فى أكثر من ذلك • وذلك بأن تكون لجـانا للتأليف يشترك فيها علماء الأمـة من مختلف مذاهبهم ويصـدرون كتبا حسب المناهج المقررة فى الجامعة لتدرس فيها — مشتملة على المقـالات الحقيقية للفـرق والمذاهب المعاصرة فعلا — وبذلك تقضى على النظرات

الضيقة ، وتوقف زحف العصبية المقيتة • وتحـول دون التأثير الفـردى فى توجيه طلاب المسلمين •

إن الجامعة الإسلامية فى المدينة المنورة ، يجب ألا تصطبغ بمذهب معين فهى للمسلمين جميعا ، تقـدم لهم الثقافة الإسـلامية من منابعها الصافية • كتاب الله وسنة رسوله فإذا انتقلت بعد ذلك إلى كلام البشر سـواء ما كان منه منسوبا إلى مذهب أو ما كان منسوبا إلى فرد فإنـه يجب أن يعرض بوضوح ومن مصادر ثابتة مع التأكيد على أنه قـول لغير معصوم بل إننى أعتقد أنه مما يدخـل تحت مسئوليات الجامعـة وأعمالها إذابة المذهبية وألا يكون فيها شىء غير مصادر التشريع من كتاب أو سنة أو إجماع ثم بعـد ذلك آراء الأفراد خاضعة للنقاش وللحـكم عليها بالخطـأ والصواب وعمل الجامعة هو أن تقدم للطـلاب تلك الآراء كما يقدمها أصحابها بأدلتها وبراهينها مع عـدم محاولة فرض رأى معين أو مذهب معين •

ولو فعلت هذا لكسبت قلوب الملايين من المسلمين بفرقهم المختلفـة ولسقط كثير من الأباطيل التى يتنابز بها أصحاب المذاهب ولوجـد كل فرد من المسلمين عذرا قائما لأخيه فيما يذهب إليه ويقول به • ولظهـرت لها تفاهة ما يكتبه وما يقوله بعض من يسرت لهـم مكانا للكتابة ومكانا للقـول •

وبعد هذه الكلمة التى أرجو أن تكون دعـوة مخلصة لرعاية المناهج فى المعاهد الإسلامية • وألا تفهم بأنها نقد خاص لإدارة الجامعة الإسلامية أو الدولة السعودية ، أو نيل من كفاءة أساتذتها ومشايخها فإن فى الجامعة

العامرة من الأعلام من يشرفنى الجلوس بين يديه كتلميذ صغير . بل لقد فعلت وحضرت بالفعل حلقات دروس الوعظ للمشايخ العظام : الشنقيطى ، والإفريقى ، والجـزائرى ، والكتانى وحتى شيبة الحمـد ـ ويهمنى أن يرافقنى القارىء الكريم بعض الوقت مع الأستاذ عبد القادر شيبة الحمد فى جولة قصيرة بين صفحات كتاب : « الأديان والمذاهب والفرق المعاصرة » يقول الأستاذ شيبة الحمد صفحة ١٥٨ ما يلى :

« وكان من رأى عبد الله بن إباض أن مخالفيهم من أهـل القبلة ليسوا مؤمنين ولا مشركين ولكنهم كفار . ومع ذلك لم يحـرم مناكحتهم ومواريثهم ، وشهادتهم ولو على أوليائهم بدعوى أن معهم دعوة المسلمين تجمعهم ، كمـا لم يبح دماءهم فى السر ، وأن أشباحها فى العـلانية . ورأى عبد الله إباض كذلك أن أموال مخالفيهم لا تحل لهم عند الغنيمـة إذا كانت ذهبا أو فضة ، أما الخيل والسـلاح وما يكون من آلة القتـال فإنه حـلال » .

ثم ذكر قصة خروج عبد الله بن إباض فى عهد مروان بن محمد وقتله فى ثبالة .(وقد بينا فيما سـبق أن هذا غير صحيح) . ثم نقل ما قاله ابن حزم وبعض كتاب المقالات من أن عبد الله بن إباض رجع إلى الثعالبة وأن الإباضية فى الأندلس لا يعرفونه (وقد ناقشنا هذه الخرافة أيضـا وبينا بطلانها فيما سبق) ثم ذكر أن الإباضية ينقسمون إلى سبع فرق : وهى اليزيدية ، والحفصية والحارثية . وهى نفس الفـرق التى تعرضنا لها أثناء مناقشتنا لأبى الحسن الأشعرى وبينا هناك أن هذه الفرق إما أنه لا وجود لها وإما أنها لا علاقة لهـا بالإباضية . ثم ذكـر الإبراهيمية

والميمونية والواقفة والبيهسية • وهذه الفرق الأخيرة استخلصها شـــيبة الحمد من خرافة الأمة وبنت ثعلبة • تلك القصة التافهة التى نقلناها عن أبى الحسن الأشعرى وبينا هناك عدم صدقها عموما أو عنـــد الإباضية فحسب وأوضحنا هناك أن تلك الفــرق ليســـت من الإباضية ولعله من المضحك أن يقرأ الإنسان لشيبة الحمد صفحة ١١١ ما يلى :

« الإبراهيمية : هم أتباع رجل من الإباضية يقال له : إبراهيم ، وليس لهـــؤلاء مذهب تفردوا به : وإنما صـــاروا فرقة من فرق الإباضية بسبب أن إبراهيم هذا دعا جماعة من الإباضية إلى داره » • ثم يذكـــر قصة بيع أمة إبراهيم • وهى نفس القصة التى تكررت فى عدد من كتب المقـــالات •

خلاصة مذهب الإباضية

١ — يعتبرون دار مخالفيهم من أهل القبـــلة دار توحيد إلا معسكر السلطان فإنه دار بغى عنـــدهم » •

٢ — وقـــد اختلفوا فى النفـــاق على ثلاثة أقوال : فقالت طائفـــة منهـــم هو :

(أ) براءة من الشرك والإيمـــان جميعا لقوله تعالى « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء •

(ب) وقالت طائفة منهم إن النفـــاق قاصر على من سماهم اللـــه عز وجل به عند نزول القرآن ، فلا نزيل اسم النفاق من موضعه ولا نسمى به غير من سمى الله عـــز وجـــل •

(جـ) وقالت طائفة منهم : المنافقون أهـل توحيد ولكنهم أصحاب كبائر لا يدخلون فى الشرك وإن سميناهم كفارا .

٣ — من مذهبهم أن من زنى أو سرق أقيم عليـه الحد ثم استتيب فإن تاب وإلا قتـل .

٤ — لم يستبيحوا قتل النساء والأطفال .

٥ — أباحوا قتل المشبهة واتباع مدبرهم وسبى نسائهم وذراريهم بناء على أنهم مرتدون ، وأن أبا بكر رضى الله عنه فعـل هذا بالمرتدين . هكذا استطاع شيبة الحمد أن يلخص المذهب الإباضى فى سـطور وأن يحصره فى خمس نقاط . كما فعـل من قبله الأستاذ أبو زهرة وغيره .

إن للإباضية — كما لغيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى — فى أصول الشريعة وفروعها عشرات من الكتب تشتمل على مئات من الأجزاء . فكيف استطاع الأستاذ شيبة الحمد ومن سار على نهجه أن يلخص تلك المجلدات الضخمة فى خمس نقاط فى نصف صحيفة متوسطة ؟

ثم هل يعنى أصحاب هذا المذهب الإسـلامى لم يهتموا بشىء من أمور الإسلام غير دار المخالفين ، ومعنى النفاق وحياة النساء والأطفال ، ومصير المحدودين فى الزنى والسرقة ، ومعاملة المشبهة ؟ وإن بقية أحكام الإسـلام من دين وشريعة لا هم لهم بهـا ، ولا بحـث لهم فيهـا ، ولا رأى ولا عقيدة ؟

أم يرى أن الإباضية إنما يختلفون عن غيرهم من المسلمين فى هذه النقط فقط ويتفقون فيما بقى ؟ وهل اتفق المسلمون فيما بقى ؟

أم أن الأستاذ شيبة الحمد يرى أن الإسلام هو هذه النقاط فقط وأن غيره لا أثر له فى عقيدة المسلمين وسلوكهم .

إن القارىء الكريم مهما فكر فى هذا الملخص فإنه لا يستطيع أن يخرج منه بنتيجة . وعوض الله خيرا على أولئك الطلاب الذين ظنوا أنهم يتلقون العلم . وهم إنما تحشى أذهانهم بفراغ .

لو رجع الأستاذ عبد القادر إلى كتب الإباضية لوجد لهم بحوثا ممتعة فى أصول الشريعة وفروعها ، وجميع أنواع ثقافاتها . وهم يتلاقون فى بحوثهم مع المذاهب الإسلامية الأخرى هنا وهناك ولا ينفردون برأى فى مسألة اجتهادية إلا نادرا ، وقد لا يكون هناك شىء انفردوا به ، وعندما ينفردون برأى فى مسألة اجتهادية فذلك بناء على دليل ترجح لديهم ، كما يقع فى جميع المذاهب الإسلامية الأخرى .

وهذه الحركة ، حركة اختلاف المذاهب هى خاصية من خصائص الحيوية فى الإسلام ، ودليل انفساحه للعقول والأفهام ، وأس صلاحيته لكل زمان ومكان .

فقد تختلف أنظار المجتهدين فى مسألة فيذهب كل إلى رأى يعتمد فيه على دليل صح عنده ، وقد يعمل الناس بقول فى جهة أو فى زمان ثم يترجح غيره عليه فيعمل به الناس ويموت القول الأول أو يبقى فى بطون الكتب فقط . وهذه حالة توجد عند جميع المذاهب بل قد تقع للعالم الواحد كما اشتهر للشافعى قديم وجديد وكذلك غيره . فإذا كانت هذه طبيعة الآراء فى المذاهب فكيف أمكن للأستاذ عبد القادر أن يلخص مذهب الإباضية فى خمس نقاط فقط .

على أنه حتى فى هذه النقـاط الخمس ـ التى ما هى فى الواقـع إلا مخلفات للحركات السياسية ، وآثار النزاع على الحكم • والتى كانت تتخذها السلطة الحاكمة وسيلة لإثارة الرأى العام ضـد منتقدى حكمها والساخطين عليها لسـوء سيرتها • ولإبعـادهم عن مجـال التأثير فى الجماهير ـ لم يوفق ولم يعرف رأى الإباضية الحق ، لأنه لم يرجـع إليهم وإنما رجـع إلى خصومهم ومن أخـذ من خصومهم • إذا جـاز استعمال هذا التعبير • وقد أخطأ فى النقـاط جميعها • فى بعض نسب إلى الإباضية غير ما يقولون • وبعضها استعمل فيها عبـارات التعميم والإبهـام • ولذلك رأيت أن أوضحها نقطة نقطة إما فى فصـول خاصـة وأما فى فصل معقود لمسائل اجتهادية فرعية وبرجـوع القارىء الكريم إلى مناقشتنا للأستاذ عبد القادر شيبة الحمد فى النقاط السابقة يتضح له أن الأستاذ عبد القادر لم يوفق حتى فى هذه النقاط التى زعم أنـه يلخص فيهـا مذهب الإباضية فنسب فى بعضها إليهم ما لا يقولون به فأعطى صورة غير صحيحة عن هذا المذهب • ولا شـك أن مثل هـذا التشـويه قد لحـق ببقية المذاهب الأخرى التى تحدث عنها فى كتابه •

وهذا الجهل بالمذاهب الإسلامية ، ومقالاتها الحقيقية ، والخلط بين ما يذهب إليه كل واحد منها ونسبته إلى الآخر ، والتشويه الذى ينتج عن ذلك ـ سواء كان مقصودا أو غير مقصود ـ هو ما يجب أن يربأ عنـه حمله الشريعة الإسلامية ، والأساتذة الذين يناظر بهـم تدريس مـواد الإسـلام ، وتكوين أجيال تحمل مشاعل النور والهداية •

أما المؤسسات والمعاهد التى جعلت لتدريس مواد الإسلام فينبغى لها فى هـذا العصر أن ترتفع عن المذهبية الضيقة ، وأن تنشرح صـدرا

للبحث العلمى الواسع ، بنزاهة وتجرد ، وأن ترتفع عن اعتبارات الدول والأوطان مراكز مذهبية معينة لا تخرج عن إطارها ، وعن حسبان أن للدول القائمة مذهبا معينا لا تخرج عن حدوده .

إن المؤسسات والمعاهد التى تتولى تدريس الشريعة الإسلامية بأصولها وفروعها يجب أن تغير مناهجها وكتبها على نمط يسمح لكل المذاهب الإسلامية أن تتاح لها فرصة عرض عقائدها وآرائها بوضوح وصحة من مصادرها الثابتة لا من المصادر البعيدة عنها والتى قد تشوهها وتثبت لها نقيض ما نعتقده وتراه . بل يجب أن نعرض آراء المذاهب جميعا باعتبارها آراء أفراد منسوبة إلى من قال بها مقيمة بما ستندت إليه فى حجة أو دليل معتبرا فى الشرع ، وينبغى ألا يقوم بعرض آراء أفراد منسوبة إلى من قال بها مقيمة بما استندت إليه فى حجة أو دليل معتبر فى الشرع ، وينبغى ألا يقوم بعرض آراء أو عقائد أى مذهب إلا علماء مستنيرون منه ، يعرفونه حق المعرفة ويميزون بين المعمول به والمتروك فى أقواله ويضعونه من درجته فى الصحة أو الشذوذ .

مع الدكتور هويدى

هذا مؤلف معاصر آخر ، أصدر كتابا سماه (تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الإفريقية) وخصص الجزء الأول منه للشمال الإفريقى وقد قسم هذا الجزء إلى قسمين :

القسم الأول : تحدث فيه عمن سماهم الخوارج والشيعة .

القسم الثانى : تحدث فيه عما سماه الإسلام السنى .

ومع أن الدكتور هويدى يعيش فى العصر الذى يدعو كل ما فيه إلى وجوب العمل على توحيد صفوف المسلمين ، وعلى الرفق بهم ، واستعمال الكلمات المؤنسة اللطيفة فى الحديث عنهم ، مهما كانوا وأينما كانـوا ، وعلى التقريب بين وجهات أنظـارهم المختلفة ، وعلى منابذة الجمـود والعصبية ، ورغم أن دراسته للدكتوراه كانت فى باريس ، ورغم أنـه دكتور فى الفلسـفة التى يفترض فى صاحبها أن يكون واسـع الأفق ، منفسح النظرة ، متفهما لجميع الآراء والنظريات • رغـم كل ذلك فإنك لمجرد ما تقرأ جزءا من هذا الكتاب تحس بأن تيارا قويا يجرف قلم الدكتور فى طريق معينة كأنما يسوقه بدون وعى !

جـاء فى كتابه ص ٥٤ ما يلى :

« فلسفة الإباضية : يلخص الأشعرى فى (مقالات الإسـلاميين ، واختلاف المصلين) النقاط التى التقى حولها جمهور الإباضية وبوسعنا أن نجمعها على الوجـه التالى » (١) •

ثم يخلط خلطا عجيبا بين ما نسبه أبو الحسن الأشعرى إلى الخوارج عامة أو إلى بعض فرقهم — كالحفصية — خاصـة وإلى ما نسـبه إلى الإباضية ويستخرج من ذلك الخلط العجيب ، النقـاط التى يزعـم أن الأشعرى اعتبرها ملخصا لمقالات الإباضية •

والسؤال هنا : ما الذى يحمل الدكتور على الرجوع إلى ما كتبـه الأشعرى قبل عشرة قرون وهو يتحدث عن الإباضية فى هـذا القـرن ،

---

(١) سوف ننقل الفقرة ونعرضها للمناقشة فى أواخر هـذا الفصل .

أما كان أولى به وأقرب إلى الحق والصدق أن يأخذ مقالاتهم من نفس كتبهم — وعنده منهما النذر القليل ويستطيع الحصول على غيرها لو أراد بجهد يسير عندما كتب عن المالكية رجع إلى كتب المالكية فلماذا لم يقف نفس الموقف مع الإباضية ويرجع إلى كتبهم وإنما تركهم ورجع إلى غيرهم يلتمس ما قيل عنهم قبل عشرة قرون •

يقول الدكتور هويدى فى كتابه السابق ص ٤٤ ما يلى (١) :

« وكان الوهبية يطلقون على أنفسهم اسم — المسلمين — لأنهم وحدهم هم الذين يستحقون هذا الاسم فى نظر أنفسهم ، ولأنهم القائمون بالسنة وحدهم ، أما المالكيون والحنفيون الذين انتشروا بإفريقيا فقد أطلق عليهم الوهبية اسم الموحدين أى أنهم فى نظرهم ليسوا بمشركين : ولكنهم ليسوا بمسلمين أيضاً — وكانوا يعتقدون أن دعوة هؤلاء الموحدين الى الدين الحق — وهم عندهم مبادىء الخوارج — فرض كفاية على كل وهبى ، وأن عليه أن يبدأ بإقناعهم بالحسنى أول الأمر • فان أبوا فيجب عليه قتالهم ، لكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحوال على عكس المشتركين • (ويمثلهم فى نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية) فإنه تقع عليهم الجزية » •

وبعد هذا الكلام مباشرة وضع بين قوسين (الشماخى : كتاب السير) ولا شك أن القارىء — حين يجد بعد ذلك الكلام اسم الشماخى واسم كتابه السير — يعتقد أن الكلام السابق منقول عن الشماخى إذا لم يكن

---

(١) سنعود الى مناقشة هذه الفقرة فى فصل آت .

بالنص والحرف فبالمعنى • ولا دلالة له غير ذلك والواقع أن كتاب السير كتاب تراجم وتاريخ لا يتحدث عن هذا الموضوع مطلقا وليس فيه ما يشير الى هذا الكلام لا من قريب ولا من بعيد ولست أدرى كيف تورط الدكتور فألقى نفسه فى هذه المشكلة التى تجعله ينسب كلاماً الى شخص لم يقله والى كتاب لم يوجد فيه • هل كان يعتقد أن الكتاب من النـدرة بحيث لا يعرفة الناس ولا يقرأونه وأنه اذا كان كذلك فلا بأس أن ينسب إليـه ما ليس فيه •

قد تكفى سقطة واحدة كالسقطة السابقة للتدليل على المنهج الـذى يسير عليه المؤلف ولكننا سوف نعرض على القارىء الكريم نماذج أخرى أكثر وضوحاً عن ذلك المنهج •

يقول الدكتور هويدى فى نفس الكتاب صفحة ٤٩ ما يلى :

« ومن فرق الإباضية كذلك ، فرقة النفوسية أو التمزينية أصحاب أبى يونس وسيم النفوس التمزينى الذى ثار مع أصحابه فى ولاية أبى بكر ابن الأفلح بسبب مساقى الناس • وترك اتباع الحاكم حفر هذه المساقى من غير تسوية مما أثار الناس » • (الشماخى : كتاب السير ص ١٩٥) هكذا قال : وإذا رجعت أيها القارىء الكريم الى كتاب السير للشماخى صفحة ١٩٥ فإنك سوف تجد كلاماً يناقض تماما ما أورده الدكتـور عن الإباضية وعن أبى يونس ونسبه الى الشماخى • وليته حين نسب هـذا الكلام الى الإباضية لم يتورط فيذكر المؤلف والكتاب والصفحة وليته إذ ذكر المؤلف لم يذكر الكتاب والصفحة • وليته إذ ذكر المؤلف والكتاب لم يذكر الصفحة حتى يمكن — دفاعا عنه — أن يستمسك الإنسان ولو بخيط

رقيق واه ولكن ما الحيلة والدكتور يريد أن يظهر بمظهر من يتبع الأسلوب العلمى فوقع فى هذه المشكلة • والآن أيها القارىء الكريم إذا رجعت الى كتاب السير للشماخى ص ٩٥ فإنك سوف تجد فيه ما يلى بالحرف الواحد :

ومنهم « (١) أبو يونس وسيم النفوس التمزينى ، قال أبو زكريا إن الإمام استعمل على قنطرارة أبا يونس وسيم — وما ولاها ، فأحسن السيرة • وسبب خروجه من جبل نفوسة الى قنطرارة ، أن خدمة اذا احتطبن فى مساقى أرباع الناس تركن الحفر فى غير تسوية ، فيمكن الماء عند مجىء المطر • فخشى النباعات • فولى قنطـرارة ، فأحسن السيرة وعـدل فى القضية ، وأحسن الى الرعية ، وربما طلع على أشرف موضع حيث يسمعه الأقصى والأدنى فينادى • الافرار من الصدقة ، والفار من الصدقة يؤذى ويكرر ذلك ، وتمادى على ولايته وعدله الى أن مات مرضياً حميداً » •

ولا شك أن القارىء الكريم يرى الفرق الكبير بين ما قاله الشماخى فى السير وبين ما نسبه اليه الدكتور هويدى • ولكى تتم الصورة ويتضح موقف الدكتور هويدى أنتقل للقارىء الكريم ما يتعلق بالموضوع فى كتاب السير •

يقول الشماخى محمد سعد بن أبى يونس وسيم التمزينى فى كتابه السير ص ٢١٤ ما يلى :

---

(١) اى ومن علمائهم اى علماء الاباضـــية .

« وقال أبو زكريا أرسل أبو يونس وسيم بن سعيد ابنه سعداً الى تيهرت ليتعلم العلم ومعه نفاث بن نصر فتعلما عند الإمام • فلما بلغا من العلوم ما أراد الله • أرادا الرجوع الى بلدهما وذلك وقت موت أبى يونس عامل الإمام على قنطرارة — وتقدمت أخباره — فاختار الإمام أفلح سعد الأحكام الناس وقدمه فى موضع أبيه »• هذا نص ما قاله الشماخى عن أبى يونس وسيم وعن ابنه سعد • وعن المقارنة يظهر لك مناقضة ما قاله) الدكتور هويدى لما جاء فى سير الشماخى فبينما يصفه الشماخى بالتقى والورع وفراره من الشبهات واختيار الإمام له — من أجل هذه الصفات — فولاه عاملا له • ويقرر الشماخى أن أبا يونس بقى عاملا للإمام حتى توفى وأنه كان مرضياً عنه من الناس ومن الإمام ويقرر أيضا أنه أرسل ولده الى تاهرت ليدرس العلم على الإمام وأنه فعلا درس عليه حتى بلغ مراده ورجع الى بلده فاختاره الإمام أيضا عاملا فى مكان أبيه •

هذه الصورة التى وضحها الشماخى وقد جاء الدكتور هويدى بصورة مناقضة لها تماما ونسبها الى الشماخى والدكتور هويدى يزعم أن أبا وسيم انتقد خدم الحكام فثار على الإمام وثار معه الناس حتى كونوا فرقة تسمى النفوسية والتميزينية وهو كلام لا أساس له مطلقا لا فى الواقع ولا فى كتاب السير ولا فى غيره من كتب التاريخ الإباضى وربما نقل الدكتور هذه الفكرة عن بعض المستشرقين وأن أولئك المستشرقين لم يفهموا كلام الشماخى ففسروه بهذه الصورة ونقلها عنهم الدكتور ، دون الرجوع الى الأصل • وإلا فلا تفسير لهذا التناقض بأى اعتبار ولا سيما أن عبارة الشماخى من الوضوح بحيث لا تحتاج الى تفكير ولا تفسير • ومما وقع فيه الدكتور هويدى أيضا من نسبة كلام الى ناس لم يقولوه أو تحريف ما قالوه بحيث يؤدى معنى غير المعنى الذى قصده المؤلف الأصلى ما نسبه الى أبى الحسن الأشعرى فقد جاء فى كتاب الدكتور هويدى ما يلى :

« يلخص الأشعرى فى (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) طبعة ريتر — الطبعة الثانية — ١٩٦٣) النقاط التى التقى حولها جمهور الإباضية وبوسعنا أن نجمعها على الوجه التالى :

تأولوا فى عثمان نحو ما تأولت الشيعة فى أبى بكر وعمر ، وزعموا أن عليا هو الحيران الذى ذكره الله فى القرآن الكريم (٦ : ١٧) « قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله . كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه الى الهدى » ائتنا . قل إن هدى الله . هو الهدى أمرنا لنسلم لرب العالمين » .

وإن أصحابه الذين يدعونه الى الهدى أهل النهروان ، وزعموا أن عليا هو الذى أنزل الله سبحانه فيه الآية : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا » (٢ ، ٢٠٤) وأن عبد الرحمن بن ملجم هو الذى أنزل الله فيه (ومن الناس من يشترى نفسه ابتغاء مرضاة الله) .

وإذا رجع القارىء الكريم لم يجد هذا الكلام فيما كتبه الإمام الأشعرى عن الإباضية وإنما يجد هذه الفقرات ضمن شنائع أخرى أشد منها وأخزى نسبها الإمام أبو الحسن الى الحفصية — أتباع حفص بن أبى المقدام — وعلق عليها الإمام أبو الحسن هناك بقوله : « إلا أن جل الإباضية يبرأون منه إلا من تبعه — أى يبرأون من حفص وأتباعه لشناعة مقالاته — ولكن الدكتور هويدى الذى نسب الى الشماخى ما نسب لا يعجزه أن ينسب الى أبى الحسن الأشعرى ما يريد أن ينسب .

وفى الحين الذى يذكر أبو الحسن أقوال الحفصية ثم ينص على أن الإباضية يبرأون من ذلك أى يبرأون من الأقوال وممن قال بها — يأتى

الدكتور هويدى فيأخذ مما نسب الى الحفصية فقرة ـ لعلها أشنع ما نسب الحفصية ـ فيجعلها مما يلتقى حوله الإباضية وينسب ذلك كله الى أبى الحسن الأشعرى مفسراً قول أبى الحسن « إلا أن جل الإباضية يبرأون منه » بقوله هو النقاط التى يلتقى حولها جمهـور الإباضيـة يعنى أن أبا الحسن يقول إن جمهور الإباضية يبرأون ممن يقول هـذا فيترجمه الدكتور هويدى الى جمهور الإباضية يلتقى حول هذا • ويعطى لكلمـة يبرأون التى وردت على لسان أبى الحسن كلمة يلتقون التى وردت على قلمه • والدكتور يفعل هذا مع هذه الكتب وهى مطبـوعة ومتداولة بين أيدى المثقفين • ولا يشعر بحرج ـ فيما يبدو ـ فى موقفه لأنه يقصد هذا •

والذى يتتبع ما كتبه الدكتور هويدى عن الإباضية ـ رغم ذكره لبعض كتبهم ـ يحس أن الدكتور يجهل كثيراً من الأشياء التى تناولها بالحديث عنها ، سواء ما كان منها مقالات وآراء فى الشريعة الإسـلامية أو ما كان منها أحداثا وتاريخا وبلدانا والى القارىء الكريم أمثلـة فى أخطائه فى الأحداث والتاريخ والبلدان •

يقول فى كتابه ص ٥٨ ما يلى :

« حيث أن الوارجلانى فى أحد فقهاء وفلاسفة الإباضية الرستميين فى جبل نفوسة » • وأبو يعقوب كما هو معروف ليس رستميا وإنما هـو سدراتى وليس من جبل نفوسة وإنما هو من سدراته وسـكن وارجـلان فنسب إليها وقيل له أبو يعقوب الوارجلانى •

والرستميون سكنوا تاهرت وقد انقرضوا قبل ثلاثـة قـرون من

وجود أبى يعقوب فى وارجلان ووارجلا تقع فى الجنوب الشرقى للجزائر بينما تقع ثاهرت فى الشمال الغربى للجزائر أما جبل نفوسة فيقع فى ليبيا والأماكن الثلاثة متباعدة عن بعضها ولا علاقة فى النسب بين أبى يعقوب والرستميين ولكن الدكتور ــ حسبما يبدو ــ لا يفرق بين هذه الأشياء ، ولا يهمه أن يفرق •

يقول فى كتابه ص ٤٩ ما يلى :

« أبو يونس وسيم النفوس التمزينى الذى ثار مع أصحابه فى ولاية أبى بكر بن الأفلح » •

وأبو يونس لم يثر على إمامه أبداً • وبقى عاملا له حتى توفى ــ كما أوضحنا ذلك من قبل ــ وهو لم يدرك إمامة أبى بكر لأنه توفى إمامة أفلح وقد تولى ابنه سعد الولاية من بعده على قنطرارة للإمام أفلح •

وكل ما كتبه الدكتور هويدى فى هذه الفقرة خطأ ، وأشد النقد إنما ينصب عليه بسبب نسبته هذا الكلام الى الشماخى بتحديد الكتاب والصفحة بينما يحمل الكتاب والصفحة ما يناقض هذا الكلام مناقضة كاملة •

هذه شواهد مما كتبه الدكتور هويدى عن الإباضية وهى ــ مع شناعتها أقل من بعض ما لم نتعرض له ــ وقد كتب عن بنى حيزاب كلاما تتقزز منه انفوس ، يبدو أنه نقله عن بعض المستشرقين الحاقدين على بنى ميزاب بترجمة حرفية ركيكة يظهر فيها ــ بوضوح ــ سخافة التعبير والخطأ فى نطق الأسماء •

وزعم الدكتور هويدى أنه تناول بالتحليل بعض مصادر الفلسفة الإباضية ولكنه فيما يبدو أنه نقل تلك الدراسات عن بعض المستشرقين بما فيها من خطأ وجهل بمعانى المصطلحات كما تحدث عن الحركة العلمية والتاريخية بكثير من التخبط والجهل •

مع الدكتور هويدى أيضاً

مهمة الشرح والإيضاح مهمة عسيرة ، وهى تقتضى ممن يضع نفسه فى موقف الشارح أن يكون ذا استعداد للقيام بهذه المهمة العسيرة •

ومن أهم الوسائل لذلك — فوق الملكة الفطرية — أن يمتلك القدرة على الفهم الصحيح • وأن يقوى على إيصال الصورة الحقيقية للموضوع إلى الآخرين فى وضوح ، وأن يكون فاهماً فهما صحيحا لا يخطىء لما يريد شرحه ، وأن يكون أمينا فى نقل المعانى وأن يكون واضح التعبير غير جاهل بالمصطلحات ، وأن يكون عارفاً باللغة واشتقاقها معرفة دقيقة فإن اختلت فيه هذه الوسائل فان شروحه لا تكون إلا صوراً من الغموض ، وعجائب من الخلط والتشويه • والدكتور هويدى يصر — وهويكتب عن الإباضية — أن يقدم شروحا وتعاليل كثيرة يكتنفها الخطأ من كل جانب • وسوف أناقش معه فى هذا الفصل مثلين مختصرين • الأول فى المعنى اللغوى لكلمة مفردة والثانى لفقرة تتضمن بعض الاصطلاحات •

المثال الأول :

جاء فى كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية نقلا عن الشماخى صفحة ٣٧ ما يلى : « فاتعدوا ليوم معلوم يجتمعون فيه » • وقد شرح كلمة (اتعدوا)

بقوله (أى أعدوا العدة) ووضعها بين قوسين • وأحسب أن عبارة الشماخى واضحة لا لبس فيها ولا تحتاج الى شرح • ولكنها لا تعنى ما ذهب إليه الدكتور إلا على باب من الالتواء والتأويل لأن كلمة (اتعـدوا) تعنى أنهم اتفقوا على موعد يتلاقون فيه ، أو وعد بعضهم بعضا باللقاء ، أو حددوا لأنفسهم زمانا أو مكانا يجتمعون فيه أو ما يؤدى هذا المعنى ففسر كلمة (اتعدوا) بقوله اعدوا العدة أى استعدوا والفرق بين معانى اتعـدوا واستعدوا وأعدوا واضح فى استعمالات اللغة العربية لأن (اتعـدوا) مشتقة من وعد وهى مادة أخرى غير مادة عد ، وأعد ، واستعد •

ولكن الدكتور — وهو يتعاطى الشرح والتفسير — لم يحمل نفسه عناء التذوق ، تذوق معانى فى الكلمات فى استعمالاتها الصحيحة المختلفة • ولا عناء الرجوع الى قواميس اللغة ، للتأكد من سلامة فهمه • ولا حتى عناء التأمل فى سياق العبارة وما تؤديه وأعتقد أن الاستهانة بالدقة فى معانى المفردات واستعمالاتها مـن رجل يشتغل بالأبحاث الفلسفية ، لا يناسب ما تفرضه الفلسفة من التدقيق فى معرفة الحقائق •

المثـال الثـانى :

يقول الدكتور هويدى فى كتابه السابق ص ٤٤ ما يلى :

« يقال الإباضية الخوارج (الوهبية) (١) أو (الوهابية) وكان

---

(١) هذه التسمية خاصة بالاباضية تطلق عليهم دون غيرهم من الفرق التى انشقت عنهم • وسبب تسميتهم بهذا الاسم أن فرقا انشقت عن الاباضية وانحرفت عن أصولها وعقائدها واحتفظت باسم الاباضية رغم انها صار لها أسماء جديدة • فاطلق الاباضية الاصلاء على انفسهم كلمة الوهبية تمييزا لهم عن غيرهم من الفرق التى مالت الى الخوارج أو الى المعتزلة • كالنكار والحسينية وغيرهم وستجد مزيدا من التفصيل والايضاح عن هذا الموضوع فى الفصل الخاص بالحديث عن فرق الاباضية •

الوهبية يطلقون على أنفسهم اسم (المسلمين) لأنهم وحدهم هم الذين يستحقون هذا الاسم فى نظر أنفسهم ، ولأنهم القائمون بالسنة وحدهم ، أما المالكيون والحنفيون الذين انتشروا بإفريقيا فقد أطلق عليهم الوهبية اسم (الموحدين) أى أنهم فى نظرهم ليسوا بمشركين ، ولكنهم ليسـوا بمسلمين أيضا • وكانوا يعتقدون أن دعوة هؤلاء الموحدين الى الدين الحق وهو عندهم مبادىء الخوارج فرض كفاية على كل وهبى — وأن عليه أن يبدأ بإقناعهم بالحسنى أول الأمر ، فان أبوا فيجب عليـه قتالهم • لكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحـوال ، عـلى عكس المشركين (ويمثلهم فى نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية) فانه تقع عليهم الجـزية •

حرص الدكتور هويدى حرصا شديدا على أن يذكر كلمة الخوارج قبل أو بعد كلمة الإباضية كأن إحداهما تفسير للأخرى ممـا اقتضاه أن يكرر كلمة الخـوارج — دون أية حاجة إليها — فى الصفحات القليلة التى كتبها نيفا وثلاثين مرة مما يبعث السأم والاشمئزاز فى نفس القارىء من هذا التثبت اللفظى الذى يسيطر على حواس الكاتب كأنما خشى أن ينفلت من الإباضية دون أن يلتصق بهم الخوارج • وفى مقابل هذا حرص حرصا شديدا أيضا كلما ذكر المـذهب مالكى أن يلحقه بكلمة السنى فى إصرار وتشبث عجيبين كأنما هناك مذاهب مالكية كثيرة يتحدث هو عن واحد منها فقط أو كأنما يخشى أن ينفلت منه المذهب المالكى دون أن تلتصق بـه كلمة السنى • ولا يدل هذا التثبت اللفظى الساذج — إن دل على شىء — إلا على أن الكاتب فى قرارة نفسه لا يصدق هذا ولا يؤمن به • وإنمـا يقوله ويحرص على قوله خوفا من وهم يطارده فى أعماق نفسه أو كالمتحدث الذى لا يثق فيما يقوله و يعلم أن الناس لا يصدقونه فيؤكد كل جمله من حديثه بيمين دون أن يطلب منه يمين •

يقول الدكتور هويدى « وكان الوهبية يطلقون على أنفسهم اسم المسلمين » • ثم يذهب يشرح كلامه هذا الواضح بتفسير معقد فيزعم أن الوهبية يقصرون اسم المسلمين عليهم ولا يطلقونه على غيرهم لأنهم وحدهم الذين يستحقونه ، ولأنهم القائمون بالسنة •

وأريد أن أقول للدكتور هويدى بعبارة واضحة مختصرة إن الإباضية يطلقون كلمة المسلمين على جميع أهل القبلة وهم داخلون فيها وقد يطلقونها ويريدون بها الإباضية بقرينة تدل على ذلك إما لفظية وإما بدلالة السياق وهى ترادف كلمة الموحدين فى أغلب الاستعمالات ولهذا فكلام الدكتور هويدى غير صحيح وهناك بحوث شرعية مطولة بين علماء الأمة فى معانى كلمات مؤمن وموحد ومسلم ومشرك وكافر ونافق وفاسق وعاص والعلاقات بين بعضها والبعض الآخر والخصوص والعموم فيها ولكل المذاهب الإسلامية فى هذا الموضوع مواقف محددة وللإباضية فيها موقفهم المحدد •

وأما إنهم يحسبون أنفسهم عاملين بالإسلام قائمين بالسنة فهذا صحيح وكل مذهب من المذاهب الإسلامية يعطى لنفسه هذا الحق ويأباه عن الآخرين لأنه إذا كان للآخرين المخالفون له على الحق فهو على الباطل • ولذلك تجد كل أهل مذهب يحرصون على أن يسموا أنفسهم : أهل السنة ، أهل الحق ، أهل الاستقامة •

وربما كان مهما أن يفهم الدكتور أن جميع أصحاب المذاهب الإسلامية قد يطلقون كلمة المسلمين ويريدون بها مذاهبهم الخاصة بقرينة تدل على ذلك ولو تأمل فى كتب المذهب (المالكى السنى) لوجدها مئات المرات قد

أطلقت كلمة المسلمين على أتباع الإمام مالك فقط ولا حــرج فى ذلك فهى وغيرها لا تريد تحجير الواسع كما أراد أن يفسر الدكتور . بقى — فى هذه النقطة أن يعلم الدكتور أن الإباضية إذا أرادوا أن يتحدثوا عن الإباضية خاصة فإن لهم أسماء خاصة كالإباضية والوهبيــة وأهل الدعــوة وأهل الاستقامة وكثيرا ما يرد فى كتب الفقه قال أصحابنا أو هذا قول أصحابنا على أن كلمتى الأصحاب وأهل الاستقامة تستعملها مذاهب أخرى للدلالة على نفسها أما الإباضية والوهبية وأهل الدعوة فهو خاص — عند الإباضية بالإباضية .

يعد هذا التفسير الملتوى الذى لا لزوم إليه من الدكتور هــويدى ينزلق قلمه إلى عبارة توحى بأن الكاتب يريد إشعال فتنة بين الإباضيــة من جهة والمالكية والحنفية من جهة أخرى فقد قال : أما المالكيون والحنفيون الذين انتشروا بإفريقيا فقد أطلق عليهم الوهبية اسم الموحدين أى أنهم فى نظرهم ليسوا بمشركين ، ولكنهم ليسوا بمسلمين أيضاً .

لست أدرى هل كان الدكتور هويدى يحس بما تدل عليــه هــذه العبارة وأنها لا تصدر فى هذا العصر إلا عن إنسان يريد أن يثير فتنة ، ويفرق كلمــة ويزرع البغضاء بين الناس وأنه اختــار المذهبين المالكى والحنفى ليجعل منهما مقدح النار . وإلا فلماذا خصصهما دون بقية الفرق والمذاهب . ولماذا رجع إلى تلك العبارة الغامضة الموهمة التى قيلت قبل عشرة قرون مضت . إن كلمة الموحــدين من الناحية الشرعية يطلقهــا الإباضية على كل من أقر بالجملة وليست خاصة بالمالكية والحنفية بــل تطلق عليهما وعلى الإباضية أنفسهم وعلى غيرهم من الفرق والمذاهــب التى آمنت بالله ورســوله .

إن الإباضية يطلقون على المالكية وغيرهم اسم المسلمين ويعاملونهم ويعاملون غيرهم — ممن أتى بالجملة — معاملة المسلمين لا ينقصونهم شيئا أبدا ماعدا الاستغفار وطلب الرحة من الله فهذه حقوق شخصية والإباضية يرون أن الولاية والبراءة الشخصيتين واجبتان فعلى كل مسلم أن يتـولى ويجب ويستغفر ويسترحم للمسلم الذى يراه موفيـا ويعمل صالحا وعليه أن يبغض ويبرأ الى الله من كل عاص إذا عرفه بشخصه فإذا لم يعـرفه توقف فيه حتى يعرفه ٠

وخلاصة مناقشة هذه النقطة أن الإباضية يطلقون كلمة المسلمين على جميع المسلمين دون تفريق وقد يطلقون كلمة المسلمين ويقصـدون بهـا جزءا منهم بدلالة قرينة أو سياق وهـذا هو الأسلوب الموجود فى أحاديث جميع الفرق والطوائف وعندما يتحدث أى متحدث عن النصر والهزيمـة بين جيوش المسلمون وأعدائهم فقد ترد أمثال هذه العبـارات فعنـدما يقال انتصر المسلمين فى أسبانيا أو انهزموا فى موقعـة كذا فهم يعنون بذلك المسلمين الذين هم فى الواجهة ٠ ولا شك أن المسلمين الذين هـم بعداء عن أرض القتال ليسوا منتصرين أو منهزمين فى الوقائع السابقة ، وعندما يكون القتال بين فرق من المسلمين أو دول من المسلمين فيقـول أحد الفريقين انتصر المسلمون أو انهزموا أو فعلوا كذا فهو بالتأكيد يريد بكلمة المسلمين الجناح الذى هو فيه أو ينتهى إليه وقـد استعمل كلمـة المسلمين للدلالة على هذا القسم الخاص ولكن التعبير مع هـذه الدلالة لا يعنى إخراج القسم الآخر من الإسـلام أو الحكم عليه بالكفر ٠ أظن أن هذا يكفى لإيضاح هذه النقطة التى حاول الدكتور هويدى أن يستعملها فى غير حقيقتهـا ٠

بعد هذا كله يتورط الدكتور هويدى تورطا مخجلا حين يقول :

« وكانوا يعتقدون أن دعوة هؤلاء الموحدين إلى الدين الحق — وهو عندهم مبادىء الخوارج — فرض كفاية على كل وهبى وأن عليه أن يبدأ باقناعهم بالحسنى أول الأمر فإن أبوا فيجب عليه قتالهم ، لكن لا تقع الجزية على الموحدين بحال من الأحوال • على عكس المشركين (ويمثلهم فى نظر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية ••• الخ) فإنه تقع عليهم الجزية » • الواقع أن هذا الكلام غير مستقيم ولا سليم وصاحبه فيما يبدو لا يفرق بين فرض العين وفرض الكفاية فبينما يقول إن دعوة الموحدين إلى مبادىء الخوارج فرض كفاية عند الإباضية يناقض قوله هذا فيزعم أن ذلك يجب على كل فرد وأنه على كل فرد أن يدعوهم بالحسنى فإن لم يستجيبوا قاتلهم وهذا كلام يناقض بعضه بعضا وهو يزعم هنا أن الدين الحق عند الإباضية هو مبادىء الخوارج ولكنه فى آخر الفصل بعد أن يقسم الإباضية إلى مجموعة من الفرق يقول وجميع هذه الفرق للإباضية تبرأ من فرق الخوارج • فإذا كانت تبرأ منهم فكيف تعتبر مبادئهم هى الدين الحق • وبوضوح واختصار نستطيع أن نقول إن هذا الكلام لا أساس له عند الإباضية ولم يوجب الإباضية أبدا — لا من باب فرض الكفاية ولا من باب فرض العين — على كل وهبى أن يدعو أصحاب المذاهب الأخرى إلى مذهبه ولا أن يقاتلهم وأقصى ما يطالب به الفرد الإباضى فى هذا الموضوع هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالأسلوب المعروف فى هذا الباب •

ولعل الدكتور الفيلسوف مرت به عبارة فى بعض كتب علم الكلام تقول إن على الإمام أن يدعو مخالفيه إلى ترك ما به ضلوا وإلا أعذر إليهم وقاتلهم ومثل هذه العبارة ترد عند الحديث عن الدولة ومن يخرج عنها بصفة عامة • والوجوب هنا على الإمام • والمدعو ليس هم المالكية

أو الحنفية أو غيرهم وإنما هم الطائفة الخارجة على إمام العــدل مهما كان مذهبها لأنها طائفة باغية فيطلب إليهم الإمام أن يتركوا ما به ضلوا أى برروا به بغيهم عن الإمام وأن يرجعوا إلى الأمة فإن امتنعوا قاتلهم وشتان بين موضــوع وموضوع وما أحسب أنه يستقيم فى تفكير أو عقل أن يلزم كل فرد من مذهب بدعــوة غيره إلى مذهبه فإن امتنع قتله وعلى كل حال فهذا شىء لم يكن عند الإباضية •

أما عباراته الأخيرة فى هذه الفقرة وهى قوله : (ولكن لا تقع الجزية على الموحــدين بحال من الأحوال على عكس المشركين ويمثلهم فى نظــر الإباضية المسيحيون واليهود والزرادشتية) فلا معنى لها ولا داعى إليها ولا علاقة لها بالموضــوع ويخيل إلى أنها كانت كذلك فى كتاب المستشرق الذى ينحت منه الدكتور فلم يفهمها ولم يجــد لها موضعا فوضعها بين قوسين وجرها حتى وقعت فى هذا المكان صدفة ومن غــير تدبر ولا تفكر ولا إمعــان •

لعله مما يفيد القارىء الكريم أن أعود معه فألخص له أخطاء الدكتور فى شروحه السابقة التى لا تستند إلى حقيقة فيما يلى :

١ — اتعد القوم — وعــد بعضهم بعضا — حددوا موعدا للقاء — اتفقوا على اللقاء فى زمان أو مكان أو فيهمــا • وليس معناها أعــدوا العــدة •

٢ — كلمة الخوارج حتى على رأى من يعتبر الإباضية فرقــة من الخوارج • ولا ترتبط بالإباضية ارتباطا لفظيا مستمرا •

٣ ــ الإباضية فى الاستعمالات العامة يطلقون لفظ المسلمين على أمة الإجابة وهذا الأكثر فى استعمالهم وقد يقصدون به الإباضية فقط بدلالــة قرينة لفظية أو من الســياق •

٤ ــ كلمة الموحدين يطلقها الإباضية على جميع من نطــق بكلمــة التوحيد فى المسلمين وليست خاصة بالمالكية والحنفية كما تشــعر عبــارة الدكتــور •

٥ ــ شرحه لكلمة الموحــدين بأنها تعنى أنهم ليسوا مشركين وليسوا مسلمين غير صحيح والموحدون هم المسلمون وكل المسلمين فى جميع الأزمنة والأمكنة هم موحدون •

٦ ــ لا يوجب الإباضية على أى إباضى أن يدعو غيره إلى الإباضية ولا يجيزون لــه مطلقا أن يقبــل أحدا من المسلمين ســواء استجابوا له أو لم يستجيبوا وســواء دعاهم أو لم يدعهم • لأن الدعــوة أمــر شخصى من حقه أن يستعمله هو فقط ولا يوجبه عليه أحــد • ولو دعــا أحــدا فلم يستجب له فقتله لوجب قتله قصاصا •

٧ ــ الإباضية لا يرون أن الدين الحق هو مبادىء الخوارج بــل يرون أن مبادىء الخوارج ضلال وباطل وأن الدعــوة إليها دعــوة إلى الباطل سواء كانت دعوة بالحسنى أو بالشدة •

٨ ــ الإباضية يفرقون بين أحكام المشركين وأهل الكتاب والصابئين فلكل واحــد من هؤلاء حكم خاص به لا يتعداه إلى غيره • والتســوية بينهم فى حكم الجزية خطــأ من الدكتور فإن المشركين ليسوا من أهــل الجزية • ولا تقبل منهم •

٩ ـ ذكر عـددا من الفرق قال إنها من فرق الإباضية ثم قال :

« وجميع هذه الفرق تتبرأ من فرق الخوارج الأخرى : الأزارقـة والبيهسية والنجدات والصفرية ••• الخ لكن اسم الوهبية يجمعها ويطلق عليها لكنها » • وصحيح أن الإباضية الوهبية يبرأون من جميع فـرق الخـوارج لكن ليس صحيحا أن كلمـة الوهبية تطلق على جميع فـرق الإباضية • وقد رأينا أن نخصص فصلا لمناقشة موضوع فرق الإباضـية أو الانشقاق عند الإباضية وفى إمكان القارىء أن يراجع هذا الموضـوع هنـاك •

أحسب أن هذه النماذج البسيطة التى عرضناها فى هذا الفصل عن تخبط الدكتور كافية للدلالة على قيمة الكتاب فى عرضه لفلسفة الإباضية •

هويدى فى تبعية المستشرقين

للمستشرقين عندما يكتبون عن الإسلام ــ سواء كانت كتابتهم عنه كدين ، أو عن الأمة الإسلامية جمعاء كأمة ، أو عن مذهب من مذاهبها كمذهب أو فرقة ــ أساليبهم ودوافعهم ومراميهم الظاهرة والخفية . ومهما كان المستشرقون مخلصين للبحث العلمى فى هذه المواضيع فإنهم ــ فى الحقيقة ــ أشد إخلاصا للدوافع والمرامى الحقيقية التى حملتهم على الكتابة عن الإسلام أو عن المسلمين ، أو عنهما معا .

والواقع أنهم نجحوا إلى مدى بعيد فى تحقيق أهدافهم البعيدة التى يرمون إليها بكتاباتهم ، ومحاضراتهم ، وندواتهم ، وأسمارهم ، ولعل من أبسط أهدافهم أن يتركوا لهم ظلالا فى بلاد الإسلام خاصة ، وفى الشرق عامة . وقد استطاعوا ــ فعلا ــ أن يكونوا فى البلاد الإسلامية ومن أهلها مستغربين من حملة الأقلام وأصحاب الفكر ، ينظرون إلى الشرق من نفس الزاوية التى ينظر منها المستشرقون مع فارق بسيط هو أن المستشرقين الغربيين إنما يخدمون ــ بما يقدمونه عن الشرق ــ مصلحة الغرب أى مصلحة بلادهم . أما المستغربون الشرقيون فهم إنما يخدمون أيضا ــ بما يقدمونه عن الشرق والغرب ــ مصلحة الغرب أيضا . أى مصلحة الموجهين لهم ، المؤثرين عليهم ، أى أن المستشرقين الغربيين استطاعوا أن يتركوا لهم فى الشرق ظلالا تتحرك لتحركهم ، ومفكرين وفلاسفة يفكرون بأسلوبهم ويتكلمون بمنطقهم ، ويقدسون حجتهم ولو كانت تافهة مضحكة ، ويعتزون بآرائهم ولو كانت نسيجا من الأباطيل أو الأضاليل . ويلهثون وراء ما يشيرون إليه ولو كانت الإشارة من طرف البنان ومن مكان بعيد .

ولعل من أغرب ما يصادفك فى هذا الباب أن تقرأ لبعض المستغربين المشهورين كلاما ينقله مترجما عن كاتب غربى ، فتعرف أن النص إنما هو لكاتب مسلم استشهد به الغربى إما نقلا أو اقتباسا فترجمه إلى لغته الأجنبية . فجاء الكاتب المسلم أو المستغرب المسلم فترجم النص من جديد إلى اللغة العربية — لأنه لا يعرف أن النص عربى — وعندما تقرؤه تحس بالألم يعتصر فؤادك ، وذلك لأن الترجمة الأولى من العربية إلى الأجنبية اطفأت نصف الروح من النص ، وترجمته الثانية من الأجنبية إلى العربية اطفأت النصف الثانى ، فلم تبق منه إلا عبارة ميتة . إن الكاتب المسلم المستغرب المعتز بتبعيته للمستشرقين لا يخلو من أحد أمرين : إما أنه يعتمد على ما يكتبه المستشرقون فى القضايا الإسلامية اعتمادا كليا وهو يترفع — بزعمه — أن يرجع إلى المصادر الإسلامية فهو يجهل تلك النصوص وأصحابها ومواضعها بل وحتى مقدار استفادة المستشرقين بها . وإما أنه يعرف ذلك ويطلع عليه ولكنه يرى أن استناده على فيلسوف غربى أرفع لقدره وأعظم لعلمه ، وأفيد لكتاباته ، وللأسماء الأعجمية الغربية رنين خاص فى آذان هؤلاء كما جعل لأسماء حكماء الهند وفلاسفة الإغريق رنين خاص فى بعض فترات التاريخ .

والدكتور هويدى ممن يعتمد على المستشرقين فى تحليل الفلسفة الإسلامية ويعتز بما ينقله عنهم ، ويضع آراءهم فى درجة البراهين ، ويفضل إيرادها والاستشهاد بها فى تثبيت النظريات وتقرير الأحكام .

يقول الدكتور هويدى فى كتابه (تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الإفريقية) طبعة ١٩٦٦ ص ٢٧٠ ما يلى :

« يشبه دوزى فى كتابه (تاريخ المسلمين فى إسبانيا) قيام حـركة الخوارج فى المغـرب ونجاحها بقيـام الحـركة الكلفاتية فى اسكتلندا ونجاحها ، وذلك لـما تنطوى عليه كل من الحركتين من انتصـار للمبادىء الديموقراطية فى الدين ، ولمـا أدت إليه كل من الحركتين من تثبت لدعائم الديانة التى أقامت كل منهما فى رحابهـا : الديانة الإسـلامية والديانة المسيحية .

وعلى العكس من ذلك ذهب جوتييه — فى كتابه العصـور المظلمـة للمغرب — إلى أن فى القول بأن حركة الخـوارج ديموقراطية مبالغـة كبيرة . وذلك لأنه « قد يستهوينا القول بأن الأصل فى دعـوة الخوارج أنها كانت غضبة تحركها روح ديموقراطية ديماجوجية ، لكن هذا لن يكون إلا نظرة أوروبية مبالغا فيها إلى هـذه الحركة ، ومنهجا غـير صائب للتعبير عنها ، حقا أننا نلتقى على رأس هذه الحركة فى المدن الكبيرة ، برجال من القاعدة الشعبية ، مثل ميسرة ، أول خليفة خارجى ، الذى كان مجرد سقاء بسيط فى مدينة طنجة فيما يرويه ابن الأثير ... ولـكن هذه الحركة التى كانت ملحمة عسكرية كبرى ، استعانت من غير شـك بقبـائل الزناتية التى طبعت على الحـرب ، وكان أفرادها رعاة سلموا مقاليد أمورهم إلى قيادة أوروستقراطية ، فرجـل مثل « أبو قرة » كان دون أدنى شـك أميرا » .

هنا ينتهى كلام المستشرقين ويعـلق الدكتور على ذلك بقـوله : « لكننا نخالف جوتييه الرأى ونذهب إلى أن حركة الخوارج ديموقراطية فى أساسها ، لأن العبرة بالمبـادىء التى أتت بهـا ، أيا كانت الطبقـة الاجتماعية التى ينتمى إليها رجالها ، وليس هنـاك ما يمنع من اعتنـاق

أمير أوروستقراطى مثل (أبى قره) المبادىء الشعبية الديموقراطية التى نادت بها الخوارج غير أنه إنصافا للحقيقة علينا أن نقرر أن الخوارج وإن كانت المبادىء التى قدموها لنا ذات صبغة ديموقراطية إلا أنهم كانوا متمسكين بعروبتهم إلى الحد الذى جعلهم يحتقرون الموالى وينفرون منهم • وقد روى ابن الحديد فى شرح نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على بن أبى طالب أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية • فقال لها الخوارج فضحتنا وليس من شك أن هذه العصبية لا تتفق مع المبادىء الديموقراطية التى لا تعرف تعصبا ضد أى جنس » •

لعلنا من مناقشة هذا النموذج نستطيع أن نعطى صورة للقارىء الكريم وضح له أسلوب المستشرقين — ومن يسير فى مخططهم — فى معالجة قضايا الشرق ، إذ لا شك أن المستشرقين يناقشون القضايا الإسلامية بموازين خاصة ، ويحاولون أن يخضعوها لمقاييس معينة عندهم يجب — فى رأيهم — أن تنطبق عليها كل الانطباق • وربما يتضح لنا أيضا أن الدكتور هويدى يسلك نفس المسلك ، وفى إمكانك أن تتأمله — فى الفقرات السابقة — وهو يعالج الحركات الإسلامية قبل عشرة قرون ، ويقيسها بالمقاييس الغربية اليوم ، معتمدا فى ذلك على ما كتبه المستشرقون سالكا نفس السبيل التى سلكوها فى التحليل والتعليل وإثبات البراهين • وتأمل تحليل الفقرات السابقة فيما يلى : المستشرق دوزيه يرى أن حركة الخوارج تشبه حركات الكلفاتية لما تنطوى عليه من المبادىء الديموقراطية •

والمستشرق جوتييه يرى أن وصف حركة الخوارج بأنها ديموقراطية مبالغة كبيرة ، ويحتج لرأيه هذا بأن أبا قرة اليفرنى بويع إماما للخوارج وقد كان أوروستقراطيا قبل ذلك •

والدكتور هويدى يقــرر أن الخــوارج ديموقراطيون ، ويرد على المستشرق جوتييه بأنه ليس هناك ما يمنع من اعتناق أمير أوروستقراطى مثل (أبى قرة) المبادىء الشعبية للديموقراطية ، ولكنه مع ذلك يعــود فينفى عن حركة الخــوارج مبــادىء الديموقراطية — إنصافا للحقيقة كما يقول — وذلك لأن الخوارج متمسكون بعروبتهم • والدليل على هذا التمسك أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية فقالوا لهــا فضحتنا والعصبية القومية لا تتفق مع مبــادىء الديموقراطية ومنطلق الفرضية والتحليل فى الفقرات السابقة أن المستشرق دوزى يزعم أن سبب نجاح حركة الخوارج هو كونها تمثل مبــادىء ديموقراطية ولــكن المستشرق جوتييه لا يعجبه هذا الرأى فيرده محتجا بأن فردا أوروستقراطيا قــد انضم إليهم وأن حركتهم كانت فى الشرق ولا ينبغى لنا أن ننظر إليهــا بمنظار غربى فهم إذا ليسوا ديموقراطيين حين سمحوا لأروستوقراطى أن يكون من بينهم • ولحركتهم أن تنبت فى الشرق • ويأتى بعــد ذلك الدكتور هويدى فيرد أولا رأى جوتييه بأن الأروستقراطى قــد يكون تخلى عن أوروستقراطيته واعتنق المبادىء الديموقراطية ولكنه يعــود فينكر على الخــوارج أن يكونوا ديموقرطيين لسبب آخــر هو تمسكهم بعروبتهم ، ويستدل على تمسكهم بعروبتهم أن أحد الموالى خطب امرأة منهم فقالوا لها فضحتنا •

هكذا ترى أيها القارىء الكريم أن بحثا فلسفيا عميقا يتناول قضية هامة هى قضية الديموقراطية فى حركة تاريخية هامة تمتد ما بين الصين والمحيط الأطلسى يناقشها ثلاثة فلاســفة : مستشرقان وعربى — نفيــا وإثباتا — بناء على رأيهم فى فرد واحــد أو بناء على قصــة وردت فى كتاب أدب — يعلم الله مقدار صحتها ولو صحت لمــا كان لهــا أى أثر فى الموضــوع •

إن المستشرق جوتيه يستكثر أن تقوم فى الشرق حركة ديموقراطية ولذلك ينبرى للرد على المستشرق دوزى حين زعم أن حركة الخوارج إنما انصرت لأنها تنطوى على حركة ديمقراطية فى الدين — ويرى أن دوزى أخطأ التقدير لأنه نظر الى تلك الحركة القائمة فى الشرق بمنظار أوروبى مبالغ فيه ، يعنى أنه لو قامت تلك الحركة فى أوروبا لأمكن أن تعتبر حركة ديمقراطية أما وهى فى الشرق فليس ذلك ممكنا لأن الديمقراطية أكبر من تفكير الشرق فى رأى جوتييه ولكى يبرهن عـلى أن تلك الحركة ليست ديمقراطية فتش بين زعماء الخوارج فوجد أن الحركة الخارجية أسـلمت قيادها فى طرف من أطراف الأرض الى رجل أورستقراطى يرجح أنه كان أميرا فكان هذا سببا كافيا لكى نحكم بأن حركة الخوارج ليست ديمقراطية .

فالحركة التى تكونت فى الجزيرة العربية وامتدت شـرقا الى الصين وغربا الى المحيط وعاشت عددا من الأجيال أو عددا من القرون كلها تنهدم فى رأى هذا المستشرق بحادثة بسيطة ، وهى أن قبائل زنانة — وهى قاعدة شعبية — أسلمت قيادها الى أبى قرة الذى يظن أنه أورستقراطى . وبوصول هذا الرجل الى مركز القيادة فى طرف من أطراف الأرض على مجموعة ضئيلة من الناس — فسدت الديمقراطية فى حركة الخوارج على اتساع مداها . مع أن حالة هذا الرجل الذى وصف بأنه أورستقراطى لم يعرف ما إذا كان حقا أميرا ، ولم يعرف ما إذا كان حقا أورستقراطيا ، ولم يعرف ما إذا كان — حين تولى قيادة الخوارج فى طرف من الدنيا — باقيا على أوروستقراطيته أم أنه التزم بالمبادىء الجديده التى اعتنقها والتى اختير للإمارة من أجلها . ثم إنه لم يكن أميراً على الخوارج كلهم . ولا على فرقة كاملة منهم فى جميع أوطانها ، وإنمـا كان عبارة عن رجل تولى قيادة مجموعة من الناس ثائرة على الدولة فى معارك حربية محدودة

حالفه النجاح فى بعضها والفشل فى الأخرى بعد هـذا يأتى الدكتـور هويدى مستعملا نفس المنطق والأسلوب سائرا فى نفس المنهج كأنمـا يترسم خطى مرسومة فيرد على المستشرق جوتييه باحتمال أن يكـون أبو قرة قد تنازل عن أوروستقراطية والتزم بمبادىء الديمقراطية ولم يهتم الدكتور بهذا البناء الضخم الذى يقوم أو ينهار بسبب رجل واحد ، ولم يهتم أيضاً بتلك الطعنة المسمـومة التى تزعم أن مثل هذه الحركـة يحتمل أن تقوم عليها ديمقراطية لو أنها كانت فى أوروبا أمـا وهى فى الشرق فلا ، وبعد أن ينتقد الدكتور رأى جوتييه ويرد عليه كما رأيت ويصف حركة الخوارج بأنها تنطوى على الديمقراطية يعود فينفى أن يكون الخوارج أصحاب ديمقراطية بسبب آخر غير سبب جوتييه وذلك أنه عثر أثناء مطالعاته على قصة فى شرح نهج البلاغة تزعم أن رجلا من الموالى خطب امرأة خارجية فقال لها أهلها لقد فضحتنا ...

ودون أى شرح لهذه القصة . ودون أى تأكيد لصحتها أو كذبها ، ودون أى تعليق على أحداثها يجعلها دليلا على أن الخوارج متمسكـون بعروبتهم والعروبة قومية والقومية ضـد الديمقراطية وهـكذا تـكون هذه القصة عن الفتاة وخاطبها سببا فى إبعاد الديمقـراطية عن حـركة الخـوارج .

أنا لم أتشرف بدراسة الفلسفـة ولكننى كنت أعتقـد أن الآراء الفلسفية لا يمكن أن تبنى إلا على حقائق ثابتة أو على الأقل مؤكدة ، فأى شأن لهذه القصة التى رويت فى كتاب قيل إن أصله موضوع حتى يجعل منها الدكتور هويدى برهاناً على حكم فلسفى .

الخوارج فى ذلك الحين كانـوا منتشرين فى جميع أنحـاء العالم الإسلامى ، وهم يتكونون من جميع الجنسيات المختلفة التى يتكون منها

المسلمون فى مختلف أوطانهم ولهم عدد غير قليل من القيادات منها قيادات تصلة ومنها قيادات منفصلة • ولهم عدد غير قليل فى العادات والممارسات ولم نعرف هذا المولى الذى تجاسر فخطب فتاة خارجية هل هو عربى الجنسية أم له جنسية أخرى ، ولم نعرف أيضاً لماذا غضب أهلها الأن الفتى مولى ؟ أم لأنه غير عربى ؟

فكيف أمكن أن نسلب عن جميع الخوارج نتائج حركة شاملة بسبب كلمة صدرت عن أفراد أسرة إذا صحت الحكاية ؟ أليس من الأسر أن نخرج تلك المرأة وأسرتها من نظام الديمقراطية أو من طابور الخوارج بدلا من أن نلغى حكماً أعطيناه لحركة شملت العالم الإسلامى كله بسبب كلمة صدرت عن فرد أو أفراد ليسوا هذه المرة حتى فى مراكز قيادية ؟

لست فى هذه المناقشة أحاول أن أثبت أن حركة الخوارج كانت حركة ديمقراطية أو لم تكن فهذا موضوع لا يهمنى وليس هذا مكانة • وإنما أردت أن أضع بين يدى القارىء الكريم أمثلة من مناقشات المستشرقين ومن يسير فى ركابهم لبعض القضايا الإسلامية •

فهذا هو منطق المستشرقين فى معالجة القضايا الإسلامية ، وهذا هو منطق من يسيرون فى ركابهم ويتأثرون بخطاهم •

البحث عن التوافه والجزئيات والشواذ ثم تضخيمها وإبرازها وتسليط الأضواء عليها حتى تأخذ المكان الأوضح فى المناقشات عامة ، وحتى يقضى بها على الحقائق الثابتة الأصيلة • حين تبنى أحكام عامة على شواذ الوقائع كأنها هى أصول الحركة أو أصول الحياة •

وقد رأيت فى تطبيق نظرية الديمقراطية الدينية حركة الخـوارج كيف نوقشت بطريقة تكاد تكون هزلية فأثبتها مستشرق لأنها تشبه حركة أخرى قامت فى أوربا ونفاها مستشرق آخر لأنه لا يجوز أن ينظر الى الشرق بالمنظار الذى ينظر به الى أوربا ولأن رجلا — يشك أنه كان أميراً — وصل الى مركز القيادة ، وينفيها متفلسف عربى لأن أهل فتاة عربية ساءهم أن يتقدم الى خطبتها أحد الموالى .

ومن المؤسف أن الدكتور هودى قد تأثر بالمستشرقين الى حد أنه اصطنع أسلوبهم فى الحديث والعرض ، وفى تضخيم التوافه والشواذ ، وفى إغفال الحقائق الواضحة البارزة ومحاولة إخفائها وإذابتها ، وقـد تأثر بهم حتى اللهجة التى يستعملونها ، فهم — بطبيعة الحال — غرباء عن الإسـلام والمسـلمين ، ولذلك فعنـدما يكتبون عنـه أو عنهم ، تلمح أساليبهم ، روح الغربة ، ثم روح التعالى ، ثم روح المقاضـاة والحكم .

وعندما تقرأ للدكتور هويدى تحس بنفس الشعور وبنفس الخطوات كأنك تقرأ لأحد المستشرقين . إنك تستشعر الغربة فعلا فتحس بأن من كتب ذلك هو غريب عن الموضوع وليت أنك تحس بهذا الإحساس وأنت تقرأ له عن الفرق التى سخط عليها فقط لكن الواقع المؤلم أنك تجد هذا فى جميع أجزاء الكتاب حتى وهو يكتب عن « الإسلام السنى » الـذى يريد أن يظهر بمظهر المتمسك به المدافع عنه .

ومن المؤلم أن يقع الدكتور فى هذه الحبالة — حبالة تقسيم الإسلام الى إسلام سنى ، وإسلام شيعى ، وإسلام خارجى — وربمـا توسع متوسعون فيما بعد فقالوا إسلام حنفى وإسلام مالكى ، وإسلام ظاهرى

وغير ذلك من الأسماء أو الأنواع ما دام كل نوع منها يصلح لأن يكون وسيلة سهلة للحصول على شهادة دكتوراه أو ما يوصل إليها •

ونحن نعرف — بوضوح — أهداف المستشرقين الذين ابتكروا هذه التسميات وهذه التقسيمات ولا يزالون يبتكرون حرصا منهم على إظهار الإسلام بأنه فكرة بشرية متأثرة ، وأن المذاهب الإسلامية لا تخرج عن كونها إما محافظة على تلك الفكرة بجمود ، وإما بتعديلات حسب منازع زعماء تلك الفرق •

لقد وقع الدكتور فى هذه الحبالة فاستساغ التسميات والتقاسيم فتشبث بها فى حرص وجعل يرددها فى اعتزاز • حتى أنه فى فصل واحد من كتابه ردد أكثر من عشر مرات بنفس الصيغة التى يستعملها المستشرقون الغربيون وبنفس الأسلوب الذى يوحى بنظرة التعالى والمقاضاة والحكم • والى القارىء الكريم نماذج من ذلك :

يقول الدكتور هويدى فى كتابه لتاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الإفريقية صفحات (١٤١ — ١٥٢) ما يلى :

١ — « يقال الإسلام السنى فى مقابل الإسلام الشيعى ، لأن الشيعة هى الفرقة الإسلامية التى تقابل بالقضاء أهل السنة والجماعة » •

٢ — « سنتناول تاريخ الإسلامى السنى وسنقصد به كل التطور الذى شهده الفكر الفلسفى الإسلامى » •

٣ — « يحسن أن نبدأ بأن نقدم للقارىء مراحل انتشار الإسلام السنى فى الشمال الإفريقى » •

٤ — « نستطيع أن نتخذ من تاريخ خروج عقبة بن نافع الى المغرب

عام ٤٦ وتأسيسه مدينة القيروان نقطة بدء تاريخ الإسلام السنى فى الشمال الإفريقى » •

٥ — « وقدوم هؤلاء الفقهاء الى المغرب وانتشارهم فى ربوعه يفقهون الناس • فى أمور دينهم يعد مرحلة هامة فى مراحل انتشار الإسلام السنى فى الشمال الإفريقى » •

٦ — « وبهذا نستطيع أن نعد ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهرى مرحلة هامة من مراحل انتشار الإسلام السنى فى شمال إفريقيا » •

٧ « ويعد حكم الأغالبة مرحلة هامة فى مراحل استقرار الإسلام السنى فى شمال إفريقيا » •

٨ — « يعد قيام دولة الأغالبة مرحلة هامة فى مراحل استقرار الإسلام السنى فى الشمال الأفريقى » •

٩ — « أما تطور علم الكلام والنزاع الذى شهده التفكير الإسلامى بعد هذا بين الفرق والمدارس المختلفة ، مع ما امتزج بهذا كله من فلسفة وجدل متأثر فى هدا بعلوم الأوائل (علوم اليونان والتيارات الفلسفية اليونانية) فهو وإن كان قد بعد قليلا أو كثيراً عما يمكن أن نسميه بالفلسفة القرآنية إلا أن من الممكن أن نعده مع هذا تطورا للرأى • وامتدادا للإسلام السنى ، وتنشيطاً له ، ومظهرا من مظاهر صحة هذا الإسلام السنى » •

الا ترى معى أيها القارىء الكريم أنك لا تستطيع أن تفهم من الفقرة الأخيرة مما نقلناه هنا ، إلا أن علم الكلام والنزاع بين الفرق

والمدارس المختلفة ممتزجا بعلوم اليونان وفلسفتهم قد بعد عن فلسفة القرآن ، وهو مع ذلك مظهر من مظاهر صحة الإسلام السنى • قد أكون أسأت تلخيص الفقرة السابقة ، ولكنها على أى حال لا تعطى إلا هذا المعنى أو قريبا منه •

أما الفقرة الرابعة مما نقلناه لك فتقرر الإسلام السنى بدأ فى سنة ٤٦ بعد خروج عقبة • فماذا جاء الفاتحون السابقون قبل عقبة ، وفيما ذهبت الدماء ؟ وماذا كانت تصنع الجيوش فى هذه البلاد ؟ وما هو الإسلام الذى جاء به عمرو بن العاص ومن بعده حتى مجىء عقبة ؟ إنك عندما تقرأ الفقرات السابقة بعباراتها الكاملة فى مواضعها من الكتاب تحس أن الذى يكتب ذلك الكلام هو شخص غريب عن الإسلام يتعالى عنه ، ويناقشه كما يناقش أية فكرة بشرية ، ولقد بقى يلعب بما يسميه (الإسلام السنى) فى عشر صفحات من كتابه دون أن تبدو له شخصية إسلامية مرتبطة بالموضوع •ورغم أنه أظهر تعصبا واضحا للمذهب المالكى حتى يكاد يكون الكتاب كله محاولة للدعوة إليه عن طريق الفلسفة ولكنك تحس بنوع من الجفوة الخفية بين الرجل والإسلام وبنوع من الانفصام حتى بينه وبين هذا المذهب الذى يمجده ويكاد يدعو إليه علنا ومظاهر التقرب الى الإسلام عموما والى المذهب المالكى خصوصا لم تفلح فى إخفاء تلك الجفوة أو ذلك البعد وبدت معهما فى صورة متكلفة مصطنعة لكن القلم يكتب عن غير عقيدة صاحبه وفى استطاعتك أن تتأمل العبارة الأخيرة فى الفقرة الأخيرة مما نقلناه لك سابقا (ومظهرا من مظاهر هذا الإسلام السنى) وهى عبارة جافية غليظة كأنما فى الإسلام هذا وذاك وذلك •

إن أى مستشرق معاد للإسلام لا يأمل فى أكثر من أن ينجح فى أن

يدخل الى أذهان المسلمين أمثال هذه المفاهيم ، أو أمثال هذه الأساليب !
وأنه لكسب لأعداء الإسلام أن يتحدث المسلم عن الإســلام بشيء من الجفوة والتعالى مساويا له بآراء البشر • وأن يعتبر المذاهب الإسلامية قد ابتعدت من القرآن الكريم ، وتأثرت وتطورت بما عرفته من عـلوم (الأوائل) ويعنى ذلك أن القرآن غير صالح وأن الـديانة الإسـلامية بمذاهبها المختلفة قد تخلت عنه منـذ زمان وأخـذت بغيره من علـوم (الأوائل اليونان والرومان) وإذا كانت هذه هى الصورة التى يعطيهـا الدكتور عن المذاهب التى يؤيدها بل ويتعصب لها فما يرجى منه أن يقول عن المذاهب التى يحاول هدمها :

إن المستشرقين كانوا يفعلون ذلك عن سوء نية أما الدكتور فقـد يكون فعل ما فعل عن حسن نية وسلامة طوية •

لست أدرى كيف وجد الدكتور هويدى القدرة فى نفســه على أن يقسم الإسلام الى أقسام يهاجم بعضها وينصر البعض الآخر •

الإسلام دين متكامل شامل لا ينقسم تبعا للأهواء والآراء والمفاهيم • ولا تبعا للأشخاص والفرق والمــذاهب • ولكن آراء الناس وأعمالهم هى التى تنقسم بالنظر الى مطابقتها للإسلام ، واستنادها عليه واستمدادها منه • وما أحسب أن انسانا يتقى الله تواتيه القدرة على أن يقوم إسلام سنى وإسلام شيعى ، أو إسلام سنى واسلام بدعى ، أو إسلام شافعى وإسلام مالكى • ولا حتى اسلام محمدى نسبة الى سيدنا محمد ﷺ وهو الذى جاء به عن الله تبارك وتعالى وإذا صحت هذه العبارة الأخيرة — مع ثقلها وغربتها — فإن غيرها لا يصح بكل تأكيد •

ولكن ما الحيلة وأخونا هويدى دكتور فى الفلسفة مــن باريس ، فلابد أن ينظــر الى الإسلام بالمنظار الــذى ينظر بــه إليه فلاســفة المستشرقين .

وبعد هذا كله فإن كتاب الدكتور هويدى صورة مشوهة أخذت فى كتاب « الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى ، للمستشرق الفردبل » . ولو أتيح لذلك الكتاب أن يسترجع ما أخذ منه لما بقى للدكتور هويدى إلا أوراق بيض ، ويتخللها قليل من السواد بين غلافين أخضرين يحملان عنوان الكتاب ... لقباً علميا ضخما لمؤلف ...

عز الدين التنوخى

الأستاذ عز الدين التنوخى • عضو المجمع العربى بدمشق : معروف بجهوده الصادقة فى خدمة الثقافة الإسلامية واللغة العربية ، وقد اهتم — فيما اهتم به — بتراث الإباضية فى المجالين الشرعى والأدبى ، وقد تحدث عنهم بشىء من الإسهاب — والتفصيل ، ويسرنى أن أضع بين يدى القارىء الكريم مقتطفات مما كتب عنهم •

قال فى مقدمته عن ديوان أبى بكر بن أحمد بن سعيد الستالى الذى قام بطبعه الأديبان سليمان وأحمد ابنا شيخنا الفاضل محمد عبد الله السالمى • بالمطبعة العمومية بدمشق سنة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٤ م الصفحة ١٠ • ما يلى :

« ويكفى فى الدلالة على مبلغ جهالتنا بعمان وأهلها ، إن السواد الأعظم من العرب والمسلمين يظنونهم من غلاة الخوارج ، كالأزارقة والنجدات والصفرية • حتى أن ابن خلدون نفسه يقول ما نصه : « والخوارج بها كثيرة ، وكانت لهم حروب مع بنى بويه » • مع أن إطلاق لفظة الخوارج على الإباضية من الدعايات الفاجرة التى نشأت عن التعصب السياسى أولا ، ثم عن التعصب المذهبى ثانيا ، لما ظهر غلاة المذاهب • فقد خلطوا بين الإباضية والأزارقة والصفرية والنجدية فالإباضية لم يجمعهم جامع بالصفرية والأزارقة ومن نحا نحوهم إلا انكار الحكومة بين على ومعاوية •

وأما استحلال الدماء والأموال من أهل التوحيد (والحكم بكفرهم كفر شرك) فقد انفرد به الأزارقة والنجدية والصفرية ، وبه استباحوا

حمى المسلمين ، ولما كان مخالفوهم لا يتورعـون ولا يكلفون أنفسهم مؤنة البحث عن الحق ليقفوا عنده حيث خلطوا بين الإباضية الذين لا يستبيحون قطرة دم موحد بالتوحيد الذى معه ، وبين الذين استحلوا الدماء بالمعصية حتى قتلوا الأطفال تبعا لآبائهم مع أن الفرق كبير جدا بين المستحل والمحرم فما بعد الحق الا الضلال • ومن جهل علمائنا بعمان وأهلها وعلومهم وآدابهم أنهم لم يطلعوا على كتبهم الدينية ، ولا على الفقه الإباضى المبنى على الكتاب والسنة ، ولا على مسند الإمام الربيع بن حبيب ، وسنده ثلاثى عن أبى عبيدة التميمى ، عن جابر بن زيد عن الصحابة وقد أخذ جابر وأبو عبيدة عن الصحابة ، وجابر بن زيد من رجال البخارى ومسلم أخذ عن سبعين من الصحابة البدريين ، وكان من تلامذة حبر الأمة عبد الله بن عباس • وقد طبع هذا المسند القديم مع شرحه للإمام عبد الله السالمى فى أربعة مجلدات ، طبع اثنان منها فى مصر والثالث بدمشق • » وبعد حديث عن أسرة السالمى المجيدة ، وخدمتها للعلم والأدب ، وقيامها على نشر الثروة الثقافية فى عمان قال الأستاذ التنوخى فى نفس الصفحة : « فمن الجهل بعمان وأهلها أنه ليس فى كتب تراجمنا كيتيمة الدهر للثعالبى ذكر لشعراء عمان وبعد أن ذكر الثعالبى شعراء أكثر الأقطار العربية وغيرها ، ذلك أنهم بجهالة المؤرخين بعمان وأهلها ، أو لتعصبهم السياسى والمذهبى ، أهملوا الكلام على مذهبهم وثقافتهم • وانتباه العرب فى أيامنا هذه لعروبتهم ولتاريخهم السياسى والعلمى ولسعيهم لجمع شملهم وإعلان وحدتهم القومية ، كل ذلك مما يوجب البحث عن هذا للشعب العربى الصريح بنسبه ، والمجيد بحسبه ، ومضرب المثل بفصاحته وشجاعته العربية ، وجهاده وكفاحه للمستعمرين » • وجاء فى مقدمته على ديوان النبهانى • صفحة ٢٦ ما يلى :

« وقد نشرت فى دمشق أخيرا بعض هذه الكتب ، كالجزء الثالث

من شرح مسند الربيع بن حبيب ، وهو أقدم كتب الحديث وأصحها ، وشارحه العلامة نور الدين السالمى ، وقد خرجت أحاديث المسند وشرحته وجلها فى الصحيحين وسائر الكتب الستة من كتب السنة • مما يدل على أن مذهب إباضية عمان والمغرب من أقرب المذاهب إلى السـنة كما ذكر ذلك الإمام المبرد فى كامله ، وابن حزم وغيره من المحققين » •

وقال فى مقدمته لكتاب « خلاصة الوسائل فى ترتيب المسـائل » ما يلى :

« لقد حذا أئمة عمان حذو ملوك الإسـلام من العرب والعجـم فى استفتاء علماء بلادهم فى النوازل الطارئة ، والمشاكل المتعلقة بالدين ، فكانوا يجيبون عن الأسئلة التى يسألهم عنها عمالهم من الحكام ، بخط أيديهم ، مما يدل على صدق إيمانهم وإخلاصهم فى الأحكام ، واعتمادهم على الكتاب والسـنة • وكانوا يحثون عمالهم على مراقبة الله فيمـا يصدرونه من أحكام ، مراعين فى ذلك مصالح الرعية ، فإن دين الله يدور مع المصلحة ، ومعتصمين بالكتاب والسنة • وآثار الصحابة والسـلف الصالح وأقوال الأئمـة المجتهدين كـذلك كان المتداعون من الرعية • المختلفون بعمان • يستفتون الأئمة والفقهاء والمتبحرين فى نوازلهـم ، ويثبتون بفتاواهـم ما يدعـون ، فكان يجتمع لـدى الفقيه أو المفتى أو القاضى مع مرور الزمن كثير من الأجـوبة على أسئلة الناس • فتارة كانوا يجمعون تلك الفتاوى المهمة والأقضية فى كتاب خاص • وتـارة كان يجمعها بعض أولاد المفتين أو تلاميذهم كمـا فعل الأمير الفاضل البار السيد صالح بن عيسى بن صالح الحارثى جزاه الله خيرا فى نشر فتاوى جده الإمام المحتسب الشهيد صالح بن على الحارثى المجمـوعة فى كتاب (عين المصالح فى أجـوبة الشيخ الصالح) » •

وبعد هذا تحدث عن عدد ممن سلك هذا المسلك من ملوك المغرب وغيرهم ممن جمع فتاوى المفتين (من مختلف المذاهب) وسلكها فى كتاب اعتبر مرجعا فى تلك النوازل والقضايا ، ثم قال :

« هذا والمطلع على الفتاوى العمانية يجد مصنفها يعتمد بادىء الأمر على كتاب الله ثم على السنة ، وينظر فى أشباه وقائعه التى أفتى فيها المجتهدون من السلف الصالح • وإذا ما وجد فتوى لأحد أئمة السنة كالإمام أبى حنيفة والشافعى وأحمد ومالك والأوزاعى تشبه فتواه استشهد بها تأييدا لفتواه ، واستئناسا بأقوال المجتهدين من قبله • ولولا خشية الإسهاب الممل لأتيت بأمثلة من ذلك •

ومن علم أن علماء الإباضية يرجعون فى الحديث إلى مسند الإمام الربيع بن حبيب الفراهيدى التى يروى أحاديثها أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن الصحابة وأكثر أحاديثه فى الصحيحين وأمهات كتب الحديث — وقد كان الإمام جابر يعد من أكبر تلاميذ حبر الأمة عبد الله بن عباس — وأخذ عن أجلة الصحابة ، ومنهم سبعون بدريا • وقد سأل أحد البصريين عبد الله بن عباس عن شىء فقال له : تسألوننى وفيكم جابر بن زيد • وفى حديث سفيان عن ابن دينار عن عطاء أن ابن عباس قال : لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علما عن كتاب الله عز وجل •

وجاء فى كتاب الجرح والتعديل لابن حاتم الرازى عن ابن خيثمة قال : سمعت يحيى بن معين يقول : أبو الشعثاء جابر ابن زيد • روى عن قتادة أنه بصرى ثقة ، وقد أجمعوا على إمامة

يحيى بن معين وتوثيقه وحفظه وهو الذى يقول عنه أحمد بن حنبل : السماع فى يحيى بن معين شفاء لما فى الصدور ، خلقه الله ليظهر كذب الكذابين . وكل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث . « وقد أخذ عنه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود وخلائق لا يحصون ، والذى يظهر كذب الكذابين يظهر صدق الصادقين ، كأبى الشعثاء جابر ابن زيد إمام الإباضية .

ومما قلته فى مقدمة الجزء الثالث فى شرح الجامع الصحيح مسند الربيع بن حبيب الفراهيدى . ومن أعلم أهل السنة بالإباضية ، وأعظم من كتب (فى علماء للسنة) الإمام المبرد فى كتاب الكامل فقد قال ما نصه :(قول ابن إباض أقرب الأقاويل إلى السنة) وقال الإمام ابن حزم : (أسوأ الخوارج الغلاة ، وأقربهم إلى قول الحق الإباضية) ويقول النور السالمى شارح المسند فى مقدمة تحفة الأعيان وهو من علماء عمان الأئمة : « ليس من رأينا بحمد الله الغلو فى ديننا ، ولا الغشم فى أمرنا ، ولا التعدى على من فارقنا ... الله ربنا ، ومحمد نبينا والقرآن إمامنا ، والسنة طريقنا . وبيت الله الحرام قبلتنا ، والإسلام ديننا » .

لاجرم أن كل من يقول هذا القول . ويعترف هذا الاعتراف ، فهو من المسلمين الناجين ، وكل من يتهم الإباضى بالزيغ والضلال . فهو ممن فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، ومن الظالمين الجهال ، جمع الله ما فرقوا ، ورتق ما فتقوا ، ومزق شمل أعوان المستعمرين ، والله محيط الكافرين » .

وقال الأستاذ التنوخى فى مقدمته على شرح الجامع للصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب ما يلى :

« ومن يمن الطالع عن الحـديث أن يكون الربيعـان : الربيع بن صبيح والربيع بن حبيب فى طليعة ركب الجامعين للديث والمصنفين فيه . ومن الأسف ألا ندرى شيئا عن مصير مسند ابن صبيح ، وعسى أن يهتم بذلك الباحثون عن نفائس المخطوطات ، من لطف البارىء أن أبقى لنا مسند الربيع بن حبيب ، ثم من نعمه على أن وفقنى لإعـادة نشره مع شرح علاقة عمان عبد الله بن حميد السالمى ، ولمـا يطلع على المسـند وشرحه فى علماء مصر والشام والعراق إلا قليل .

الثلاثيات : وقد ذكر أئمـة الحـديث أن رتب الصحيح تتفـاوت تفاوت الأوصاف المقتضية للتصحيح ، وأن المرتبة العليـا ما أطلق عليه بعض رجال الحديث أنه أصح الأسانيد الثلاثية . كسـند الزهرى عن سالم بن عبد الله ابن عمر عن أبيه ، وسـند إبراهيم النخعى عن علقمة عن ابن مسعود ، وسند مالك عن نافع عن ابن عمر ، وهو قول البخارى لأن هذه الأسانيد قصيرة السند ، وقريبة الاتصال بالينبوع ، المحمدى ، واشتهر رجالها بقوة الحفظ والضبط وكمال الصدق والصيانة والأمانة ، وذهب الإمام أبو منصور التميمى إلى أن أجل الرواة عن الإمام مالك بن أنس هو الشافعى فأجل الرواة على ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الشافعى عن مالك ويسمى هـذا المسند سلسلة الذهب .

ويشبه هـذه السلاسل الذهبية سلسلة مسـند الربيع بن حبيب وثلاثياته : أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس . ورجـال هـذه السلسلة الربيعية من أوثق الرجال وأحفظهم . وأصدقهم لم يشب أحاديثها شائبة إنكار ولا إرسال ولا إنقطاع وإعضـال ، لأن الثلاثيات بأجمعها موصولة باتصال إسنادها ، ولم يسـقط فى أسانيدها الثلاثية أحـد . و (المعضل) هو ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالى كقـول

مالك : قال رسول الله ﷺ وقول الشافعى قال ابن عمر ، وقد يورد على قولنا هذا أن فى مسند الربيع البلاغ والسماع مما يجعل الحديث مرسلا ، ويجاب على هذا القول أن رجال هـذا المسند إذا نقلوا عن غير مشافهة بينو ذلك بقولهم بلغنى أو بلغنا ، أو سمعت عن فلان أو نحو ذلك مما يبعد بالمسند عن التدليس ، فهم رحمهم الله اجل واتقى من أن يوهموا الناس السماع وليسوا بسامعين ، وبذلك يظهر أن عنعنة هـذا المسند مقطوع باتصالها ، لأن أبا عبيدة أخذ عن جابر ، وجابر أخذ عن الصحابة مباشرة ، حتى قيل إن أبا عبيدة أدرك من أدركه جابر من الصحابة .

ومن مزايا هـذه الثلاثيات أو السلاسل الذهبية . سهولة حفظها ، وحافظ المسند الثلاثى الرجال ، إذ روى حديثاً من أحاديثه صدره بسنده الثلاثى الذى لا يختلف فى جميع أبوابه ، وحفظ الأحاديث الثلاثية أيسر على المستظهر من حفظ سلاسل طويلة كثيرة الحلقات والرجال ، ولأنه سهل على حافظ الثلاثيات معرفة رجالها لقلتهم . والتثبت من أوصافهم بالحفظ والصدق والأمانة ، أكثر مما يعرفه عن رجال سلسلة عديدة الحلقات قد يوجد بينهم من لا يطمئن القلب بصدقه وديانته ، مما يضعف الحديث ويجعله غير مقبول .

ولمزايا هـذه الثلاثيات اهتم كثير من أئمة الحديث بتأليف الثلاثيات نذكر منها :

ثلاثيات الإمام أحمد بن حنبل المطبوعة أخيرا بدمشق سنة ١٣٨٠ وشرحها فى جزأين الإمام محمد السفارينى ، وعدد ثلاثياته خمسة وستون ومائة حديث .

وثلاثيات البخارى وهى فى صحيحه إثنان وعشرون حديثاً غالبها عن

مكى بن إبراهيم عمن حدثه من التابعين وهم من الطبقة الأولى من شيوخه ، مثل محمد بن عبد الله الأنصارى وأبى عاصم النبيل ، وأبى نعيم ، وخلاد ابن يحيى على بن عباس .

وثلاثيات الدارمى وهى خمسة عشر حديثاً وقعت فى مسنده بسنده وثلاثيات الشيخ أبى إسحاق إبراهيم بن محمد بن محمود بن ناجى وغيرهم . ونضيف اليوم إليها :

ثلاثيات الربيع بن حبيب الأزدى وأحاديثها فى مسنده من أصحها رواية وأعلاها سنداً . ورجال سلسلتها الثلاثية هم :

أبو عبيدة التميمى ، وجابر بن زيد الأزدى ، والبحر عبد الله بن عباس شيخ جابر ، وغيره من الصحابة وهم بأجمعهم مشهورون بالحفظ والضبط والأمانة والصيانة ، وهذا السند لا يختلف فى جميع أبواب المسند كما يختلف فى سائر كتب الثلاثيات .

هذا حكم المتصل من أخبار هذا المسند ، و (المنقطع) بإرسال أو بلاغ فى حكم الصحيح لثبوت وصله من طرق أخرى . وأما (المرسل) فقد جاء فى التدريب (٦٧) عن ابن جرير قال « أجمع التابعون بأسرهم على قبول المرسل ولم يأت عنهم إنكارهم ولا عن أحد من الأئمة بعدهم إلى رأس المائتين . قال ابن عبد البر : كأنه يعنى أن الشافعى أول من رده .

وقال السخاوى فى فتح المغيث : قال أبو داود فى رسالته : أما المراسيل فقد كان أكثر العلماء يحتجون بما فيها فيما مضى . مثل سفيان

الثورى • ومالك والأوزاعى ، حتى جـاء الشافعى فتكلم فى ذلك وتابعه أحمد وغيره » وقل من المشتغلين بالحديث فى ديارنا الشامية • وفى مصر والعراق وغيرها ، من له معرفة برجال هـذا المسند الثلاثة • وكـذلك يحسن بنا أن نعرفهم ولو بإيجاز ، فأول رجال السند هو :

أبو عبيده مسلم بن أبى كريمة التميمى الذى توفى فى ولاية أبى جعفر المنصور (المتوفى ١٥٨) وقد أدرك من أدركه جابر بن زيد ، فروايته عن جابر ، روايه تابعى عن تابعى • وقـد روى أبو عبيدة أيضاً عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وأبى هريرة ، وابن عباس ، وأبى سعيد الخدرى ، وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنها • وروايته هـذه عنهم موجود بعضها فى هذا المسند الصحيح • وهى رواية تابعى عن صحابى •

شيوخه : أخذ أبو عبيدة العلم عمن لقيه من الصحابة وعن الجابرين : جابر بن عبد الله وجابر بن زيد ، وعن ضمار السـعيدى وجعفر السماك وغـيرهم •

تلاميذه : وحمل العلم عن أبى عبيدة خلق كثير منهم الربيع بن حبيب الفراهيدى صاحب هذا المسند ، وفيهم (حملة العلم إلى المغرب) وهم : أبو الخطاب المعافرى ، وعبد الرحمن بن رسـتم ، وعاصـم السدراتى وإسماعيل ابن درار الغدامسى ، وأبو داود القبلى النفزاوى ، وكان الإمام أبو الخطاب المعافرى قـد جاء من اليمن فرافق الأربعة من أهل المغرب فخرج معهم إلى بلادهم فنصبوه عليهم بأمر شيخهم أبى عبيدة • وبأمره نصب الإمام عبد الله ابن يحى الكندى فى أرض اليمن ، وجمعت أمارته اليمن والحجاز • وأقام حملة العلم عنده خمس سنين فلما أرادوا الوداع سأله اسماعيل بن درار عن ثلاثمائة مسألة من مسائل الأحـكام • فقال

له أبو عبيدة : أتريد أن تكون قاضيا مع ابن درار ، قال : أرأيت أن ابتليت بذلك » .

وأما جابر بن زيد الجوفى الأزدى أبو الشعثاء (٩٣ هـ) أصل المذهب فى عمان والمغرب ، وصاحب عبد الله بن عباس ، فقد كان أشهر من صحبه وقرأ عليه ، وذكر أبو طالب المكى فى كتابه (قوت القلوب) أن ابن عباس قال : أسألوا جابر بن زيد ، فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه . وقال إياس ابن معاوية : رأيت البصرة وما فيها مفت غير جابر بن زيد . وقال الحصين : لما مات جابر بن زيد وبلغ موته أنس ابن مالك قال : مات أعلم من على ظهر الأرض . ولما مات جابر ودفن قال قتادة : ادنونى من قبره ، فأدنوه فقال : اليوم مات عالم العرب ، وعن ابن عباس قال عجبا لأهل العراق كيف يحتاجون إلينا وعندهم جابر بن زيد لو قصدوه لوسعهم علمه . شيوخه وتلاميذه والذين حمل عنهم العلم ، أو حملوه عنه : أولهم وأخصهم به عبد الله بن عباس . فقد أكثر من الحمل عنه وعبد الله بن عمر .

وممن أخذ عنه : قتادة ، وعمرو بن دينار وأيوب وخلق .

وإذا تأمل الإنسان روايات هذا المسند وجده يروى عن كثير من الصحابة وإذا كان عدد من لقيهم من أهل بدر بلغ سبعين رجلا فما ظنك بمن لقيهم جابر بن زيد من سائر الصحابة ، وأشهر أصحابه الراوين عنه : أبو عبيدة ، ومنهم ضمام بن السائب ، وأبو نوح وحيان الأعرج ، وكلهم من الفقهاء المجتهدين ، وناهيك قوله : أدركت سبعين رجلا من أهل بدر فحويت ما بين أظهرهم إلا البحر .. (ابن عباس . شرح المسند . أما شارح هذا المسند فمن الحق أن نلم من ترجمته بما يصور حقيقته

ويبين منزلته بين العلماء المحققين • فهو الشيخ نور الدين أبو محمد بن حميد بن سلام بن عبيد بن خلفان ابن خميس السالمى الضبى (١٢٨٦ — ١٣٣٢) انتهت إليه رئاسة العـلم بعمان وظهر ذلك فى تآليفه الجمـة فى مختلف الفنون الشرعية والعربية مع التحقيق فى مسائلها والإجـادة من تآليف كتبهـا ورسائلها •

صـفاته : كان رحمه الله ضريرا قوى الذاكرة والذكاء ، شـديد اليقظة على تطورات قومه بعمان ، فقد عمل كثيرا على إعادة الإمامة إلى القطر العمانى الذى قلما عرف الملكية قديما إلا فى ظروف شاذة ، كما وقع على عهد بن نبهان فى عصر ابن بطوطة •

ولم يكن يكتم ميوله وآراءه فى الإمامة عن السلطان فيصل بن تركى سلطان عمان ، ولكنه لم يجد منه انقيادا إلى إعلان الإمامة بدسائس الإنجليز الذين يتحينون الفرص للانقضاض على أقطار الخليج العربى ، ومطامعهم فى جزيرة العرب ، ونفطها ومعادنها لا تحتاج الى تعريف •

وما زال هذا العالم العامل يعمل على بث الدعاية للإمامة لا تأخذه فى الله لومة لائم ، ولا يخشى فى إعلان الإمامة سطوة غاشم ، حتى بدت للعلماء المساعى البريطانية ، لحمل سلطان مسقط على الاعتراف بالحماية البريطانية • فأسلس العلماء القياد للنور السالمى ، شارح هذا المسند ، وأعلنوا الإمامة بمبايعة الإمام التقى العلامة (سالم بن راشد الخروصى) وبذلك نهض المترجم له ببلاده وأقصى عنها خطر الاستعمار ، وما فى عمان اليوم من علماء إلا وهم تلاميذه ، ولا فيهم من روح قـوميته مقاومـة للمستعمرين إلا منه ، فهو مضرم نارها وملهب أوراها ، وأن الإنسان ليعجب كيف استطاع أن يؤلف تلك المكتبة فى عمره القصير وهو لم يبلغ الخمسين •

فهو فى قصر عمره وكثرة كتبه نظير شيخنا الجمال القاسمى بدمشق رحمهما الله .

ومن تلك الكتب :

١ — تحفة الأعيان فى تاريخ عمان جزءان طبع أولهما فى مصر .

٢ — الحجيج المقنعة فى أحكام صلاة الجمعة ، طبع بهامش شرح شرح طلعة الشمس فى أصول الفقة .

٣ — شرح المسند الصحيح للإمام الربيع بن حبيب الفراهيدى من أئمة القرن الثانى فى أربعة أجزاء طبع الأول منها بمطبعة الأزهار البارونية والثالث بالمطبعة العمومية بدمشق فى هذه السنة » .

٤ — سواطع البرهان : رسالة فى تطورات العصر فى اللباس جواب لسؤال بعض أهل زنجبار .

٥ — مدارج الكمال : أرجوزة فى الفروع الفقهية تنيف عن ألفى بيت وهو نظم مختصر الخصال للإمام أبى إسحاق الحضرمى — مطبوعة .

٦ — معارج الآمال : شرح لهذه الأرجوزة وهى تنبىء عن غزارة علمه ورسوخة فى علم الشريعة ، قيل إنه يبلغ ستة عشر جزءا .

٧ — غاية المراد ، أحد متون أصول الكلام .

٨ — مشارق أنوار العقول ، شرح أرجوزته فى أصول الدين شرحها شرحا وافيا عد بها من أحسن كتب الأصول تحقيقا وتحريرا وتنسيقا طبع مصر .

٩ — أنوار العقول ، أرجوزة فى أصول الدين تزيد على ٣٠٠ بيت •

١٠ — بهجة الأنوار : شرح أنوار العقول طبع بهامش طلعة الشمس •

١١ — طلعة الشمس : ألفه فى أصول الفقه جدير بأن يعد من أنفس كتب الأصول •

١٢ — جوهر النظام : أرجوزة فى الأديان والأحكام الشرعية والحكم وهى فى بضع عشر ألف بيت مطبوعة •

١٣ — بلوغ الأمل : أرجوزة فى أحكام الجمل الثلاث فى الإعراب نفيسة جدا •

١٤ — الفتاوى العمانية : فى سبعة أجزاء منها كتاب حل المشكلات •

١٥ — رسالة تلقين الصبيان لمدارس عمان وقد طبعت بدمشق بالمطبعة العمومية هذه السنة بإشرافنا وهى رسالة مفيدة للصبيان والرجال معا •

١٦ — المنهل الصافى فى العروض والقوافى أرجوزة تزيد على ٣٠٠ بيت •

وإذا اطلع المنصف على هذا الشرح ، وجد الشارح واسع الاطلاع ، وألفى شرحه واضحا مبينا ، وتعابيره صحيحه فصيحة ، أسلوبها المساواة • فلا هى مهوبة مملة ولا مفرطة الإيجاز مخلة — وأما أبحاثة فيها فإنها تدل على اعتدال فى التحقيق وبعد عن التعصب ، فكثيرا ما ينقل عن العلماء المخالفين كالحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة • ويستشهد بأحاديث

الشيخين وأئمة الحديث كأبى داود الترمذى والنسائى وابن ماجة والدار قطنى والطبرانى والبيهقى وغيرهم من أهل السنة والجماعة ، مما يدل على أن الإباضية فى المشرق والمغرب مذهب قريب من مذاهب السنة .

والناظر فى شرح النور السالمى عالم عمان ، يمتلىء طمأنينة بما ذكرته ، وقلما رأينا من رجال المذاهب غير السنية من يستشهد برجال الحديث والفقه من أهل السنة هذا الاستشهاد فقد ورد (١) .

وما آثرت تخريج أحاديث المسند والشرح — ولا سيما ما رواه الشيخان — إلا لتطمئن قلوب إخوانى أبناء السنة بأن مسند الربيع الذى بنى عليه المذهب الإباضى هو صحيح الأحاديث ، وأكثرها مما جاء فى الصحيحين ، وجابر بن زيد ممن روى عنهم البخارى وغيره ، لكيلا يقع فيما وقع فيه خصوم الإباضية أو من لم يعرف حقيقة مذهبهم وعقيدتهم فيظنهم من الخوارج الغلاة كالأزارقة والنجدية والصفرية المانعين لموارثة ومناكحة مخالفيهم .

ومن أعلم أهل السنة بالإباضية وأعظم من كتب عن الخوارج الإمام المبرد فى كتابه الكامل فقد قال ما نصه : « قول ابن إباض أقرب الأقاويل الى السنة » .

وقال ابن حزم : « أسوأ الخوارج حالا الغلاة وأقربهم الى قول أهل الحق الإباضية » وابن إباض هو عبد الله بن إباض المرى التميمى الذى عاصر معاوية وعده الشماخى فى السير من التابعين ، وكان من أتباع

(١) والعكس صحيح اى ان رجال المذاهب الأربعة قلما يستشهدون بأقوال غيرهم الا فى مقام التشنيع او النقد او الرد .

الإمام جابر بن زيد مؤسس المذهب الإباضى ، ولو نسب المذهب الإباضى الى جابر بن زيد تلميذ ابن عباس ، كان فى رأيى أصح علما ، واصــدق نسباً .

وإليك ما يقوله الشارح المعتدل المنصف فى مقدمة (تحفة الأعيان) « وتدعو الى كتاب الله ومعرفة الحق وموالاة أهله ، فمن عرف الحق وأقر به توليناه ، وحرمنا دمه ، ومن أنكر حق الله منهم ، واستحب العمى على الهدى ، وفارق المسلمين ، وعاندهم ، فارقنـاه وقاتلناه حتى يفىء الى أمر الله ، أو يهلك على ضلالته من غير أن تنزلهم منازل عبـدة الأوثان ، فلا تستحل سباياهم ، ولا قتل ذراريهم ، ولا غنيمة أموالهم ، ولا قطـع الميراث منهم (كغلاة الخوارج) ولا نرى الفتك بقومنا ، ولا قتلهم فى السر وإن كانوا ضلالا ، لأن الله لم يأمر به فى كتابه ، ولم يفعله أحد من المسلمين ممن كان بمكة بأحد من المشركين ، فكيف نفعله نحن بأهل القبلة ، ونرى أن مناكحة قومنا ، وموارثتهم لا تحرم علينا ، ما داموا يستقبلوا قبلتنا ، ولا نرى أن نقذف أحدا ممن يستقبل قبلتنا بما لم نعلم أنه فعله ، خلافا (للخوارج) الذين يستحلون قذف من يعلمون أنه برىء من الزنا من قومهم ، وهم بذلك مضلون » . فالإباضية اليوم فى عمان والمغرب من بقايا الخوارج المعتدلين ، والمتمسكين بالكتاب والسـنة . وقال النـور السالمى أيضا « ليس من رأينا ــ بحمد الله ــ الغلو فى ديننا ، ولا الغشم فى أمرنا ، ولا التعدى على من فارقنا .. الله ربنا ، ومحمد نبينا ، والقرآن إمامنا : والسنة طريقتنا ، وبيت الله الحرام قبلتنا ، والإسـلام ديننا » ولذلك يحرم على المسلم اتهام أخيه المسلم فى دينه بعد هـذا الاعتراف فيكون من المتألين ، الذين يسارعون فى تكفير المسلمين وهم الذين عناهم النبى ﷺ فى قوله : (ويل للمتألين من أمتى) أى الذين يحكمون على الله بقولهم فلان فى الجنة وفلان فى النار .

ويفهم من شرح هذا المسند أن الشارح من المتمسكين بالحديث الصحيح ، وأرباب العقل الراجح ، والمعظمين لرسول الله ﷺ وأقواله ، والمهتدين بسنته وأفعاله ، فهو فى شرحه لهذا المسند يمحص أقوال العلماء ، ويختار على أقوال أهل المذهب ما صح من حديث الرسول ﷺ فليس هو ممن يرى (العمل على الفقه لا على الحديث) قال شارح (الصراط المستقيم) : « إذا وجد تابع المجتهد حديثا صحيحا مخالفا لمذهبه هل له أن يعمل به ويترك مذهبه ؟ فيه اختلاف ، فعند المتقدمين له ذلك . قالوا : لأن المتبرع والمقتدى به هو النبى ﷺ ، ومن سواه فهو تابع له فبعد أن علم وصح قوله ﷺ فالمتابعة لغيره غير معقولة » .

قلت ولذلك لا يجوز التعصب للمذاهب تعصبا يستهتر به بحديث الرسول ﷺ فإن ذلك من الفسق ، والبعد عن الدين ، والخروج على سيرة الصحابة والتابعين .

ومن هؤلاء الجاحدين المتعصبين كما يقول بعض الأئمة — من إذا مر عليه حديث يوافق قول من قلدوه انبسطوا ، وإذا مر عليهم حديث يخالف قوله ، أو يوافق مذهب غيره ، ربما أنقبضوا ولم يسمعوا قول الله تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكمون فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .

هذا وما كان أهل عمان أقرب فرق الخوارج الى أهل السنة إلا لأن مذهبهم كما اطلعت عليه مبنى على السنة ، وتقديم العمل على الحديث لا على الفقه . والمذهب عملا بما جرى عليه إمامهم جابر بن زيد الذى عمل بنصيحة شيخه عبد الله بن عمر الذى روى عنه فقد جاء فى (الحجة البالغة) أن ابن عمر رضى الله عنه قال لجابر بن زيد « إنك من فقهاء

البصرة ، فلا تفت إلا بقرآن ناطق ، أو سنة ماضية فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت » .

ولذلك نعتقد ونقول : إن المعقول ، ومن القلب المقبول ، ألا نهتدى إلا بقوله تعالى : « فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » .

مع إبراهيم عبد الباقى

من قرأ كتاب الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقى (الدين والعلم الحديث) يبدو له واضحا أن الأستاذ إبراهيم كاتب نزيه حريص على وحدة الأمة المسلمة ، يحارب بقوة كل ما يحرك الفتن ، ويسيب الفرقة ، كما يحارب بقوة وبصيرة تلك البدع المنكرة التى انحرفت بسلوك المسلمين ، وضللت عقائد البسطاء منهم ، وربما أزاغتهم أحيانا عن معنى التوحيد الخالص .

وقد تحدث عن الإباضية فى كتابه القيم ، ويسرنى أن أضع بين يدى القارىء الكريم ما قاله الأستاذ إبراهيم عبد الباقى ص ٢٥٢ من كتابه الدين والعلم الحديث :

(طرف من عقائد الخوارج)

« لقد شاع فى المسلمين أن جميع الخوارج غير مسلمين ، ولكن الناقد البصير لا يصح أن يجرد البعض من الإسلام ، لأنهم فى خروجهم على مذهب لهم فيه تأويل ، ومنهم عبادة وزهاد ملأوا بطون الكتب بورعهم وتقواهم ، هذا ولما كان الوقت شحيحاً يضن على بالبحث عنهم والتنقيب اتصلت بمن له خبرة بهم ، وهو زعيم طائفة منهم تسمى الإباضية » .

هذا الزعيم يسمى أبو إسحاق إبراهيم طفيش موظف بدار الكتب المصرية فكفانى مؤنة البحث ، وكتب الكلمة الآتية » .

بعد هذه المقدمة البسيطة نقل الأستاذ إبراهيم الفصل الذى كتبه له

الإمام أبو إسحاق طفيش عن الخوارج وسوف نجده ضمن فصول هذا الكتاب تحت عنوان (نبذة عن الخوارج) •

وبعد هذا الفصل قال الأستاذ إبراهيم عبد الباقى ما يلى :

يريد الأستاذ — أى أبو إسحاق — بالمذاهب المتعفنة أن كل طائفة متشبثة بمذهبها ، ولو كان الحق مع مذهب غيرها ، وهذه آفة القديم والحديث ، إذ أن الحق أحق أن يتبع ، والمنصف يسير مع الحق حيث سارت ركائبه ، وكان عمر رضى الله عنه ينظر فى الحكم فإن كان فى كتاب الله قضى به ، وإن لم يكن فى كتاب الله نظر فى السنة فان لم يجده فى السنة جمع رجال الدين ، فإذا اجتمع رأيهم على شىء قضى به •

أما الآن فقد خالف الناس ، واتبعوا المذاهب وإن كان ذلك مخالفا للسنة هذا وقد أخبرنى الأستاذ أبو إسحاق بأن مذهب الإباضية أكثر انتشارا فى جنوب الجزائر فى (وادى ميزاب) وفى تونس (فى جزيرة جربة) وفى ليبيا فى (جبل نفوسة) وفى (زنجبار وعمان) باليمن حيث يوجد نظام الإمامة المطابقة فى بيعتها لبيعة الخلفاء الراشدين » [١] •

بعد هذا التعليق البسيط ينقل الأستاذ إبراهيم عبد الباقى مقتطفات من مقال للأستاذ مصطفى الشكعة سوف ننقله لك ضمن فصول هذا

---

(١) آخر بيعة فى هذا النمط باجماع الأمة كانت سنة ١٣٣٨ هـ للامام ابى عبد الله محمد بن عبد الله الخليلى وقد سار بالامامة على منهج العدول فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . ولما توفى اجتمع أهل الحل والعقد سنة ١٩٤٥ م على بيعة الامام غالب بن على ولكن مكائدات الاستعمار الانجليزى ادخلت اصابعها الى عمان ففوضت أركان الامامة ، وأخرجت الامام من عمان .

الكتاب ، وبعد أن انتهى الأستاذ إبراهيم من الاستشهاد بمقال أبى إسحاق والشكعة قال :

وقد تصفحت من كتبهم ما يأتى :

أولا : جوهر النظام فى علمى الأديان والأحكام للإمام نور الدين أبى محمد عبد الله بن حميد بن سلوم السالمى العمانى رحمه الله وله تعليق عليه ، ولد سنة ١٢٨٦ هـ وتوفى سنة ١٣٣٢ هـ .

ثانيا : شامل الأصل والفرع لمحمد بن يوسف أطفيش .

ثالثا : جامع أركان الإسلام للشيخ العلامة سيف بن ناصر بن سليمان الخروصى طبع أول مرة بمطبعة الآداب سنة ١٣٣١ هـ .

رابعا : مشارق أنوار العقول . طبعة السيد حمودة بن محمد بن سعد سلطان زنجبار بمطبعة المحروسة سنة ١٣١٤ هـ .

خامسا : الوضع المختصر فى الأصول والفقه تأليف الإمام ابن زكرياء يحيى بن أبى الخير الجناونى رحمه الله تعالى نشره وعلق عليه الأستاذ أبو إسحاق إبراهيم طفيش طبع بمطبعة الفجالة الجديدة .

وقد استنتجت من هذه الكتب ما يأتى :

أولا : التنزيه المطلق لله تعالى ، ويوجبون تأويل المتشابه بما يليق بجلال الله تعالى كاليد تؤول بالقوة وتارة بالنعمة ، فمذهبهم مذهب الخلف فى المحكم والمتشابه .

ثانيا : لا يرون رؤية الله تعالى فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهـذا من كمـال اللـه تعـالى ، لأن الرؤيـة تسـتدعى مشـابهة الله لخلقه ، وكـذلك يسـتدلون بالآية الشريفة : (لا تدركه الأبصـار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) •

وما جاء فى السنة لا يعارض القرآن الكريم ، لأنه خبر الآحـاد ، وخبر الآحاد لا يفيد إلا الظن ، والظن لا يصح دليلا على صحة العقائد ، ويفسرون الحجب فى الآية (كلا إنهـم عن ربهـم يومئذ لمحجوبون) بأنه غير الرؤية •

ثالثا : يرون أن صفات الله تعالى ذاتية ليست قائمة بمعان قائمة بذاتـه •

رابعا : لا يكفرون أحدا من أهل القبلة إلا إذا أخـل بالاعتقـاد الإسـلامى ، كإنكار ما علم من الدين بالضـرورة ، كأن ينكر إنسـان صفة من صفات اللـه تعـالى أو نبيـا من الأنبيـاء أو حـرفا من القرآن الكريم •

خامسا : يرون أن القراءات السبع متواترة •

سادسا : يعرفون المذهب الاجتهادى بقولهم : المذهب هو ما استبان به لكل فرقة عن الأخرى فى الفروع التى لا تأثيم فيها ، فحـرية الرأى وحرية المذهب مكفولة ، وأن الخـلافة لا تكون إلا من أهـل الحـل والعقـد •

سابعا : أن مرتكب الكبيرة عندهم ليس مشركا ، وأن أهل الجنـة خالدون فيها ، وأهل النار خالدون كذلك ، فهم يخالفوننا فى عقيدتنا ، وهو أن العاصى من المؤمنين يدخل النار حتى يطهر من معصيته ، لأن المعاصى رجس ، والجنة طاهرة فلا يدخلها إلا الطاهرون .

ثامنا : يخالفوننا فى بعض فروع الفقـه ، مثل رفـع اليدين عند التكبيرات فى الصلاة ، ومثل وجوب سجدة التلاوة حين سماع الآية ، وغير ذلك من المسائل التى لم تكن موضع إجماع .

مع الأستاذين · التنوخى وإبراهيم عبد الباقى

لقد عرضت عليك أيها القارىء الكريم ما كتبه كل من الأستاذين الفاضلين : عز الدين التنوخى ، وإبراهيم محمد عبد الباقى عن الإباضية ، ونقلته لك بنصه ، وذكرت أيضا أن هذا المنهج الذى سارا عليــه هــو المنهج السليم الذى يجب أن يسلكه من يريد أن يكتب عن أى فرقة · وذلك بأن يتصف بالنزاهة والتجرد ، وأن يتحلى بالصدق والأمانة ، وأن يعتمد — فى تقرير آراء وعقائد أى طائفة ونسبتها إليها — على كتبهـا ومراجعها وعلمائها لا على ما يكتبه عنها غيرها · لأن ذلك الغير فى أغلب الأحوال يقف منها موقف الخصــوم ·

ومن هذه الأسس يســتطيع الكاتب أن يعرض الحقيقة ، حقيقة ما يعتقده أصحاب الفرق ويقولونه ، ويدينون به دون تحريف أو تدليس أو غموض أو إيهام مقصــود ·

وقد سلك الأستاذان التنوخى وإبراهيم هذا المسلك السليم وهما يكتبان عن الإباضية · فرجعا إلى مصــادر الإباضية · وبــذلك جاءت كتاباتهما ســليمة من السفاسف والأباطيل التى تجــدها عنــد كثير من كتاب المقالات الأقدمين منهم والمحدثين · كما جاءت كتاباتهما سليمة — أيضا — من الفراغ والخــواء الذى تحسه وأنت تقرأ لبعض الكتــاب المقلدين الذين يعتمدون على ما يجدونه دون فهم أو تمحيص أو بحث عن الدوافع والبواعث اكتفاء بإسناد ما يقولونه إلى مصادر تاريخيــة تاريخية أضفى عليها القــدم ثوب القداســة ، ليتخلصوا من مسئولية إعــلان كلمة الحــق ·

وبالرجوع إلى ما كتبه الأستاذان الفاضـلان ونسباه إلى الإباضية مما سبق عرضه على القارىء الكريم يبدو أنه لا يوجـد شىء عندهما يحتـاج إلى مزيد من النقاش والبحث غـير نقطة واحـدة جانبية • تلك النقطة هى انسياقهما وراء التيار التاريخى الجارف الذى يصر على اعتبار الإباضية فرقة من فرق الخوارج •

ونحن لا نلومهما ـ فى موقفهما هذا ـ ولا نعتب عليهما ، فقـد استطاع التدليس التاريخى أن يصبغ هذه الدعوى الكاذبة بثوب الحقيقة حتى انطلت على بعض الإباضية أنفسهم فى القديم وفى الحديث •

بل لقد حدثنى بعض الشباب عن تخصص فى التاريخ بأنه يفتخر بذلك ويعتز ، لأنه يفهم أحداث ذلك العصر ويفسرها بروح هذا العصر • فكان يعتبر الخوارج طلائع ثورية ، يمثلون الدور الثورى على الظـلم والفساد والرشوة ، وهو بهذا الفهم يعتز بأن يكون خارجيا أو ينتمى إلى فرقة خارجية ، بمعنى أنه ينتمى إلى فكرة ثورية تحمل فى مسيرتها التاريخية نضالا ضد فساد الحكم لا يهدأ ولا يستقر •

وهذه الصورة الثورية التى يعجب بها هذا الشاب وزملاؤه وإضرابه من الشباب الذى أثارت نقمتهم الأوضاع الفاسدة فى أنظمة حكم فاسد جثم على صدر الأمة بكلكلة الثقيل ، ثم محاولة التخلص منه •

هذه الصورة ليست فكرة مقصورة على الخوارج أو على الإباضية أو على فرقة معينة من فرق المسلمين •

إن الثورة على الظلم والفساد والرشوة وما يتبع ذلك من البلايا

والمحن ، إنما هو المنهج الذى جاء به الإسلام ، ودعا إليـــه المسلمين ، ودعا المسلمون إليه • وقاموا به فى مختلف أدوار التاريخ ، ولم تسكت الألسنة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر ، ولم تكف الأيدى الثائرة فى أى فترة من فترات الحكم المنحرف •

ولم يمض حاكم ظالم دون أن تناله صفعات مؤلمـــات من الثائرين فى الأمة المسلمة من جميع الفرق والمذاهب ، حتى من أتباع الأئمة الذين ينهون عن استعمال العنف ، ويحـــذرون من الفتنة ، ويفضلون استبداد الحاكم على شق عصا الطاعة ، وأحـــداث الخلاف والتسبب فى إراقـــة الدماء • ويتغاضون عن الدماء التى تريقهـــا أيدى الحكام الظلمة ولكنهم لا يسكتون عن الدماء التى تريقها النقمة ضد أولئك الحكام •

تستطيع أن تبدأ ملاحظـــة ذلك من أول العهـــود التى بدأ فيهـــا الحكام ينحرفون عن نظام الخلافة الرشيدة إلى ملكية مستبدة ، أو كما سماه الرسول صلى الله عليه وسلم « ملك عضـــوض » ولو أن أولئـــك الملوك لم يسموا أنفسهم ملوكا ، وحافظـــوا على مظهر التسمية فكانوا حراصا — على مجرى التاريخ — أن يدعوهم الناس بأمـــراء المؤمنين أو أئمة المســـلمين •

والإباضية مثل غيرهم من المسلمين فى هذا المجـــال • كانـــوا من أشد من ينتقد تصرف المنحرفين ، ويطالب ولاة الأمور أن يتقيدوا بأحكام الإسلام ، وأن يقتدوا بالخلفاء الراشدين الذين أرضوا الله تبارك وتعالى وأرضوا الأمة فرضيت عنهم •

ويتضح لأولئك الإخوة الشباب من هذا انتقـــاد الإباضية للتحكم

الظالم ، ومحاولتهم الإطاحة به فى بعض الأحايين • وعملهم على إيجاد دولة ، تطبق أحكام الإسـلام ، وتتقيد بها ، وتشـددهم فى مجابهـة العدوان ، ومعارضته بقوة وعنف !

كل هـذا لا يلحقهم بالخـوارج ، ولا يجمعهم معهـم فى صعيد واحـد ، ولا يجعلهم فرقة منهم •

وفى المسلمين ــ بمختلف طوائفهم ومذاهبهم وآرائهم ، ولا سيما فى عهد الدولة الأموية حينما كان انتقـال الحكم من خلافة رشيدة إلى ملك عضوض ، قد سبب فجوة عميقة ، أو هوة خشى المسلمون أن يتردوا فيها ثم يعسر عليهم الخروج منها ــ أمثلة حية واضحة لكثير من التابعين وتابعى التابعين ، بل ومن بقية الصحابة رضـوان الله عليهم • فقـد كانوا من أقوى الثائرين على الفسـاد الذى بدأ بانحـراف الحكم عن الخلافة الرشيدة إلى ملك عضوض يتقاتل عليه أصحاب الدنيا • وقـد استشهد فى هذا السبيل عدد من أفذاذ الرجـال ، ومع ذلك لم يسموا أنفسهم خوارج ، ولم يعتزوا بـذلك الاسم ، ولم يشرفهم أحـد فى أتباعهم والمعجبين بهم بهذا الاسم ، أو يطلق عليهم هذا اللقب •

ويكفى أن أذكر الأمثلة لأولئك الثائرين على الانحـراف والفساد شهيد كربلاء الإمام الحسين سبط رسـول الله صلى الله عليـه وسلم وعبد الله بن الزبير نجل ذات النطاقين ، وسعيد بن جبير وزيد بن على ابن الحسين • وكل واحـد من هـؤلاء يمثل ثورة عارضة من الأمـة المسـلمة على الحـكم الظـالم ، والخـروج عليـه ، ومدافعته حتى الاستشهاد •

وإذا شاء القارىء الكريم أن يضيف إلى هـذه القائمـة أسـماء الثوار الشهداء الذين سالت دماؤهم على سيوف الحكم المستبد ، والذين نجحوا فى ثوراتهم أو فشلوا فإنه يستطيع أن يمـلأ المجلدات الضخمة بما جـرى من ذلك عبر التاريخ • ويأخـذ الإباضية أو بعض الإباضية حيزهم الضيق أو الواسـع فى تلك المجلدات ، ولا يمكن أن يخلو منهم مجـلد •

ومن البديهى أن أولئك الثوار ابتداء من سيد الشـهداء الإمـام الحسين ومن سار على نهجهم فى مختلف العصور ــ لم يحملهم التطرف ، والسخط على فساد الحكم ، إلى مخالفة أحكام الإسلام ، فيستحلون من الناس ما حرمه الإسلام ، وعصمته كلمـة التوحيد من دماء وأمـوال وأعراض •

هذه النقطة بالذات ــ وهى التطرف فى السخط حتى تستحل بـه الدماء البريئة ، والأموال المعصومة ، والأعراض المصونة بحكم الله ــ هى الفـارق الوحيـد بين الثورية والخارجية • إذا سمحنا لأنفسـنا فاستعملنا كلمة الثورية ــ بمدلولها المعـاصر ــ على أحـداث التاريخ فى تلك العصـور •

فإن عبد الله بن الزبير ــ مثلا ــ كان قد ثار على الحكم الأمـوى المنحرف وكان الحكم قائما عندما ثار ابن الزبير فخرج عن الطاعـة كما تعبر ألسنة الأنظمة الحاكمة فى كل عصر وكل عهـد ولكنه مع خروجـه على حكم الدولة القائمـة ، لم يعتبر خارجيا ، ولم يسم نفسـه بهـذا الاسم ، ولم يسمه اتباعه بذلك ، ولم يتجرأ أحـد مـن خصـومة أن

يصفه بذلك فى ذلك الحين . فلماذا لم يكن ذلك يا ترى ؟ ذلك أن اطلاق لفظة الخوارج إنما كانت تعنى من يخرج على نظام قائم فلا يكتفى بمحاربة النظام القائم — سواء كان عادلا أو جائرا — وإنما يضيف الى ذلك أن تستحل دماء وأموال ، وحرمات من يخالفه ، ويحكم عليهم بأحكام المشركين ، ويطبقها عليهم ما تمكن من ذلك . ولم تكن هذه الآراء ولا هذه السيرة لعبد الله بن الزبير مثلا ولذلك فنحن قد نستطيع أن نعده فى موكب الثائرين ، ولكننا لا نستطيع أبداً أن نعده من الخوارج ، لأنه — ببساطة — لم يكن يدين بدين الخوارج فلم يكن يحكم على غيره من المسلمين بالشرك ولم يكن يستحل منهم : لا الأموال ولا سبى النساء والأطفال ، ولا دماء من لم يعترض سبيله ويرفع فى وجهه السلاح . وإنما كان يرى أن المسلمين جميعا أخوة له ، فهو يقتصر فى ثورته على محاربة الحكم الظالم ، والجيش الباطش ، ومن يسعى الى تثبيت أركان الظلم .

ونفس الموقف نستطيع أن نعطيه لبقية الثائرين فى أدوار التاريخ الإسلامى الطويل وفى عهود الفساد والظلم . فلم يتلقب أحد منهم بذلك ، ولم يلقبهم به أحد من الناس ، لهذا الفارق الوحيد فحسب . ويدخل فى هذا الجانب حتى أولئك الذين خرجوا على الحكم وثاروا عليه ولم يكن قصدهم الحقيقى هو إزاحة الظلم ولكن الوصول الى الحكم ما لم يدينوا بذلك المبدأ الذى يضع المسلمين فى صفوف المشركين ويبيح منهم ما حفظة الله لهم بكلمة الشهادة .

إن الثورة على الظم والظالمين ومحاربة الفساد فى أنظمة الحكم ، أهم واجبات المسلم ، وقد كان ذلك هو المبدأ الذى سار عليه أئمة

المسلمين مع اختلاف فى الطـرق والمناهج ، فمنهم من يكتفى بالثـورة اللسانية ، ومنهم من يمد يده الى السيف من أول حركة ، ومنهم من يجمع بين الاثنين ، ومنهم يتخذ موقفا غير مباشر فى مكافحة الظالمين وذلك بنقد الظلم والفساد عامة دون التعرض لمن يتصف بذلك •

وقد يستفحل الاستبداد فيقيد الأيدى ، ويكمم الأفـواه ، وتبقى الثورة حبيسة فى الصدور حتى تنفجر فى يوم من الأيـام فتطيح بالظلم والظالمين • ولو طال بهم المدى •

والخوارج حين ثاروا على ما اعتقدوه ظلما ، ورأوه انحرافا بالحكم عن المنهج الإسلامى الشورى الى منهج دكتاتورى مستبد ، لم يقصروا الثورة على أجهزة الحكم الفاسد فقط — ولو فى نظرهم — وإنما تجاوزوا ذلك الى أن حكموا عـلى غيرهم مـن المسـلمين بأحـكام المشركين ، واستباحوا منهم ما أباحه الله من الكفار • وبـذلك انتقلوا من وصـف الثورية الى وصف الخارجية الذى يعنى الخروج من الـدين • أى من مجموعة كانت تطالب بحق تؤيدهم فيه كل الأمة — ولو بقلوبها حتى أولئك الذين لم يشتركوا فى أية ثورة قط لا باليد ولا باللسان — الى فرقة قـد انفصلت عن الأمة المسلمة انفصالا دينيا كاملا ، بحيث حكمت على الأمة المسلمة بأحكام المشركين (١) لأنها فى نظرهم قد كفرت : إما بكونها مع الظالمين ، وإما برضائها وبقائها تحت حكمهم •

---

(١) يجب أن اذكر هنا اننى لم اتمكن من الحصول على اى مصدر من مصادر الخوارج حتى اعرف حقيقة ما عندهم من كتبهم وأن ما اسندته اليهم =

وقد كان رد الفعل لهذا الموقف من الأمة المسلمة أن حكمت الأمة على هذه الثورية المنحرفة المتطرفة بنفس الحكم ، وبادلتها نفس الموقف وأطلقت عليها لفظ الخارجية والخوارج وهى تقصد بذلك خروج من يدين بذلك من الدين بسبب الحكم على المسلمين بالشرك ومعاملتهم معاملة المشركين . وهكذا بعدت بينهم المسافة ، واتسعت الشقة . فالخوارج يرون أن الحكام الظالمين ومن أعانهم على حكمهم ومن سكت عنه أو رضى به وبقى تحت سلطانهم كل هؤلاء قد كفروا وتحل دماؤهم وأموالهم وسبى نسائهم وأطفالهم . والآخرون يرون أن الخوارج كفروا لأنهم كفروا المسلمين .

بعد هذا الحديث أريد أن أوجه الى القارىء الكريم السؤال الآتى : حتى أو لم يعتبر الفرد أو الطائفة من الخوارج ؟

أحسب أن الإجابة الصحيحة عن هذا السؤال تحدد الموقف بالنسبة للإباضية ، وتضعهم فى مكانهم الطبيعى فى المذاهب الإسلامية .

لقد أوضحنا فيما سبق أن الثورة على أى حكم والخروج عليه لا يكفى سببا لأن يضع صاحبه أو أصحابه فى قائمة الخوارج ثم يسلط عليه

=

فى هذا الفصل وفى غيره من الفصول وفى كتبى السابقة انما اخذته من مصادر غيرهم التى كتبت عنهم وهى فى اغلبها تقف منهم موقف الخصوم بما فيها كتب الاباضية فان كان ما نسب اليهم حقا فنحن مسئولون عن دراستنا وآرائنا وان كان ما ينسب اليهم باطلا من القول فالعهدة على الرواة من كتاب التاريخ والمقالات واننى أستغفر الله وأتوب اليه .

الحكم الذى سلطه التاريخ على الخوارج والأحكام التى سلطها الخوارج على غيرهم • فقد خرج أهل الأمصار على عثمان — وهو خليفة راشد — ولم يسمهم أحد حينئذ خوارج ، وخرج طلحة والزبير وعائشة على علىّ — وهو خليفة راشد — ولم يسمهم أحد خوارج ، وخرج معاوية على أمير المؤمنين على — وهو خليفة راشد — ولم يصفه أحد بالخارجية • وثار الحسين ابن على وعبد الله بن الزبير وسعيد بن جبير وزيد بن على ويحيى بن زيد على الدولة الأموية ولم يسمهم أحد خوارج • بل إن زعماء الدولة العباسية أنفسهم كانوا قد خرجوا على الدولة الأموية ولم يسمهم أحد خوارج ، بل ونقض الأمين بيعة المأمون وخرج عليه المأمون ولم يطلق اسم الخوارج على أى منها •

ومعنى هذا أن الخروج على نظام الحكم القائم والثورة عليه — سواء كان الحكم عادلا ونظيفا كما كان فى عهد الخلفاء الراشدين ، أو كان ملكا عضوضا كما كان فى عهد الدولة الأموية وما بعدها وما كان يقوم به عمالها أمثال الحجاج وزياد وعبيد الله بن زياد وأضرابهم — فإنه لا يكفى لأن يعتبر الثائرون عليه خوارج لمجرد ثورتهم على الحكم وخروجهم عنه • إن الخروج عن الحكم الظالم ، والثورة عليه • ومحاولة الإطاحة بأجهزته الفاسدة هو من أوكد الواجبات على الأمة المسلمة إذا لم تخش شرا أكبر ، ومن قام بذلك الواجب لا يمكن أن يعتبر خارجيا ، ولا يجوز أن يوصف بالخارجية إلا إذا تطرف فتعدى ذلك الى الحكم على المسلمين بأحكام المشركين ، فاستباح منهم الدماء والأموال ، واستحل سبى النساء والأطفال ، وتلك هى معانى الخارجية فى أية ثورة أو حركة مسلحة •

وواضح أنها خارجية عن الإســلام لا عن حكم قائم لدولة قد تكون باغية تتحكم فى رقاب أمة مسلمة كريمة وصفها الله تبارك وتعالى بالإيمان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فتذلها وقد تنفذ فيها عمليا فظائع من السلوك لم تخطـر على بال الخوارج حتى وهم فى أشد حالات الحنق والغيظ ، وإذا كان هذا واضحا وصحيحا وواقعا فما هى العلاقة أو الرابطة بين الإباضية والخوارج ؟

إن الإباضية من احرص المؤمنين على التقيد بما ثبت فى النصوص الشرعية من أحكام المسلمين وهم يعتقدون أن كل من نطـق بكلمة الشهادة فهو مسلم له ما للمسلمين وعليه ما عليهم فلا يستحلون دماء أحد من أهل القبلة إلا بالحق بينته وحددته الشريعة الإسلامية كالردة وقتل النفس وما فى معناها من الحدود .

ولا يستحلون مال أحد إلا بالطرق التى رسمتها الشريعة الإسلامية للتعامل بين الناس : فريضة فى كتاب الله ، هبة عن تراض ، بيع عن تراض وما فى معناها . أما قتل الأبرياء وسبى الأطفال والنساء فقد وقفت دونها كلمة التوحيد ، وصانها عن هذه المذلة والهوان . ولا يستحلون هذا حتى من البغاة والمعتدين مهما بالغوا فى مسلكهم الظالم .

فالاعتبارات التى سمى الخوارج ــ من أجلها ــ خوارج لا وجود لها عند الإباضية مطلقا . بل إنهم أبعد الناس عنها عقيدة وقولا وعملا وجميع كتاب المقالات ــ رغم إصرارهم على إن الإباضية من الخوارج ــ يشهدون بذلك ويسجلونه فى كتبهم .

لو كانت الخارجية نسبا أو صهرا أو حتى صداقة يزعم أن للإباضية

بهذا النسب وشيجة أو قرابة ويزعم أن لهم فيها عما أو خالا أو صديقا ٠ ولكن القضية ليست كذلك ٠ القضية قضية عقائد معينة محـددة ينبنى عليها سلوك تنتج عنه آثار ٠ فمن أين جـاءت الخارجية الى الإباضية ولماذا يصر مؤرخو الفرق الإسلامية وكتاب المقالات الدينية على هـذا الموقف ؟ يقول الأستاذ مصطفى الشكعة « إنهم رموا بهذا اللقب لأنهم رفضوا القرشية ، أى التزام كون الإمام من القرشيين » ٠ والحقيقـة أنه لا شىء البتة عنـد كتاب المقالات والمؤرخين يمكن أن يكون سببـا لإطلاق كلمة الخوارج على الإباضية إلا أحد أمرين هما : رفض القرشية ، واعتبار التحكيم خطأ ٠ فهم يلتقون مع الخوارج فى هذا الرأى لا غير وهذا — فيما يبدو — هو كل ما يتعلق به القوم غير أن السياسة الماكـرة فى العهد الأموى وفيما بعد أيضا حاولت أن تضرب كل من ينقدها بمـا يناسب ظروفه ولما كان الإباضية لا يعترفون بالقرشية أساسا أو مـؤهلا وحيدا للإمامة فقد أضفت عليهم لقب الخارجية ثم جاء أعوانها فاخترعوا للإباضية عقائد وشنائع بشـوها عنها فانتشرت بين الناس وقامت حائلا للموضوع وطفت تلك وراجت فتناولتها الأقلام بالإثبـات والترسيخ ٠

ولقد أوضحنا من قبل أيضا أن القول بأن التحكيم خطأ لا يخرج قائله من الإسلام ، ولا يفصله عن الأمة المسلمة ، ولا يكفى لأن نسلط عليه حكما رهيبا يجعله مكروها من المسلمين ، ثم يستمر هذا الحكم طول التاريخ ، ويمتد مع امتداد الزمن ، وأوضحنا أيضا أنـه إن كان إنكار التحكيم واعتباره خدعة سياسية يراد بها تفريق جيش أمير المؤمنين علىّ هو الخارجية أو هو السبب فى إطلاق لفظة الخوارج ٠ فأحسب أن أمير المؤمنيين عليا وخيار أصحابه أمثال عمار والأشتر وعبـد الله بن عباس يكونون رؤساء للخوارج ٠ ذلك أن كتب عن موضوع التحكيم تكاد تكون

مجمعة أن أمير المؤمنين كان أول أو من أوائل من تفطنوا للمكيدة ولم يقبل التحكيم لا مكرها • وأنه أنكره بشدة ، وأبان لجيشــه ــ الذى عمل فيه الطابور الخامس عمله ــ عواقب تلك المكيدة • وأنه لم يقبل التحكيم إلا مضطرا ، عندما وجد جيشه معرضا للتفرقة والتمزق ، وربما للتناحر • وكان على رأى الإمام على وعلى رأى أصحابه فى اعتبار التحكيم مكيــدة لا ينبغى قبولهــا أكثر أئمة المســلمين منهم الإمامان العظيمان الحسن البصرى ومالك بن أنس حسبما أورده المبرد فى كامله وابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة بل استطيع أن أزعم أننا اليوم وفى هذا العصر ــ وقد مضى على تلك الأحــداث ثلاثة عشر قرنا ونصف ــ عندما نقرأ أخبارها نشعر بالأسف والحسرة لأن تلك الخدعة الجريئة قد انطلت على أكثرية جيش على حتى اضطر للاستجابة لهــا رغــم معرفته القصد منهــا ، وتقديره لنتائجها ، وعلمه علم اليقين أن القصد من تلك العملية لم يكن مراعاة للمصلحة العامة • ولا نظرا لخير الأمة ولا تحكما للكتاب فى شىء جهل فيه حكم الكتاب •

فهل يعتبر من يحس هذا الإحساس ــ اليوم ــ ويرى هذا الرأى من الخوارج •

لا شك أن الإباضية يرون أن التحكيم خدعة وخطأ لا ينبغى قبوله ، ومع الإباضية فى هذا الفهم وهذا الاعتقاد أكثر أئمة المسلمين فى مختلف المذاهب ، فإذا كان الخوارج هم الآخــرون يرون هذا الرأى فهل يعنى

---

(١) راجع كتابه اسلام بلا مذاهب ، وكتاب الدين والعــلم الحديث للأستاذ ابراهيم محمد الباقى ص ٢٦٦ طبع المكتبة التجارية الكبرى .

هذا أن الإباضية ومن يرى رأيهم فى قضية التحكيم أو فى قضية الخلافة أصبحوا خوارج لأنهم التقوا معهم فى فكرة •

أحسب أن هذه النقطة هى النقطة الوحيدة التى يلتقى فيها الإباضية مع الخوارج • ويلتقى فيها مع الخوارج كثير من الأمة • أما فى موضوع الخلافة فأصبحت الأمة كلها فيما يبدو ترى رأى الخوارج قولا وعملا •

وينفصل الإباضية عن الخوارج — فى غير النقطة السابقة — انفصالا كاملا لالقاء معه • ويقفون معهم أعنف المواقف فى الحرب والسلم • فهم عندما يكونون معهم فى الإسلام ، يعلنون البراءة منهم • ويطردونهم من مجالسهم ، وينكرون عليهم فى عنف وشدة ، ويمنعونهم أن يتحدثوا إلى الناس عن آرائهم المتطرفة • ولقد يكون إنكار الإباضية على الخوارج أعنف وأقسى من إنكار غيرهم عليهم — بقطع النظر عن المواقف العسكرية التى كانت تقفها دول كانت تحافظ على عروشها لا على معتقداتها وعلى سلطتها وهيبتها لا على دينها •

ومع كل هذا فقد استطاعت الدعاية السياسية فى العهد الأموى أن تضفى لقب الخارجية على الإباضية • وجاء المؤرخون الموجهون فنشروا ذلك فى كتبهم وفى أحاديثهم وفى المجالس الخاصة والعامة ، ثم جاء من بعدهم كتاب المقالات فأخذوا ما وجدوا دون تحقيق أو ترو أو نقد • وقد وجد الكذابون والمشنعون والمستغلون ميدانا فسيحا للافتراء والزيادة فنشروا الأباطيل يتناقلها الناس كأنها وقائع • أخذها كتاب المقالات كمادة علمية حشوا بها كتبهم فأصبحت مرتبة الحقائق الثابتة التى لا يتوجه إليها نقد ولا يرتفع بصددها نقاش •

ولا شك أن الذين كتبوا عن الإباضية واعتبروهم من الخوارج كان لكل واحد منهم مستنده ومنهجه ودوافعه • وربما كانوا باتجاهاتهم ودوافعهم ومستنداتهم لا يخرجون عن الأنواع الثلاثة الآتية :

١ — النوع الأول : اعتقدوا حقا أن الإباضية فرقة من الخوارج ، وتشبعوا باعتقادهم أنها فرقة ضالة مبتدعة ، بل وحتى أسوأ من ذلك لو أمكن ، واشتد — من أجل هذا — حقدهم عليها وبغضهم لها ، وهم مستعدون لتقبل كل ما يقال عنها من تشنيع وحتى الزيادة عليه برضى واطمئنان دون الشك فى صحة ذلك أو محاولة للبحث عن الحقيقة •

٢ — النوع الثانى : استندوا على مصادر موجودة واعتمدوا عليها دون نقد أو محاولة لمعرفة حقيقة الإباضية من وراء ذلك وهم يرون أنهم فعلوا ما ينبغى لهم مادام الواحد منهم يستطيع أن يدل على مصدر استند عليه •

٣ — النوع الثالث : درسوا شيئا عن الإباضية واطلعوا على كتبهم وعرفوا منها البون البعيد بين الإباضية والخوارج وعلموا ، أن كثيرا مما يقال فى كتب المقالات لا أساس له ، ولكنهم مع ذلك استسلموا للتيار التاريخى فى إطلاق كلمة الخوارج على الإباضية باعتباره اسما مميزا فقط لا يدل على ما تحمله كلمة الخارجية من المروق ومانشتمل عليه وتوحى به فى الخروج عن الدين والأمة ، فهم يطلقون لفظ الخوارج على الإباضية كما يطلق أى لقب مكروه على شخص دون اعتقاد بأن ذلك الشخص يحمل شيئا من مدلوله ومعانيه •

ويبدو لى أن الأستاذين : عز الدين التنوخى ، وإبراهيم محمد عبد الباقى ومن سار على نهجهما من هذا القسم • فهما — مع تقريرهما لبعد الإباضية عن الخوارج البعد الكامل — وتوضيحهما للفارق الظاهر فى ذلك — لم يتحرجا أن يذكرا أن الإباضية فرقة من الخوارج • بل لقد تجرأ الأستاذ إبراهيم محمد عبد الباقى فوصف صديقه أبا إسحاق طفيش (رحمه الله) بأنه زعيم طائفة منهم ، ولست أدرى ما هو الإحساس الذى ثار فى نفس الإمام الكبير حين قرأ ذلك ، ولا كيف كان لقاؤه معه بعد ذلك • ولكن أبا إسحاق على كل حال لم يتعرض لموقفه الشخصى فى إطلاق الخارجية عليه ، وإنما استجاب للكاتب الكبير ، وعرض موضوع الخوارج عرضا مسهبا وضعه تحت تصرف الأستاذ ابراهيم فنشره — مشكورا — بنصه فى كتابه القيم •

والحقيقة أن الإباضية فى جميع العصور — مع أنهم يبرأون من الخوارج ومن معنى الخارجية التى شرحناها سابقا — تعودت آذانهم أن تسمع من يصفهم بها فى القديم والحديث • حتى تمسك بها المتطرفون منهم على سبيل التحدى ، وكان الكثير منهم لا يجد لها إحساسا أو طعما معينا ، وإنما ألفوها كما يألف أى إنسان تتفق مجموعة من أصدقائه وأصحابه على أن يلقبوه بلقب مكروه ويصرون على مناداته به ، فيغضب ويثور فى أول الأمر ثم يلين ويتغاضى ثم قد يستسلم ويستجيب ويعترف به على طول المدى ، وقد علقت بالأفراد والأسر والقبائل ألقاب من هذا النوع حاربوها فى مبدأ الأمر ، ثم استسلموا لها ، ثم اعترفوا بها فأصبحت أعلاما لهم •

على هذا المستوى سكت بعض الإباضية عمن سماهم خوارج فى

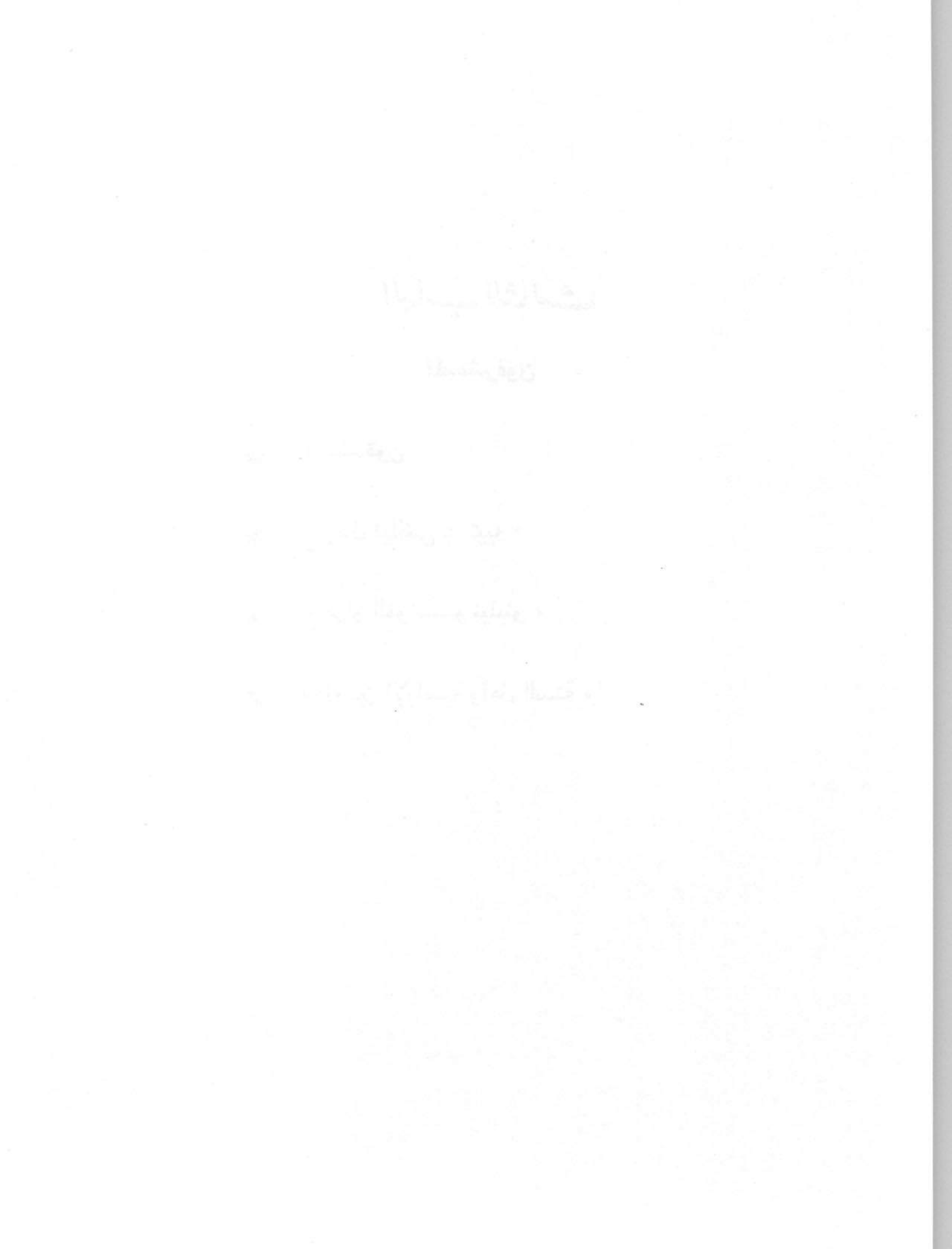
العصور السابقة ويسكت لها اليوم آخرون ، وربما وجـد من اعتز بها فى القديم والحـديث من باب المناكفة والتحـدى وربما وجد من شـذ وتطرف مراغمة وكيدا فانتسب إلى الخوارج وقال ببعض شعاراتهم .

ويبقى بعـد كل ذلك الإباضية — دون اعتبـار للأفراد والشـواذ والمتطرفين — مذهبا إسلاميا بقواعدة وأصوله المبنية على الأسس الشرعية المعتبرة من كتاب وسنة وإجماع وقياس صحيح . يحمل علوم الشريعة عدوله ، ينفون عنه تحريف المغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين وشبه المبتدعين

الباب الثالث

المستشرقون

* المستشرقون
* مع إميل فيلكس جوتييه .
* مع كرلو الفونسو نيلينو .
* اللقاء بين الإباضية وأهل السنة .



القسم الثالث

المستشرقون

اهتم المستشرقون بالقضايا الإسلامية عامة . وقدموا فيها دراسات واسعة ، وبحوثا مختلفة . منها القيّم ، ومنها الأقل قيمة .

وقد حاولت أن أراجع موضوع الإباضية فى بعض كتاباتهم فلم أستطع أن أفصل موضوع الإباضية فى بحوثهم عن بقية المواضيع الإسلامية . وفرضت على أساليبهم — فى مناقشة قضايا الشرق عموما ، وقضايا الإسلام خصوصا — أن أغير منهجى الذى كنت وضعته لمناقشة هذه البحوث وقد رأيت أن أقدم مباحث هذا القسم من الكتاب كما يلى :

١ — المستشرقون : أعرض فى هذا الفصل نماذج من كتاباتهم مع تحليل موجز لبعض الفقرات منها .

٢ — إميل جوتييه : أعرض بعض ما كتبه هذا المستشرق كمثل للمستشرقين المتعصبين الذين يكتبون عن الشرق والنظرة الاستعمارية المتعالية لا تفارق أحاسيسهم ومنطق السيادة التى يريدون أن يفرضوها على العالم لا تختفى من أذهانهم .

٣ — كارلونيلينو أعرض بعض ما كتبه هذا المستشرق كمثل

للمستشرقين الـذين يلتزمون الأسـلوب العلمى دون أن يؤثر عليهـم — ظاهرا — إحساس آخر أو دافع غير دافـع خدمة الثقافة الإنسـانية حسبما يبدو للقارىء •

٤ — مقارنة موجزة للقاء بين الإباضية وأهل السنة فى النقاط التى جعلهم نيلينو مواضيع لقاء بين الإباضية والمعتزلة •

والواقع أن هذه الفصول الصغيرة القصيرة لا تكفى لإعطـاء صورة حقيقية وصحيحة عن جهـود المستشرقين — سـواء منها الجهود النبيلة النظيفة ، أو الجهود الماكـرة الدساسة — وعسى الله تبارك وتعالى أن ييسر لى العـودة إلى موضوع « القضـايا الإسـلامية بـين أيـدى المستشرقين » فأتناولها بعمق أكثر ، وفهم أصح ، واطـلاع أوسـع • ودراسة أكثر استيعابا ، وأسـلوب أكثر نعومة وتهذيبا •

المستشرقون

قلت فى بعض الفصــول من هذا الكتاب ! إن للمستشرقين عنــدما يكتبون عن الإسلام ــ سواء كانت كتاباتهم عنه كدين ، أو عن الأمــة الإسلامية جمعاء كأمة ، أو عن فرقــة من فرقهم كفرقة أو مذهب ــ أساليبهم ودوافعهم ، ومراميهم الظاهرة والخفية ، ومهما كانوا مخلصين للبحث العلمى ، ولخدمة الثقافة الإنسـانية فى هــذه المواضيع ، فإنهم ــ فى الحقيقة ــ أشد إخلاصا للدوافع الحقيقية التى دفعتهم إلى الكتابة عن الإســلام والمسلمين • وهم لا ينســون مطلقا أن أقلامهم يجب أن تتم ما عجزت عنه سيوف الصليبيين ، وأنهم يمثلون الترفع الحضــارى الذى يعتقدونه للإغريق والرومان أى لشعوب الغرب على شعوب الشرق التى خضعت ــ فى يوم من الأيام ــ لحضارتهم وعسكريتهم ويرون أن ذلك التفوق والتحكم يجــب أن يستمر بأيديهم وأيدى أبنــائهم وأيدى أحفادهم ، وأن كل واحد يمثل ــ فى عصره ــ موقف القيــادة لسـيطرة الغرب على الشرق • وإن لم يحمل الشارات العسكرية •

على أن هؤلاء المستشرقين ، عندما يتناولون هذه المواضيع يختلفــون بعض الاختلاف فى طريقة تناولها فمنهم من تدفعــه الحماســة فينكشف بسرعة ، وتبدو مقاصــده من ثنايا كتــاباته واضحة • حتى أن مواقف بعضهم لا تختلف عن الضباط العسكريين الذين يتوجهون إلى الاحتــلال بقوة الســلاح •

وفيهم من يملك من الدهاء ما يستطيع معــه أن يدس إلى قارئيــه ما يريد من الأفكار دون أن يثير منهم حاسة الانتباه ، وغريزة رد الفعل •

وهم فى أغلب الأحوال ينطلقون من نقط متشـابهة ، ويتتبعون وسـائل متقاربة ، ومن ذلك مثلا : يعمدون إلى وسيلة ظاهرها علمى بحت ، وباطنها وسيلة من وسائل التخدير وكسب الاستيثاق ، تؤثر على القارىء البسيط من النظرة الأولى فتملأ نفسه بالإعجاب أولا ، والتصديق ثانيا ، والثقة ثالثا • وعندما يصـل القارىء معهم إلى هذه المرحلة فإنهم يكونون قـد كسبوه نهائيا •

ومن الأساليب البسيطة فى هذا المجـال أنهم عنـدما يريدون أن يتناولوا موضـوعا بالبحث يقومون بإعـداد قوائم طويلة من المراجـع والمصادر باللغات المختلفة ــ ولاسيما اللغة العربية ــ يثبتونها فى صدر كل بحث أو عنـد نهايته • مع أنهم ــ عنـد مناقشة الموضوع ــ قـد لا يحتاجون إلى الكثير من تلك المراجع ولا يعودون إليها • ولكن ذكـر أسمائها بتلك الوفرة يوحى باستفراغ الجهد ، ودقة التحقيق والتمحيص ، ثم بالثقة • ثم هم يتصيدون منها شواذ الأخبـار والأحداث فيركزون عليها ، ويؤيدون بها مقاصدهم الخفية •

ولست بهذه الملاحظة البسيطة أغمز سعة اطلاعهم فأنا عـلى يقين كامل بأنهم قد توفر لهم من الدراسة ــ بسبب مجهـوداتهم الشخصية ، ومساعدات حكوماتهم ومؤسساتهم المادية والمعنوية ــ ما يتيح لهم مـن سعة الإطلاع ، وغزارة المادة ، ووفرة الجهد فى الدراسة والبحث أو مواصلة العمل والاستمرار فيه ، ما لا يتاح لغيرهم أبداً • فهم بذلك مـن أكثر الناس اطلاعاً على المواضيع التى يهتمون بها ويبحثونها ، ولكنهم مع ذلك يقصدون بذكر المصادر ــ مع الحصـول على إعجاب القارىء وثقته ــ إلى تخديره بتلك الوسيلة التى توحى إليه مسبقاً بعظمة المجهود المبذول من أجل الوصول إلى الحقيقة فيكون طيعاً بين أيديهم •

وأنا وإن كنت سلكت مسلك التعميم فى الحديث عن المستشرقين لا أدعى أن رأيى هذا ينطبق على كل فرد منهم فهذه — لا شك — دعوى لا تصح ، ولا يمكن لى أن أزعمها ، ضرورة أننى لم أعرف كل المستشرقين ولم أقرأ كل ما كتبه من عرفت منهم • ولكن الصورة التى انطبعت أمامى مما قرأته من كتاباتهم كانت على هذا النحو الذى وصفته • وليطمئن القارىء الى أننى لا أرمى القول جزافاً فإننى سوف أضع بين يديه صوراً توضح تلك الجوانب من كتاباتهم فإلى القارىء الكريم تلك الصور تحت عناوين مستوحاة من بحوثهم وكتاباتهم •

١ — الروح الاستعمارية المتمكنة :

إذا أخذت مثلا كتاب « ماضى شمال أفريقيا » تأليف الأستاذ إميل فليكس جوتييه وترجمة الأستاذ هاشم الحسينى نشر الفرجانى فإنك بمجرد ما تبدأ قراءة مقدمة الكتاب تحس كأنك تقرأ تقريراً لأحد خبراء الاستعمار الفرنسى عن المغرب • فهو من جانب يحاول أن يدس الى أبناء المغرب ما يقنعهم بفقر المغرب واحتياجه وعدم تماسكه • وهو من جانب آخر يثير حماس الاستعمار حين يشيد بفضل ما قام به الرومان فى القديم والفرنسيون فى الحديث من جهود مثمرة لازدهاره أو هو بذلك يريد أن يؤكد على نقطتين مختلفتين :

الأولى : إشعار أبناء المغرب أن بلادهم فقيرة ومحتاجة وغير متماسكة ولا يمكن أن تقوم إلا على يد استعمارية خارجية تسندها والدليل على ذلك أنها لم تزدهر إلا على يد الاستعمار الرومانى فى القديم والاستعمار الفرنسى فى الحديث •

الثانية : إن استعمار الغرب للشرق حق من حقوقه يجب أن يحرص عليه وقد كان المغرب يزود الرومان بكثير من الغلال ويجب أن يستمر هذا الوضع أبداً بأن تكون بلاد المشرق مصدراً للغلال ومتنفساً اقتصاديا للغرب .

يقول الأستاذ جوتييه فى كتابه السابق ابتداء من ص ٩ ما يلى :

« كل شىء يتبدل على حين غرة اللغة والدين والمفاهيم السياسية والاجتماعية . إنه تاريخ شديد التقطع الى أجزاء منفصلة بعضها عن بعض ، ففى أوربا تطور متكامل حسب خط متصل ، أما المغرب فسلسلة من التبدلات المفاجئة » .

ويقول بعد أسطر :

« ومن الثابت أن رقعة المغرب القابلة للسكن والحراثة لها إمكانيات ضئيلة . إنها شريط بمحاذاة المتوسط والمحيط طوله ٣٠٠٠ كيلو متر . وعرضه ١٥٠ كم وبسبب طبيعته هذه لم يتخذ شكلا مستمراً » .

ويقول بعد أسطر :

« أما فى المغرب فالوحدة سهلة التحقيق ، لكنها سهلة الزوال أيضا . ودولة المغرب كالعطور فى الليل وتذبل فى الصباح .

ويقول بعد أسطر :

« فجميع مناطق المياه الراكدة فى هذه البلاد عبارة عن شطوط جرداء لماعة زاخرة بالملح » .

ويقول بعد أسطر •

« وحيثما سرت فى الطرق والمنعطفات تشاهد مواقع الملح » •

ويقول بعد أسطر :

« حتى فى الأرض القابلة للزراعة فى الجزائر لا تجد الرطوبة الكافية للخصوبة • فتربة المغرب كلسية بفعل التبخر » •

ويقول بعد أسطر :

«كانت روما زمن الأباطرة تؤمن لشعبها القوت عن طريق فرض الضرائب وكانت إفريقيا تدفع فى الواقع مايطعم ٣٥٠٫٠٠٠ نسمة • فى هذه الجهة يمكن اعتبارها إهداء لروما • ولا ينفى ذلك وجود أساليب جديدة لتحسين الرى ولا سيما وأن هناك نوعاً من الزراعة خاصة ببلاد الملح ، لكنها طرق شاقة ، والمغرب ليس أرضا شديدة الخصوبة • ولا هو البلد الصالح لتربية الماشية • فليس الثيران المغربية أضخم جثة من حمير أوروبا •وتربية الماشية تحتاج لتأمين السبل اللازمة للحصول على قوتها فى سنوات الجفاف المريرة •

كذلك ليس المغرب بلاد صناعة • فوديانه ليست مخازن احتياطية للمياه • والأرض تفتقر للفحم الحجرى والليثيث • ومنجم الفحم الوحيد المستغل حالياً هو منجم كيناسنا وليس مهما جدا • أما منجم جرادة فيبدو أكثر أهمية ، لكنه لم يستغل بعد ، والنفط لم يتفجر حتى الآن • ولم يعثر الجيولجيون فى تربة المغرب على الفحم المتحول من أشجار الغابات ،

وإنما عثروا على الملح والجبس • ولكن لعنة بلاد الملح قد حلت به منذ أقدم العصور » •

ويقول بعد أسطر :

« ولا نعنى بهذا أن الشمال الإفريقى يشكوا الفقر المدقع • فقد عرفت الجزائر حقبة من الإزدهار الكبير » •

ويقول بعد أسطر :

« كان ذلك فى العصر الفرنسى » •

ويقول بعد أسطر :

«وأما الجزائر الرومانية فكانت كما يقول علماء الآثار مدينة بازهارها لزراعة الزيتون ، وقد عثر على آثار فى إيطاليا تثبت قدوم الزيت من شمال إفريقيا » •

« ويردد الناس عبارة اطلقها أحد المؤرخين المسلمين حول ازدهار إفريقيا فى عهد الرومان : — كل البلاد من طرابلس حتى طنجة ، كانت إطار واحدا وسلسلة متواصلة من القرى — وتدل العبارة على أن السفر بين طرابلس وطنجة يجرى فى الظل » •

ويقول :

فنحن نعلم أن الفواكة من زيتون وتين وعنب سبباً من أسباب ازدهار إيطاليا الوسطى وبلاد البحر الأبيض المتوسط إذ تلزمها أسواق خارجية منفتحة • لذلك فالازدهار يمكن اصطناعة الى حد ما لأنه منوط بظروف سياسية معقدة •

ويقول :

« فالصناعة تحتاج الى زبائن فى الخارج ، ومن حسن حظ الشمالى الإفريقى توفر الفوسفات فيه بحيث أصبح مركزاً لتصدير هذا المعدن الى أرجاء المعمورة ، وفيه أيضا الحديد بكميات كبيرة وكذلك التوتياء والرصاص • ولم يجر التنقيب عن هذه المعادن منذ الإمبراطورية الرومانية وحتى الاحتلال الفرنسى • ولم يكن بالإمكان تصنيع المعادن فى البلاد نفسها • لهذا كنا نرى فى الموانى الجزائرية أنواع المعادن تصدر الى جانب البضائع الأخرى • فيوضع الرصاص ، والتوتياء فى أكياس أما الحديد والفوسفات فتجمع أكواما تنتظر السفر الى الخارج » •

ويقول :

« واذا كانت فرنسا بلدا متكاملا يكفى ذاته على حد قول فيدال دى لا بلاشى • فالمغرب على العكس من ذلك » •

ويقول :

« والواقع أن هذا الشريط الذى يبلغ طوله ٣٠٠٠ كيلو متر يمتد من الشرق الى الغرب ضمن خطوط عرض وطول متشابهة ، فحيث ما نذهب نجد السماء نفسها ، والتربة عينها ، فما من بلد أقل تنوعا وتجانسا • وجفاف المناخ لا يسمح لتحقيق الازدهار محليا » •

ففى بلاد واسعة كالمغرب تتمتع بإمكانيات طبيعية كبيرة من حيث المعادن والصوف والزيت والنبيذ • لا تسهل الاستفادة من الثروة ، إذ يحتاج الأمر الى التنظيم ، وتوظيف الرساميل ، وتوسيع الإنتاج ،

وتأمين التصدير ، فالمغرب بحكم مناخه لا يكفى نفسه اقتصاديا ويحتاج ، للتعاون مع الغير » •

« نقلت للقارىء الكريم أكثر ما فى مقدمة الكتاب حتى تكون لـديه الصورة التى أردت عرضها واضحة ، وأستطيع أن ألخصها له كما يلى : المستشرق جوتييه فى مقدمته لهذا الكتاب صور المغرب الذى يمتد مسافة ٣٠٠٠ كيلو متر بأنه منطقة فقيرة جرداء تلاحقها لعنة الملح لا يمكن أن يكفى نفسه اقتصاديا وذكر فى بعض الأحيان أن المغرب خال من الثروة فتربته كلسية ، ومياهه ملحة ، والمعادن به مفقودة ، وما وجـد بـه لم يستغل • والنفط لم ينفجر فيه • وهو غير صالح لتربية الماشية • وثوره ليس أضخم مـن الحمار الأوروبى ، وهو ليس بلادا صناعية ووديانة ليست مخازن احتياطية للماء •

« ومع هذه الصورة القائمة التى تـوضع للمغرب تنـدس فكـرة استعمارية توحى بأن هذا المغرب قد ازدهر قديما حتى استطاع أن يمون الشاطىء الشمالى للبحر الأبيض المتوسط وذلك عندما كان تحت رعاية الرومان ، وأنه ازدهر حديثـا وهو تحت الاسـتعمار الفرنسى • وفى الإمكان أن يستمر مزدهراً إذا وجد التنظيم ، وتوظيف الرساميل ، وتوسيع الإنتاج • وتأمين التصدير • ويشير جوتييه بعبارة واضحة الى أن المغاربة لا يستطيعون أن يقوموا بذلك وإنما يحتاجون الى معاونة الغير فيقول : « فالمغرب بحكم مناخه لا يكفى نفسه اقتصاديا ويحتاج للتعاون مـع الغير » •

ومعنى هذا أن على أبناء المغرب ــ إذا أرادوا الازدهار لمغربهم ــ

أن يعتمدوا فى ذلك على الاستعمار الفرنسى الذى أشار إليــه جوتييــه بكلمة « مع الغير » والذى يرشحه لأن يقوم فى الوقت الحاضر بــدور الرومان فى العصور الخالية ومن الغريب أنه ساغ فى منطق جوتييه وهو يرسم للمغرب تلك الصورة البائسة أن يذكر فى نفس المقدمة أن الزيت المغربى كان يصل الى إيطاليا وأن الرومان كانوا يؤقتون منــه قــوت ٣٥٠ر٠٠٠ ألف نسمة ومع ذلك فالمغرب فقير ، ولا يكفى نفسه اقتصاديا ، ويتكالب عليه الاستعمار الغربى من العهد الرومانى الى العهد الفرنسى محبة فى سواد عيونه ، وتضحية مــن أجل الله والإنســانية أنــه منطق الاستعمار على أقلام جنود الإســتعمار ولو حملــوا أشعار الدراســة والعلم .

ولعل مما يبعث على الضحك هذه العبارة التى جاء بهــا جــوتييه تعزية لنفسه وتخفيفا للحسرة التى يحس بهــا لو اســتغنى المغرب عن خدمات فرنسا قال :

«وإذا كانت فرنسا بلدا متكاملا يكفى ذاته على حد قول فبــدال دى لا بلاش فالمغرب على العكس من ذلك » .

يكاد القارىء يحس بدموع الكاتب تتساقط من عينه حسرة وأسفا وهو يتصور هذا الموقف الذى يستغل فيه المغرب عن فرنسا ولم يجــد موقفاً يقفه غير موقف وكيل لئيم غنى بلغ رشده ويستعد لتسلم أمواله فيقف وهو يتظاهر بما ليس فيه قائل لليتيم البالغ . ياناكر الجميل قــد نسيت لكل ما قدمت لك من خدمات ولكن لا بأس فأنا لا يقتلنى الجــوع

ولكنك أنت سـوف تضيع ثروتك وتصبح بعـد رعايتى وعنايتى مشردا معدما • ثم ينهمر بالدموع •

٢ ـ زعزعة الثقة بالمصادر الإسلامية :

قد لا يدعونى الموقف فى هذه النقطة الى التعليق وإنما يكفى أن أعرض على القارىء الكريم مقتطفات مما يقـوله بعض المستشرقين فى هذا الصدد فيتضح ما يبيتون • والى القارىء الكريم نماذج من ذلك • من كتاب ماضى شمال إفريقيا :

« وإن نحن شئنا قصر مصادرنا على المراجع العربية لا بد وأن نجد صعـوبة فى فهم الأمور ، ذلك لأن الدراسـات الشرقية تقسـم ببعض الانغلاق على الرأى العام » ص ٤٧ •

« فى طبيعة العقل الشرقى القديم عـدم تمييزه بين الأسـطورة والواقع وقد اصطدم الغربيون كثيراً بهده الحقيقة ، حيث كانوا يتكبدون الكثير من المشاق للحصول على أمر مهم سمعوا عنه ، وسرعان ما يفاجأون بأنه مجرد أسطورة ٢٢٩ ص ٦٩ •

« فالعربى شأن البربرى لم يكن يعنى بالتاريخ ولـم يسـتيقظ الفضول العلمى فى الإسلام إلا فى مرحلة متأخرة مع العباسيين ، وتسرب الأفكار الداخلية » • ص ٤٤ •

« لكن الصعوبة ليست هنا • إنما الصعوبة فى التسرب الى عقـول

المؤرخين الذين يختلفون عن مؤرخى الغرب ، ويصعب علينا فهمهم » •
ص ٤٨ •

« وليس لدينـــا نحن الأوروبيين أى حس دينى ، أما الشرقيـــون فليس لديهم أى حس بالتاريخ • ولعل الحس الدينى والتاريخى يتعارضان
٢٢ ص ٥٥ •

« ولا ننسى أن كاتبنا الكبير قد اكتشف هذه المبالغات لـــدى كبار المؤرخين وعلماء الجغرافيا كالمسعودى والبكرى وليس فقط مدى الأسماء الصغيرة » ص ٧٠ •

(ويظن هؤلاء المؤرخون العرب بأنهم قد أدوا واجبهم كاملا إذا ذكروا أسماء الملوك ونسى حكمهم) • ص ٧١ •

« كاتب لامع جدا هو ابن خلدون وآخرون مجهـولون تقريبا على غرار مؤلف روض القرطاس ، غير أن لهم جميعا ذهنية شرقية بمعنى أن مفاهيمهم لا يقبلها الغربيون بدون تأويل » • ص ٨٧ •

«عاش ابن خلدون فى القرن الرابع عشر فلا بد من تأثره بالمؤرخين القدماء ، وأسطورة أفريقوس تناقلتها الأجيال بين مـــؤرخ وآخر حسب المفهوم العربى التقليدى للتاريخ » • ص ٩٨ •

« إن عدم إحساس المؤرخين العرب بالتاريخ أمـــر مـــدهش » •
ص ١٠٠ •

« أو ليس فى الأرجح إذن أن يكون المؤرخون العرب قـــد فكروا

بحمير التى امتلأت أذهانهم بها ، وأغفلوا قرطاجة اليونانية التى لم يكتشفوا وجودها » قط ص ١٠٠ •

« وقــد ذكر المؤرخون العــرب المعروفون بمبالغاتهم خبر ابنــة البطريق » • ص ٧٥ •

« والواقع أنه لا يسهل علينا مع المؤرخين العرب أن نميز الحقيقة من الخيال » • ص ١٧٥ •

« وليس ذلك بسبب الغموض والإبهام للذين اكتنفا كتاب المؤرخين العرب عن العلاقات العربية البربرية » • ص ١٧٨ •

« وقد تكون القصة منحولة لكن العثور على هذه الحيــوية لــدى مؤرخ عربى من الأمور السارة » • ٢٢ ص ١٨٧ •

« ولا يذكر المؤرخون العرب بجفافهم المعتاد وعدم اهتمام بتحليل الأسباب عن ذلك الشىء الكثير » • ٢٢ ص ١٨٩ •

« والغريب أن الكاهنة قــد ألهبت خيال المــؤرخين العرب الــذين أعطوا عنها فكرة حية بخلاف عادتهم فى الكتابه » • ٢٢ ص ١٩٢ •

« خبرات بعض المؤرخين والفلاسفة والأطباء فى العصر الإسلامى وخصوصا من كتب منهم باللغة العربية يزيدونها إيضاحا فى هذا الباب • إلا أن أقوالهم يجب أن تؤخذ بحــذر لأنها مفعمة بالأخطاء التاريخية • والخلط بين المسائل »• هذه الفقرة للمســتشرق ماكس ماير هــوف — التراث اليونانى ص ٣٨ وبالرجوع الى هذه الفقرات التى نقلتها فى أقرب

المصادر التى وقعت عليها يدى نجد أن الصورة التى يراد أن تنطبع فى ذهن القارىء عن المصادر التاريخية الشرقية عامة والمصادر العربية خاصة هى ما يلى :

١ — الدراسات الشرقية تتسم بالانغلاق على الرأى العام •

٢ — العقل الشرقى لا يميز بين الأسطورة والواقع •

٣ — العربى كالبربرى لم يكن يعنى بالتاريخ والفضول العلمى فى الشرق الإسلامى انما نتج عن تسرب الأفكار الداخلية •

٤ — المؤرخون الشرقيون ليس لديهم حس بالتاريخ وإنما يكتبون عن إحساس دينى •

٥ — يظن المؤرخون العرب أنهم أدوا واجبهم إذا كتبوا عن الملوك وسنى حكمهم •

٦ — جميع المؤرخين العرب بما فيهم ابن خلدون لهم ذهنية شرقية ، ومفاهيم لا يقبلها الغربيون بدون تأويل •

٧ — المؤرخون العرب ينقلون أساطير التاريخ بمفهوم عربى تقليدى •

٨ — عدم إحساس المؤرخين العرب بالتاريخ أمر مدهش •

٩ — المؤرخون العرب معروفون بمبالغاتهم •

١٠ — لا يسهل تمييز الحقيقة مع المؤرخين العرب •

١١ — كتابات المؤرخين العرب تتميز بالغموض والإبهام •

١٢ ـ العثور على حيوية عند مؤرخ غربى أمر سار لأنه أمر نادر •

١٣ ـ يتصف مـؤرخو العرب بالجفاف وعـدم الاهتمام بتحليل الأسباب •

١٤ ـ المـؤرخون والفلاسـفة والأطباء فى العصر الإسلامى وإن أعطوا صورة واضحة إلا أنه يجب أن تؤخذ أقوالهم بحذر لأنهـا مفعمة بالأخطاء والخلط • هذه كما يرى القارىء الكريم بعض الحقن التى يدسها المستشرقون فى ثنايا أبحاثهم العلمية • وخدمتم للثقافة الإنسانية • وقد اخترنا منها تلك الحقن الظاهرة الواضحة التى يدركها كل قارىء ، ويحس بها كل من يمر عليها ، ولا شك أن فى أثناء كتاباتهم فى الآراء والأفكار ما هو أخطر ممـا ذكرناه ، وأكثـر خفاء ، وأسرع تسرباً الى أذهان القـراء لا سيما القراء العاديين والقراء الـذين يقبلون على كل جديد ويهشون لـه •

إن القارىء العادى والباحث المتعطش ـ وهو يبحث عن المعارف ـ تمر به تلك الحقن هينة لينة ناعمة فى بادىء الأمـر ، ثم صريحة واضحة لابسة ثوب الحقيقة العلمية •

عندما يظن الكاتب المستشرق أنه قد استمال القارىء الشرقى إليه • وجذب انتباهه ، يضرب بعد ذلك ضربته ليحطم إذا ما اعتقد أن قارئة قد مر بالمراحل المطلوبة واستوعبها وهى : التشكك أولا ثم النقد الموجـه ثانياً ، ثم الإزدراء والاحتقار والإهمال والتحـول ثالثاً • ثم السير فى المنهج الذى يريده المستشرق الخبير أخيراً •

ويستطيع القارىء الكريم أن يتعرف على هذه الخطوات بسهولة عند المراجعة فى أكثر كتب المستشرقين ، من الفقرات السابقة نستطيع أن نأخذ الأمثلة الآتية :

أ — خطوة التشكك : « وان نحن شئنا قصر مصادرنا على المراجع العربية لا بد وأن نجد صعوبة فى فهم الأمور » . « من طبيعة العقل الشرقى القديم عدم التمييز بين الأسطورة والواقع » .

ب — مرحلة النقد الموجه : « ولا ننسى أن كاتبنا الكبير قد اكتشفت هذه المبالغات لدى كبار المؤرخين وعلماء الجغرافيا كالمسعودى والبكرى وليس فقط لدى الأسماء الصغيرة » . « ويظن هؤلاء المؤرخون العرب بأنهم قد أدوا واجبهم كاملا إذا ذكروا أسماء الملوك وسنى حكمهم » .

ج — مرحلة الأزدراء والاحتقار « قد تكون القصة منحولة لكن العثور على هذه الحيوية لدى مؤرخ عربى من الأمور السارة » ولا يذكر المؤرخون العرب — بجفافهم المعتاد وعدم اهتمامهم بتحليل الأسباب عن ذلك — الشىء الكثير » . « والغريب أن الكاهنة قد ألهبت خيال المؤرخين العرب الذين أعطوا عنها فكرة حية بخلاف عاداتهم فى الكتابة » .

٢ — السير فى المنهج : عندما تتم المراحل السابقة كما خطط لها فإن القارىء الكريم يكون قد استوعب منهج المستشرق واتخذ أسلوبه فى البحث ومعالجة قضايا الشرق وأعنى أنه يصبح مستشرقاً آخر أو بتعبير أصح مستغرباً لأنه يعالج قضايا وطنه ومجتمعه ودينه وثقافته وحضارته بالمنظار الذى يراها به مستشرق جندته عوامل خاصة لذلك العمل ، وذلك

يستطيع المستشرق أن يطوى خيمته ويأخذ عصاه ثم يرحل وهو مطمئن الى أن جهوده فى خدمة الاستعمار لم تذهب عبثاً .

٣ — التشكيك فى الإسلام :

لعل التشكيك فى الإسلام — وتصويره بأنه حركة بشرية كان الدافع إليها ما كان عليه العرب من الحرمان فى الجزيرة القاحلة وأنه لم يقدم شيئًا للإنسانية وأن ما فيه من خير إنما هو مأخوذ من الحضارات السابقة وأنه تبعا لما يتصف به أهله من بداءة وجفاف كان يحارب العلم والفلسفة — كان من أهم الأسلحة التى يستعملها المستشرقون فى محاربة الإسلام ولعل المعانى السابقة وما شابهها كانت من أخطر الحقن التى يدسها المستشرقون فى كتاباتهم بأساليبهم المختلفة تارة فى دقة وخفاء ، وتارة فى علنية واستظهار يبلغ حد الوقاحة والتهجم . وهم فى كل ذلك يتظاهرون بالبراءة والطيبة وخدمة العلم والإنسانية .

وإلى القارىء الكريم أمثلة من ذلك :

« أما المسلم الصالح فعليه أن يتجنب هذه العلوم أشد التجنب باعتبارها خطرا على الدين ، ومن ثم لذ للناس القول بأن النبى ﷺ إنما عنى هذه العلوم حين سأل ربه أن يعيذه من (علم لا ينفع) جولد شهير التراث اليونانى ص ١٢٦ .

« بينما الإسلام الرسمى قد حارب الغنوص نظريا فحسب ، لكنه فى الواقع وعمليا سمح له بالتغلغل والنفوذ الى معتقدات الجمهور » . كارل هينرش بكر — . التراث اليونانى ص ١٢ .

« أما أولياء الله فى الإسلام ففى مقابل الأرواح القدسية فى الهيلينية حتى أن محمدا — ﷺ — وهو نموذجهم الأعلى ينتهى بأن يصبح هو العقل الموجود منذ الأزل • وأن يكون الرحيم المخلص القدير ».

كارل هينرتش بكر • المصدر السابق :

« وكان الى جانبها تيار دينى شعبى عبارة عن طائفة من السحر والنارنجيات الهيلينية • النظرية والعملية • فالسحر والتنجيم وضرب الرمل ، والرؤيا والإعداد « وفوائد الحب ، والتمائم من كل نوع • هذه الأشياء أصبحت عربية إسلامية » • كارل بكر نفس المصدر السابق « واليوم نرى هذا النوع من السحر الإسلامى يسير طليعة للإسلام غازيا بلاد الزنوج الوثنية التى لا تؤمن بالإسلام الرسمى إلا بعد ذلك بزمن طويل غالباً » • بكر نفس المصدر السابق •

« والإسلام نفسه لم يكن شيئا غير استمرار الهيلينية شهير آسيوية شيئا فشيئا » بكر نفس المصدر •

« إلا أنه لما كان قد نظر الى الإسلام على أنه شىء جديد كل الجدة ، وحسب من جهة أخرى أن الدين والحضارة شىء واحد فقد نشأت أسطورة حضارة العرب ، تلك الأسطورة التى ألقت غشاء على عيون المؤرخين فحالت بينهم وبين رؤية هذه الحقيقة الناصعة • وهى أن الحضارة القديمة قد ظل حاملوها هم حاملوها الأصليين ، واستمر مسرحها هو مسرحها ذلك أن الإسلام كان هو الأجنبى الغريب الذى أراد أن يغزو العالم القديم المتأخر ، ولكنه خضع فيما بعد لما كان عليه هذا العالم القديم من تفوق وسمو » • بكر نفس المصدر السابق •

« ثم إن القانون الرومانى رتب ونظم قبل قيام النبى — صلى الله عليه وسلم — بدعوته بزمن قليل ، وأثره من بعد فى الشريعة الإسلامية واضح فى كل مسألة ، حتى أنه ليكاد يكون لـكل مبدأ من مبادئهـا ما يناظره فى القانون الرومانى » . كارل بكر المصدر السابق .

« وإذا ما بحثنا حضارات البلدان التى فتحها العرب استطعنا أن نحـكم بسـهولة بأن كل شىء بقى فى الإسـلام كما كان على عهـده القديم لم يضف إليـه جديد ، سـواء فى ميـادين السياسة ، أو فن الحـرب والاقتصاد والعلم والفنون والصناعات » . كارل بـكر نفس المصـدر السابق « أما نهضة الشرق التى نشهدها فى الوقـت الحاضر فمرتبطة لا بتراث الأوائل وإنما بأوروبا الحديثة » . كارل بكر المصـدر السابق . ومما جاء فى كتاب (الفرق الإسـلامية فى الشمال الإفريقى) تأليف الأستاذ الفرد بل ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ما يلى :

« وهذه الثروة الزراعية فى البلاد لم تكن انحدارا ضئيلا بالنسـبة الى نحو صحراء انجزيرة العربية » صفحة ٧٧ .

« عرب الفتح الأول كانوا جيوشـا حقيقية مؤلفة من المحـاربين العرب . صحيح أن غالبيتهم كانوا من البدو الفقراء فى جزيرة العـرب ، وكانوا طامعين فى النهب ، لكن زعماءهم كانوا من أهـل المدن » . نفس المصـدر ٢١٣ .

« ولم يكن القواد ولا المحاربون الجدد قـد قدموا إلى هناك على نية عـدم العـودة إلى مواطنهم الأصلية التى تركوا فيهـا نسـاءهم وأولادهم ، فبعد مدة معينة كان الكثير منهم يعودون إلى ديارهم الأولى

مثرين غالبا من الغنائم التى كانت من نصيبهم » • المصدر السابق ٣١٣ •

« إن هجرة العرب من صحرائهم فى القرن السابع الميلادى لم تكن حدثا جديدا بل هى حلقة من حلقات الهجرات الكبيرة للشعوب • تلك الهجرات التى تتجلى منذ فجر التاريخ » • المصدر السابق ٧٨ •

« لقد جمع تحت سلطان واحد قوى هو سلطان النبى محمد ﷺ أولا ثم سلطان الخلفاء من بعده أولئك العرب المتعطشون إلى حياة مادية أقل شظفا من تلك التى تهيئها لهم الصحراء » • المصدر السابق ٧٨ •

« وجنود الفتوح الإسلامية أولئك العرب القادمون من قبائل بدوية رحل فى الجزيرة العربية لم يكونوا شديدى الغيرة الدينية والتقوى الإسلامية » • نفس المصدر ٧٨ •

« ولهذا ينبغى ألا نرى فى جيوش الفتوحات الإسلامية الأولى وفى جحافل البدو المنطلقة من الجزيرة العربية بقيادة زعمائها وأغلب هؤلاء الزعماء من السكن الحضر فى المدينة ومكة — أقول ينبغى ألا نرى فيهم جيوشا من المتعصبين المستضيئين بالإيمان والمستعدين للموت فى سبيل نشر الدين الجديد » • المصدر السابق ٧٩ •

ولم تعد صورة جيوش صدر الإسلام • وهى تغدو دفوعة بحماسة بالغة ، وبإحدى اليدين السيف ، وباليد الأخرى القرآن ، لتخضع الشعوب للدين الجديد ، فقول إن هذه الصورة لم تعد مقبولة ، وليست إلا من خيال الشعراء » المصدر السابق ٧٩ •

« فخلال التاريخ يبدو لنا البـــدو بمظهر قلة التقـوى وبالعجـز تقريبا عن الارتفاع الى عقيدة التوحيد » • نفس المصدر ٧٩ •

« إن البدو مولعون بالنهب والسلب ، مولعون أيضا باراقة الدماء لكنهم لا يرضون بأن يقتلوا ـ أى لا يستعذبون المـوت » • المصـدر السـابق ٧٩ •

« ومن المؤكد قطعا أنه وجد بين قادة الحرب فى الفتوح الإسـلامية مؤمنـون مخلصون ، وجنـود لله ورسـوله صادقون ، مثل القـائد الشهير عقبة بن نافع الفهرى ، مؤسس القيروان ، وأصله من مكة ، لكن يبدو أن عددهم فى الغزوات الأولى لم يكن كبيرا ، وفى مقابل ذلك لم يكن الطمع فى الثراء غريبا عن تفكير الكثير من الجنود المجاهدين ، ويمكن أن نسوق أرقاما عن الثروات الطائلة التى ظفر بها غنائم فى الحرب ، مسلمون أتقياء مؤمنـــون صادقون وقد أورد اغناطيوس جولدتسيهر أسماء عدة منهم ابتغاء إثبات أن الزهد الدينى كان صفة نادرة عند الغزاة الأولين » المصـدر السابق ص ٨٠ •

« ويكفى أن نذكر هنا على سبيل المثال من بين الصحابة الذين بشرهم النبى ﷺ بالجنة لتقـواهم وإيمانهم ، الزبير بن العـوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وكلاهما توفى عن عدة ملايين » • المصدر السابق ٨٠ •

« وليس من شك فى أن الثروات الضخمة التى جمعها المحـاربون المجاهدون فى غزواتهم الأولى فى الشام ومصر والعراق قد حملت كثيرا من الأعراب على الاشتراك فى الجهاد واعتناق الإسلام ، ومن السـهل أن

نفهم كيف كان الجهاد مغريا للبدو الجياع الذين كانوا يعيشون عيشة حرمان وعدم استقرار » ٥٠ المصدر السابق ٨٠ .

« تلك هى الأسباب العميقة والصادقة التى دفعت بقبائل العرب الى الانقضاض على العالم القديم الرومى أو الفارسى فى منتصف القرن السابع الميلادى . فالحاجة المادية والطمع — كما يقول جولد تسيهر — « العقيدة والشريعة فى الإسلام (ترجمة فرنسية » ١١٣) أوجدا هؤلاء الجنود والغزاة الذين كانوا يقاتلون على طمع الدنيا » المصدر السابق ص ٨٢ .

« وبالنسبة إلى البعض كان الجهاد مغنما على أى حال : فإن كتب له الحياة عاد مثقلا بالغنائم ، وإن كتب له الموت فى الجهاد تخلص أولا من حياة الحرمان والشظف القياسية فى الصحراء العربية ، وثانيا إن كان من المؤمنين المخلصين كان الاستشهاد سبيله إلى حياة النعيم فى الآخرة » المصدر السابق ص ٨٢ .

« ومهما يكن من شىء فإن الحماسة لنشر الدعوة والرغبة فى الاستشهاد فى سبيل الله لم تكونا بالنسبة إلى الغالبية تلعبان غير دور ثانوى فى الغزوات الأولى للإسلام » المصدر السابق ص ٨٢ .

ومما جاء فى كتاب ماضى شمال إفريقيا تأليف إميل فيلكس جوتييه ترجمة هاشم الحسينى نشر الفرجانى ما يلى :

« إنها الهوة الفاصلة بين نهاية الإمبراطورية الرومانية والعصور

الحديثة ففى هذه الفترة نرى المغرب يغرد خارج سربه ، وكأنه فوق كرة أرضية أخرى — أرض المسلمين » نفس المصدر ص ٧٥ ٠

« ماذا حل بعلوم فارس التى أتلفها عمر بعد الفتح العربى ، وكذلك بعلوم الكلدانيين والأشوريين والبابليين والأقباط والإغريق » نفس المصدر السابق ص ٧٧ ٠

« وابن خلدون مؤمن بأن جميع الوثائق التى تعود إلى ما قبل الإسلام بعيدة عن مناله ، وأنها أتلفت وضاعت إلى الأبد » بالمصدر السابق ص ٧٧ ٠

« فلا شىء فى الشرق يفهم بمعزل عن الدين ، وقد وصف ابن خلدون انتشار الإسلام وانحساره وكأنه إمبراطورية عسكرية » المصدر السابق ص ٧٨ ٠

« وهكذا نرى أن أوصاف الدولة الشرقية تنطبق على ملاحظات ابن خلدون ، فهى ملكية تستمد أسسها من الدين ، وتهدم الثقافة بمرور الزمن » ٠ المصدر السابق ص ٨٥ ٠

« إن قرطاجة القديمة قد ساهمت فى إعداد البربر لاعتناق الديانة الإسلامية » ٠ المصدر السابق ص ١٠١ ٠

« وفى زحمة الغزوات والانتصارات والهزائم والمجازر التى تميز بها الفتح العربى فى المغرب ، تتبادر إلى أذهاننا واقعة واضحة : جميع المعارك كانت باتجاه طنجة وتيارات (تيهرت) وحول الأوراس المصدر السابق ص ١٠٤ ٠

« وحين نرى أن المغرب المسلم يتفوق على جيرانه الأسبان والصقليين والمصريين ، فلا يغرب عن بالنا أبدا أن جهـودهم قد عبثت منذ العهـد الرومانى » • المصدر السابق ص ١٢٧ •

« ولكن ما الذى جعل المسيحية تنهار فى الشمال الإفريقى ، إن أعظم هدية قدمتها روما للمغرب إنما هى إدخـال الجمل إليـه ، والجمل هو الذى أسهم فى انهيار دولة الروم » المصدر السابق ص ١٢٧ •

« إذن كيف للبدو الرحل أن يحملوا ظاهرة حضارية إلى البلدان الأخرى ؟ أو لم يقل فيهم ابن خلدون الـذى يحبهم أنهـم يهدمون بيتا بكامله ليستخرجوا حجرا لموقدهم • كما يرى رينان من جهته أن الساميين يرفضون فكرة الدولة » • المصدر السابق ص ١٤١ •

« وهنا يطرح سؤال : كيف ازدهرت بلاد الكلدانيين ، وصقلية وبلاد الأندلس تحت الحكم العربى رغـم بداوتهم ، وكذلك كيف لهم — وهم الرحل — أن يأتوا إلى بلاد المغرب بحيوان مفيد كالجمل فلو فعلت روما ذلك لمـا بدا الأمـر مستغربا نظرا لطبيعة الاستقرار التى تميز شعبها » المصدر السابق ص ١٤١ •

هذه مقتطفات يسيرة نقلتها عن بعض كتابات المستشرقين التى كانت تحت يدى حين كتابة هذا الفصل ، وبالرجـوع إليهـا يتضح للقـارىء الكريم أن المستشرقين كانـوا حريصين جـدا عـلى أن يشككوا فى أن الإسلام دين سماوى ، وهـم يحاولون أن يؤكدوا للقـارىء أنه امتداد للهيلينية المسيحية ، أو الغنوصية ، وأنـه استفاد من القـانون الرومانى استفادة كاملة حتى أنـه لا تخلو مسألة من مسائل الإسـلام من آثار

القانون الرومانى ثم هـم يحاولون أن يصوروه فى موقف من الحـرب العنيفة مع العلم ، وأنه قضى على آثار علم الأوائل ، وأحرق المكتبات . ومنع أتباعه من التغلغل فى العلوم العقلية .

وفوق كل ذلك فقد حرصوا كل الحرص أن يصوروا الفاتحين المسلمين الأول ، بأنهم إنما حملهم على الفتح ما هم فيـه من فقر وحاجة وشظف عيش . وأن الفتوح عندهم هى وسـائل غنيمة وإثراء فقط . وقـد بالغ بعضهم فى تصوير هذا حتى بلغ حـد السخف والوقاحة .

راجـع إن شئت الفقرة التى اشترك فيهـا المستشرقان تسيهروبل « فالحاجة المادية والطمع أوجدا هؤلاء الجنـود والغـزاة الذين كانوا يقاتلون على طمع الدنيا » .

أما المستشرق جوتييه فقد بلغ به الحنق على العرب إلى حد أفقده صوابه حتى أنه حـاول أن ينكر عن العرب — لأنهم بدو فى نظـره — شيئا يرتبط بالبدو طبيعة وبداهة . وعد إن شئت إلى إحـدى الفقرات السابقة لتقرأ فيها ما يلى : « كيف لهم — وهم الرحل — أن يأتوا إلى المغرب بحيوان مفيد كالجمل ، لو فعلت روما ذلك لـمـا بدا مستغربا » هذا كلام جوتييه وهو يرى أن العرب — وهم بدو — ليست من حقهـم أن يسوقوا الجمل لأنه حيوان مفيـد وكان يجـب عليهم أن يتركوا ذلك لروما ، ولعل شـدة الحقد والتنكر والتشكيك تبدو واضحة فيما يلى :

« وهنا يطرح سؤال : كيف ازدهرت بلاد الكلدانيين وصقلية وبلاد الأندلس تحت الحكم العربى رغم بداوتهم » ؟

إن المستشرقين يريدون أن يزرعوا فى ذهن القارىء أن الدين الإسلامى دين بشرى من وضع العرب ، وأن هؤلاء العرب عبارة عن مجموعات من العدو يسيطر عليها الجوع والحرمان فى بلادهم فانطلقت غازية تبحث عن الدنيا • وأن الأمة الإسلامية على العموم والعربية على الخصوص لم تقدم — فى الواقع — للإنسانية شيئا وما قام تحت حكمها من مظاهر الحضارة كان معبأ من الحضارات السابقة • وحتى اعتناق البربر للإسلام لم يكن اقتناعا به ولا محبة فيه وإنما كان نتيجة لروح قرطاجة المتغلغلة فيهم « إن قرطاجة القديمة قد ساهمت فى إعداد البربر للديانة الإسلامية » • هكذا يقول جوتييه •

إن وضوح السموم المدسوسة فى ثنايا هذه الكتابات لا تحتاج إلى الكشف والإظهار •

٤ — وضع المرأة :

ربما كانت المرأة من أهم القوى التى استعملها الغرب فى محاربة الشرق • فإن الصليبية بعد فشلها عن مواجهة الإسلام بقوة السلاح راجعت أساليبها ، وتحققت أنها لن تنتصر انتصارا حقيقيا كاملا على المسلمين فى معارك الحرب والقتال • فبدأت تغزوهم بوسائل أخرى فى هدوء وأناة • ومن تلك الوسائل استغلال المرأة •

كانت وسيلة الغرب فى استغلال المرأة تتخذ اتجاهين •

الاتجاه الأول :

هو تقديم المرأة الغربية نفسها لتتولى تحطيم الحصانة الخلقية

والدينية من المجتمع الشرقى ، والقضاء بوسائل المرأة الفردية على مقاومة الرجولة عند ذوى النفوذ والتأثير • سواء كان ذلك فى أفـواج سيـدات البلاطات والمجتمعات الراقية اللائى يقدمن تحت اسم التقدم الحضارى والمجتمع الراقى الى ذوى النفوذ والسلطات والمال فتسلطن عليهم وأوهن عزائمهم بشغلهم فى مجال عاطفى بعيد عن اليقظة والتفكير والحزم •

وكان ذلك فى أفواج الفئات وطالبات الهوى اللواتى اشتغلن بجـد فى زرع الشهوة والمباذل بين الطبقات الفقيرة والمتوسطة فشغلها بأنـواع السكر والمخدرات والحشائش والفجور عن واقع الحياة • وقـد نجحت امرأتهم — بما تحمل معها من مساعدات فى هذا المجال نجاحا عجزت عنه الجيوش والأساطيل •

الاتجاه الثانى :

يتعلق بالمرأة الشرقية نفسها ومحاولة إخراجها من قيمها وأخلاقهـا والتزاماتها لتلتحق بالمرأة الغربية فتساعدها أو تتسلم منها الدور فتقـوم به هى بدلا عن تلك الغربية التى يتوقعون أن ردود الفعل قـد تبعدها فى يوم من الأيام وترحـل عن المنطقـة •

وقد نجحت فكرتهم هذه أيضا بعض النجاح ، وحاولت المرأةالشرقية والمسلمة أن تقوم بنفس الدور الذى قامت به تلك المرأة الدخيلة فتزرع فى حياة المجتمع الشهوة العارية التى تشغل عن الكفاح المستمر المطلوب من أمة ذات رسالة • الواقع أن المرأة الشرقية ولا سيما المسلمة لا تزال فى مبدأ الطريق ، تتلمس خطاها — مترددة — فى حذر وإشفاق • ولكن المؤسف أن جميع الأيدى تدفعها بكل قوة الى النهاية المؤلمة •

والمستشرقون وهم يعرضون القضايا الإسلامية بأساليبهم الملتوية لا يغفلون موضوع المرأة بكثير من الوقاحة والتجنى والدس ، محاولين أن يسيئوا الى الشرق عموما والى الإسلام خصوصا ، عاملين بما فى وسعهم من دهاء الاستعمار ومكره على جذب المرأة المسلمة إليهم وجعلها تعتقد أن الإسلام أساء إليها ، ولم يعطها حقها الإنسانى تتمتع به كما تتمتع به المرأة الغربية . ليمكن لهم أن يوجهوها — توجيها غير مباشر — الى الاستمرار فى أداء وظيفة المرأة الغربية فى الشرق .

ولعل فى بعض المقتطفات التى نعرضها فيما يلى تتعرى أصابع المستشرقين الدساسة ، وتتضح نواياهم الكائدة .

يقول المستشرق الفرد بل فى كتابه : (الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى) صفحة ٥١ ما يلى :

« ويمكن أن نفترض أى الزوجة الشرعية كانت كما لا تزال اليوم ملكا لزوجها . أشتراها من أهلها ، مقابل سعر يتفق عليه ، والجارية المسرى بها يمكن أن تكون عن شراء مماثل ، أو عن سبى فى حملة حربية مثلا . وحتى فى الزواج بواحدة فإن مركز المرأة قلق » .

وبعد أسطر يقول :

« وإذا كان لهذا — أى الزوج — لا يسمح لزوجته بالزنا ، فالسبب فى هذا أولا هو أنه لا يريد أن يمتزج دم أجنبى بدم أبنائه ، لأنه قوام الأسرة هو رابطة الدم ، وثانيا لأنه لما كانت الزوجة ملكا له اقتناه ، فإنه لا يسمح بأن يشركه فى ملكه أحد غيره » .

وهذا التصور للزواج يؤدى الى نتيجتين رئيسيتين : الأولى هو أنه فى عرف البربر — وكذلك الشريعة الإسلامية — يعد زنا الزوجة جريمة من جرائم القانون العام ، يعاقب مرتكبها بالموت • والنتيجة الثنية هى أن الزوج له وحده دون الزوجة حق تطليق امرأته حين يريد وكما يريد ، والزوجة لا تستطيع حتى طلب الطلاق مهما أساء الزوج معاملتها • والزوج الذى يطلق زوجته يمكنه أيضا أن يطالب باسترجاع ثمن الشراء من الأب ، أو الزوج الجديد » •

هذه الصورة التى عرضها هذا المستشرق هى إحدى الدسائس الاستعمارية المبنية على الكذب للكيد والتى يراد منها تضليل الشباب المسلم عن واقعهم وتنفيرهم من دينهم واستجلاب سخطهم على الشريعة التى أنزلها الله لسعادتهم وسعادة البشرية من ورائهم لقد حاول المستشرق الماكر — وهو يتحدث عن تاريخ البربر القديم ثم يتسلل برفق الى تاريخهم الإسلامى ثم يتسلل برفق أيضا الى الشريعة الإسلامية — أن يضرب هذه الأمة المسلمة فى المغرب ويضرب الشريعة الإسلامية معها بأقوى ما عنده •

والملاحظة اليسيرة التى أريد أن أقولها للقارىء فى هذا الصدد أن للستشرق أن يتحدث عن البربر وغير البربر قبل الإسلام بما شاء وشاء له الهوى فإن الحديث عن الجاهلية فى جميع الشعوب لا تعنينا • وليس لدينا عنها صور صحيحة • أما أن يأتى الى الأمة المسلمة فى الشرق والغرب ويتجنى عليها وعلى الإسلام • فإن هذا الموقف يجب أن يكون له عليه حساب •

تصويره لعملية الزواج بأنها عملية بيع وشراء وأن المرأة تسلم فيه

للزوج مقابل ثمن يدفع للأب أو للزوج الأسبق من أرخص أنواع الكذب والافتراء عن البربر فى العهد الإسلامى وعن الإسلام • وصاحب هـذا الافتراء ــ سواء كان المستشرق أم أنه كان غيره ليس له حياء يعصمـه ولا كرامة يحرص عليها والا أجاز لنفسه أن يكذب عن الإسلام والمسلمين هذه الكذبة البلقاء •

والنتائج التى توصل إليها فزعم أن فى عـرف البربر وفى الشريعة الإسلامية أن زنا الزوجة جريمة يعاقب عليها القانون بالموت • هو تحريف للحكم الشرعى • لأن البربر يعملون بالإسلام والإسلام يعتبر جـريمة سواء صدرت من زوج أو زوجة أو من غيرهما أو قد قرر لهذه الجريمة عقوبة تختلف فى بعض الأحوال فهى للمحصن ــ سواء كان ذكراً أو أنثى ــ الموت بطريقة الرجم وهى لغير المحصن الجلد وأحكام الشريعة تتساوى عند البربر والعرب والفرنسيين إن كان فيهم مسلمون والصورة ــ التى يقدمها هذا المستشرق بأن المرأة فى الإسلام بضاعة تشترى بالثمن وأن الثمن الذى يدفعه الزوج يسترده إذا طلقها ــ وما يتبع هذه الصـورة من خيالات وأوهام يراد بها إثارة المرأة المسـلمة بالدرجـة الأولى ثم تشويه سماحة الإسلام ــ هى ولا شك إحدى الدعايات الفاجرة التى حرص الاستعمار أن يضلل بها عقول الشباب الذين لم يدرسوا الإسلام ولم يعرفوا حقيقة القواعد والأصول التى جعلها أسساً ودعائم لتكوين البيت والأسرة وأحسب أن هذه الصورة وحدها كافية لأن يعرف القارىء الكريم جهود المستشرق الفرد بل فى خدمة الثقافة الإسلامية هذا الرجل الذى كان فى خدمة إدارة الحماية الفرنسية منذ سنة ١٩١٤ والذى بقى يوالى جهوده فى المغرب متنقلا بين عواصمه وقراه تكفل له الدولة جميع المسـاعدات ما يقارب ثلاثين سنة من عام ١٩١٤ الى عام ١٩٤٢ أنه ولا شك واحـد

من تلك الشخصيات التى كانت تعمل جهدها فى تركيز الاستعمار وخدمة الغرب متسترة بخدمة العلم والثقافة •

وهو ولا شك بهذه الإقامة الطويلة فى مكان قد اكتسب سمعة واسعة بين المستشرقين والمهتمين بمثل هذه القضايا وربما يعتبر قـولـه حجـة وشهادته لا ترد •

وقول المستشرق إميل فيلكس جوتييه فى كتابـه (ماضى شـمال إفريقيا) ترجمة هاشم الحسينى ما يلى :

« فقد تخلى — أى سبتيموس — عن جميع حسان بلاده ليقترن بامرأة سورية » • ص ٩٣ ويقول :

« واحتفظ سبتيموس بجوليا على الرغم من فضائحهـا وتآمرهـا عليه • وهذا إن دل على شىء فعلى عمق الصلة بين ذلك القرطاجى وتلك الفينيقية » • ص ٩٣ ويقول :

« ثم إن كركولا تزوج على غرار أبيه من امرأة سورية مـن عائلة جوليا أمه ، أراد بذلك أن يخلق لنفسه جواً عائليـاً شرقيـا ، حتى إن مؤامرات الحريم كانت كما فى الشرق • أو لم تدفع جوليا ابنها كركولا لقتل أخيه جيتا ؟ صحيح أن هناك سابقة عند آغر بين أم نيرون • ولكن مضى عليه مائة وأربعون عاما ، ناهيك بأن قتل الأشقاء ، ومآسى الحريم فى الممالك الشرقية من الحوادث العادية التى ترافق تغير العهود » • نفس المصـدر ٩٤ ويقـول :

« إبنة البطريق جرجير التى سموها آمنة وقالوا إنهـا كانت مـن

نصيب واحد من الأنصار فوضعها هذا على ظهر جمل ، وسار بها وهو يردد : يا إبنة جرجير ستنسيرين مشيا على الأقدام ، ففى الحجاز تنتظرك سيدتك ، حيث ستحملين الماء فى القرب » •

المصدر السابق ص ١٧٥ ويقول :

« تمثل بنوع خاص وضع امرأة أورستقراطية مرفهة وقعت فى أيدى بدو رحل ، لقد كان من الذكاء بحيث أدركوا معنى المأساة ، ومن القوة بحيث أبوا إلا يستمتعوا بها » •

المصدر السابق ص ١٧٥ ويقول :

« وقضية العائلة ووضع المرأة أمران مهمان ولا ريب وما من هوة أعمق من هذه الهوة بين الشرق والغرب » • المصدر السابق ص ١٠٢ ويقول :

« ولم يذكر غيزل سوى امرأتين لم تكونا فى عداد الحريم » • المصدر السابق ١٠٢ ويقول :

وخليق بنا هنا الى أن نشير لنقطة بمهمة تتعلق بموضوع المرأة الشرقية الذى لم يتفهمه الغربيون • فصحيح أنها تعيش منعزلة ،ولكنها تحافظ على وضعها كامرأة ، وقد تكون رغم جهلها أكثر اندفاعا عنفا وشدة من المرأة الأوروبية ، وكلنا سمع بمكائد الحريم » • المصدر السابق ١٠٢ هذا مستشرق آخر بدأ خدمته للاستعمار الغربى من جزيرة مدغشقر ثم التحق بالجزائر ، قد بذل جهودا مضنية لخدمة الاستعمار تحت ثوب البحوث العلمية •

وفى أثناء كتاباته عن الشرق عموما وعن المسلمين خصوصا يحاول أن يدس صوراً مشوهة ، أصولها مستقاة من كتب القصص كألف ليلة وليلة وغيرها بينما يحاول أن يشكك — بما أوتى من جهد — فى المصادر الحقيقية فهو — فى موضوع المرأة — يركز على فكـرة الحريم كمـا يتصورهـا الغربيون :

مجموعات كبيرة من النساء يحبسن فى قصر واحد ليستمتع بهـن رجل واحد • فهن يعشن فى عالمهن الضيق فى كيد ومؤامرات للحصـول على قلب ذلك الرجل • وهو يلح فى إعادة هذه الصـورة الى الأذهـان بل إنه يستشهد بغيزل الذى لم يذكر سوى امـرأتين اثنتين ليستـا من الحريم • ولا شك أن تجمع النساء وصراعهن وكيدهن وممارستهن للبغاء والفجور السرى والعلنى فى قصور الملوك وفى قصور الأمراء والأستقراطيين فى فرنسا وفى غيرها من بلاد أوروبا وصراع البغايا والمحظيات مع الزوجات الشرعيات ، وتسلطهن على الملوك ورجال الـدولة وتسيرهن فى كثير من الأحيان دفة الحكم من وراء ستار وتأثيرهن على السياسة العامة داخلية وخارجية ومظاهر الحب والخيانات وتعارض رغبات الغانيات مع أحكام الكنيسة ، وتدخل السلطة الحاكمة ضد الكنيسة لحمايتهن وحماية عبثهن • صور واضحة فى تاريخ أروبا لا يمثل ما فى الشرق جميعه جزءاً يسيراً ، منها لكن كل ذلك مستساغ وحسن ما دام فى أوروبا وهو يدل على تقدم المرأة الغربية وثقافتها فى منطق المستشرقين • أما المرأة الشرقية فمـع جهلها قد يكون اندفاعها أعنف هكذا يقول جوتييه •

ولعله من السهام المسمومة التى يريد أن يوجهها الى الفاتحين المسلمين فى هذا الموضوع هو تلك الصورة التى رسمها للجندى المسـلم الفاتح

حين أسر ابنة جرجير ، هى كما يقول : فتاة أوروستقراطية مرفهة فيركبها جملا ليذهب بها من إفريقيا الى جزيرة العرب ولا يكفى هذا بل يتغنى بمأساتها فيقول لها ستسيرين على الأقدام حتى تصلى الى سيدتك التى تنتظرك لتحملى لها الماء فى القرب • ويعلق على هذه الصورة بقوله إن العرب من الذكاء بحيث يدركون هذه المأساة ومن القسوة بحيث يستمتعون بها • ولا شك أن ملايين النساء الشرقيات المرفهات اللائى لقين أسوأ فنون التعذيب بأيدى الاستعمار الغربى الممتد منذ عهود الرومان الى آخر عهود فرنسا فى الجزائر لا يلفتن النظر ولا تعتبر قضاياهن مآسى ولا معاملتهن بتلك الوحشية قسوة •

وليت شعرى كيف استطاع المستشرق غيزل أن يبحث عن المرأة فى المجتمع الشرقى كله فلم يجد فيه إلا امرأتين ليستا من الحريم ؟

هذه أساليب المستشرقين وهم يكتبون عن قضايا الشرق عامة وقضايا الإسلام خاصة ، متسترين بالبحث العلمى •

ولا شك أن بعضهم قدم خدمة قيمة فى الميدان العلمى ولكن البعض الآخر حاول أن يدس فى أبحاثه ما يظنه خدمة للأغراض الاستعمارية أو ما توحى به العصبية سواء كانت عصبيته دينية أو كانت عصبيته للغرب على الشرق • ولعل إميل فيلكس جوتييه يمثل الجانب المتهور فى هذا الموضوع • وكتاباته لا تتسم بأسلوب الباحث وإنما تتسم بصيغة الرائد الذى يمهد للغزو أو يبرر الغزو الواقع من دولة واقعة على شعب يرى جوتييه أنه يجب أن يخضع للحكم ويصبر عليه ويقدم السمع والطاعة •

ولعل القارىء الكريم يريد أن أضع بين يديه مقتطفات أخرى من كتابات إميل جوتييه ، يقول :

« وهنا نلقى نظرة على ما نسميه تاريخ المغرب فى العهد الإسلامى لنجد أن الذاكرة لا تستطيع حصر الحوادث المتشعبة المتشابكة ، والحروب العديدة التى لا تعرف أسبابها ونتائجها فى تلك الفترة » .

فما أن تقوم مملكة حتى تنهار . وتنشأ على أنقاضها أخرى بدون سبب واضح أو نتيجة ملموسة . إنه تاريخ خاو جاف بل أقــول صحراء قاحلة لا تعرف أولها من آخرها . المصدر السابق ٧٧ وتقول « والواقع أن حياة البداوة هى التى ميزت التنظيم السياسى فى الشرق والبـداوة هى التى تميز الشرق عن الغرب » . نفس المصدر ٨٠ وتقول « ذلك إن إفريقيا قرطاجنة والاندلس بلدان عريقان ثقافيا وهما الوحيدان فى المجال الإسلامى بالمغرب ، على أن العنصر الذى لعب دوره هنا هى فترة ما قبل الإسلام وما هيأتهم لاعتناق الديانة الجديدة » . المصدر السابق ص ١٠٤ ويقول :

« وأيسر ما يثير انتباهنا فى زحمــة الصراع بين الشرق والغرب فى بلاد المغرب انهيار النفوذ اللاتينى والمســيحى فى إفريقيا » . المصــدر السابق ويقول :

«وقد شاءت الامبراطورية الرومانية أن تخلق ثورة مثل هذه الثورة ونجم عنها عن غير قصد هزات اجتماعيــة وسياســية خطيرة » . نفس المصدر ويقول :

« لقد عرفت إفريقيا عهدها الـذهبى زمن الرومان فازداد عـدد سكانها وانتعشت اقتصاديا وأضافت روما لمآثرها الأخرى إدخال الجمـل الى البلاد » المصدر نفسه ويقول :

« إن إفريقية هى مهد المقاومة المغربية نظرا لتأثرهـا بالحضـارة اليونانية والرومانية » • المصدر نفسه ويقول :

« وليس تصرف كهذا أمراً مستغرباً فى هذه البلاد ، لكننا نستهجنه نحن الذين سرنا منذ ثلاثة آلاف سنة من مفهـوم المدينة القـديمة الى مفهوم الوطن » • المصدر نفسه ويقول :

« ذلك لأنها تحولت تدريجيا فأصبحت بلاد الشاوية ، وتبدد ما بقى من ثروات زراعية وفلاحين رومان فى القرن السابع ، سادت حياة التنقل بين السهل والجبل » • المصدر نفسه •

ولعل من الطريف أن أختتم هـذا الفصـل بملاحظتين مبنيتين على استنتاجات مضحكة للمستشرق الكبير •

الملاحظة الأولى يقول فى نفس الكتاب صفحة ١٥٣ ما يلى :

« ولابد لنا هنا من ذكر القرابة بين الزناتية واليهودية فى الأصل فالكاهنة أول أميرة على الزناتيين كانت تحمـل اسما يهوديا ، فكاهنـة تذكر بكوهين » •

أرأيت التعمق فى البحث ودقة الاستنتاج وسلامة المنطق أول أميرة على الزناتيين هى الكاهنة • ولفظ الكاهنة قريب من كوهـين • وكوهين

اسم يهودى إذن فالعلاقة وطيدة بين زناتة واليهود • ونسى هذا المستشرق الكبير أن اسم هذه الأميرة (داهيا) لا كاهنة وأن كلمة كاهنة كلمة عربية أطلقها عليها العرب لأنها كانت تمارس أعمال الكهان ولابد أن لمعنى هذه الكلمة لفظا بربريا كان يطلق عليها فلما جاء العرب ترجموه إلى هذه اللفظة واختفت اللفظة البربرية ، أو أن العرب من مبدأ الأمر أطلقوا عليها لفظ الكاهنة حين لاحظوا أنها تقوم بأعمال الكهان ومهما كان الأمر وحتى لو أن اسمها كان كاهنة أو أن اليهود كانوا يسمون كوهين لما كان لتشابه هذه الأسماء معنى ولا يصح أبدا أن نربط بينها علاقة لمجرد تشابه لفظتين وإلا فالمسلمون اليوم يسمون موسى وهارون وإسحاق وسليمان وداود فما رأى المستشرق الكبير فى هذا • أحسب أنه ليس أبعد فى السخف من هذا •

الملاحظة الثانية يقول فى نفس الكتاب ص ١٥٣ ما يلى :

« ومن المعروف أيضا أن ثورة يهودية قامت فى عصر الإمبراطور تراجان انطلقت من برقة • وقد شدد رينان كثيرا على هذه الثورة • قام هؤلاء وعلى رأسهم شخص يدعى لوقوفا ، اعتبروه ملكا عليهم — بعمليات ذبح واسعة النطاق لليونانيين والرومان ، وأكلوا لحمهم ، وتلذذوا بتلطيخ أيديهم بدمائهم ، منتزعين جلدهم عن أجسامهم ليجعلوا منه ثيابا يرتدونها • ويقدر عدد سكان برقة الذين قضوا على هذا النحو بحوالى مائتى وعشرين ألفا ، أى أن جميع السكان قد ذبحوا تقريبا ، وتحولت البلاد إلى صحراء قاحلة من جديد ولا تدل وقائع كهذه على مدى التعصب الدينى لليهود وحسب • بل على أن هؤلاء كانوا منظمين أحسن تنظيم » •

إننى أترك هذه الفقرة لحكم القارىء دون تعليق ٠

مع إميل فيلكس جوتييه

كتب بعض المستشرقين عن الإباضية كمـا كتبوا عن غـيرهم من المسـلمين ٠

ولعل نقط الانطلاق التى يبدأ منها المستشرقون مسيرتهم - حـين يكتبون عن القضايا الإسلامية خاصـة ٠ وقضايا الشرق عامة - هى فنظرة واحـدة ، يستطيع الدارس أن يحددها ويرسمها فى وضوح فى كتاباتهم ٠

أما الدوافع التى تدفع أحدهم إلى الكتابة عن بلد أو قضية أو فرقة ٠

فهى تختلـف من شخص إلى شخص ٠ ومن دولة إلى دولة ٠ وإن كانت غالبا ما تتلاقى فى أصول ثابتة عندهم لا تعدوها ٠ وإنما تتسم كتابة كل واحد منهم بطابعه الخاص المميز ٠ حسب تكوينه الخلقى ، وإدراكه لنوعية القارىء الذى يقصده بالذات ، ويتجـه إليه برغبته فى إحـداث التأثير عليه ، وإقرار مفاهيم معينة فى ذهنيته ٠ ثم مدى حماسته لدوافعه الحقيقية ومدى تمكنه من السيطرة على انفعالاته ، وإحساساته ، وتأثراته النفسية بالأحداث والقضايا التى يعالجها ٠

ينظر المستشرقون إلى الإباضـية - عندما يتحدثون عليهم - من نفس الزاوية التى ينظر منها أكثر المؤرخين ٠ فيعتبرونهم فرقة من فرق الخوارج وليس هذا فحسب بل إنهم ينسبون إليهم جميعا كل ما يصـدر عن شواذ الخـوارج وعن المغامرين من طلاب الحكم أو المال ٠ ممن كانت لهم حركات عنف فى جهة من الجهـات ٠

بين يدى الآن مجموعة من كتابات المستشرقين الذين تحـدثوا عن الإباضية وسوف آخذ منهم نموذجين للمناقشة •

الأول : إميل فيلكس جوتييه كنموذج للمستشرق المتطـرف الـذى لا يخفى عصبيته للغـرب ، ولا محبته لاستعمار الشرق ولا أسـلوبه فى الكيـد •

والثانى : كارلو الفرنسو فلينو كنموذج للمستشرق الذى يسـير وفق منهج علمى واضح •

وفى هذا الفصل نقف وقفات قصيرة مع المستشرق جوتييه فى كتابه « ماضى شـمال إفريقيا » والحقيقة أن القارىء المنصف عنـدما يقـرأ هذا الكتاب يحس بالكيد الاستعمارى فى كل صفحة من الكتاب ، وتتراقص أمام عينيه الدسـائس فى كل موضـوع ، وإلى القـارىء الكريم بعض الصور الواضحة التى تتبدى له وهو ماض فى القراءة :

١ ـ حرص شـديد على إثارة النزعة القبلية بين البربر • والعمل على تذكيرهم بأنهم ينتمون إلى قبائل شتى مختلفة تنتمى كل واحـدة منهـا إلى عرق • وأن بعض تلك القبائل كانت مؤهلة لأن تحكم وتسود ، وأن قبـائل أخـرى لا تستحق ذلك الشرف • وأن صراعا عنيفا وقـع بينها تغلبت فيه هذه على تلك بسبب ظروف خارجية هى مجىء الإسلام ومساعدته لبعض تلك القبائل على بعض فضيع عليها فرصـا للمجد • وهذه الصورة واضحة تتراءى لك فى كل موضـوع •

٢ ـ محاولة إثارة العنصرية بين العرب والبربر ، واعتباره المعارك

الحامية التى وقعت زمن الفتح الإسلامى ليست هى معارك بين الإيمان والكفر وإنما هى معارك بين عرق وعرق • أو هى معارك بين غاز يريد الاستعمار والاستثمار ، ومدافع عن بلاده وخيرات أرضه • يكذلك ما وقع بعد ذلك من ثورات وحروب بسبب انحراف الحكم يردها كلها إلى صراع ، قبلى عرقى ليس أكثر •

٣ — التهوين من شأن البربر من الناحية الحضارية عند مقابلتهم بالعرب والتهوين من شأن العرب أيضا من هذه الناحية عند مقابلتهم بالرومان أو الإغريق أو حتى بالأمم الشرقية المجاورة لهم كالفرس •

٤ — الرفع من قيمة الرومان وإرجاع ما فى المغرب من مظاهر الحضارة والازدهار فى القديم إليهم وحدهم أما فى الحديث فإلى فرنسا •

٥ — الحرص على تصوير الخوارج عموما فى شمال إفريقيا بأنهم بدو ، ولا يمكن أن تقوم على أيديهم حضارة ، وإعطاء هذه الصورة نفسها عن البربر أيضا وعن العرب • وإرجاع التراث الحضارى الإسلامى إلى ما يسميه — الحس الحضارى — العميق الجذور الباقى والمترسب عن الشعوب التى استعدت المغرب قبل الفتح الإسلامى وأهمها الرومان •

٦ — الزعم بأن الحضارة التى قامت فى العهود الإسلامية إنما قامت فى نفس الأماكن التى قامت فيها الحضارة قبل الإسلام — بالحس الحضارى — السابق ، حتى أن المدن الهامة فى المغرب الإسلامى إنما قامت على أنقاض المدن الهامة فى العهد الرومانى •

٧ — تصوير حركة الخـوارج بأنها هرطقـة تستمد جـذورها من الدوناتية المسيحية •

هـذه بعض الصور التى تلمسها وأنت تقـرأ ما كتبه جوتييه عن الإباضية ولا شك أن صورا أخرى كثيرة تبدو لك وأنت ماض فى قـراءة الكتـاب •

أما فيما يتعـلق بالإباضية فلعل القـارىء يرافقنى فى الخطـوات القصيرة الآتية : يتحدث المؤلف عن الإباضية تارة ضمن الإطار الخارجى ، وتارة يخصهم بالحديث حيث يقول فى كتابه (ماض شمال إفريقيا) ترجمة هاشم الحسينى نشر الفرجانى ص ٢٠٠ ما يلى : « ولكى نفهم مذهـب الخـوارج ينبغى ألا نعزله عن غيره ، بل يجب أن نقـر به من الثورات الأخـرى التى عرفها المغرب ، حيث نجـد وراء الهيجان الدينى انتفاضة للمشاعر الطبقية والعرقية ، والخارجية شبه شىء بهرطقة مسيحية هى الدوناتية ، وقد ولدت فى عصر كان فيه كل شىء مطبوعا بالطابع الدينى • وقد شـدد ماسكوراى على وجود شـبه بين الدوناتية والخارجية » • ويضيف المؤلف إلى هذا القول فى صفحة ٢٠٢ ما يلى :

فماسكوراى على حق إذن فى ذكر الشبه بين الخوارج والدوناتية ، لا بـل إن الخارجية هى الدوناتية عينها منقولة عن الإطار المسيحى إلى الإطار الإسلامى » • هذا نمط من أنماط التحليل والحـكم عند جوتييه أى لكى نفهم معنى الخارجية يجب أن نقربهـا إلى غـيرها من الثورات الواقعة فى المغرب ، وتلك الثورات إنما قامت — فى نظر جوتييه — على الهيجان الدينى والمشـاعر الطبقية • وليس فى هـذا ما يمنع أن تكون

الخارجية فى الإسلام هى الدوناتية المعروفة فى المسيحية ، وانتقلت عبر العصور حتى واتتها ظروف الظهور فظهرت فى هذا النمط . أى أنه حتى الانحرافات والتطرفات عند المسلمين ينبغى أن تكون مستمدة من المسيحية ، أو من الغرب ، ذلك أن الشرق بما فيه — حسبما يريد الاستشراق — ليس له قوة الحركة والانتفاض والحياة .

ويقول جوتييه فى نفس الكتاب ص ٢٠٧ ما يلى :

« وينقسم خوارج المغرب إلى فرقتين : الصفرية والإباضية وتمثل الصفرية التطرف ، والإباضية الاعتدال ، وهم أشبه بالبلاشفة والمناشفة ، تباعد بينهم كراهية عميقة الجذور . لقد هاجم صفريو نغزاوة وورفجومة مدينة القيروان بوحشية لا نظير لها » .

ثم يقول فى صفحة ٢٠٩ ما يلى :

« وقد زحف أباضيو طرابلس من زناتة وهوارة لمحاربة بنى ورفجومة ، وانتزاع بقايا القيروان منهم . على أن تدخل هؤلاء لم يكن بدافع إنسانى محض . إذ ليس من المستبعد أن يكونوا قد شعروا بالحسد من إخوانهم فى المذهب ، وأرادا أن يظفروا لأنفسهم ببعض الفائدة » هذا منطق المستشرق جوتييه فى مناقشة الأحداث وتحليل بواعثها وتعليل الدوافع إليها . يفترض أولا أن الإباضية والصفرية إخوان فى المذهب ، ويفترض ثانيا أن عداوة عميقة الجذور — كالتى بين البلاشفة والمناشفة — تقوم بينهم ويذكر أن الصفرية قاموا باحتلال القيروان وارتكبوا فيه كثيرا من الفضائح ثم يذكر أن الإباضية سارعوا إلى طرد الصفرية من

القيروان • ويفترض ثالثا أن عمل الإباضية هذا لا ينبعث من دافع إنسانى ، ويفترض رابعا أن هذا الدافع الذى دفع الإباضية إلى استخلاص القيروان من أيدى ورفجومة إنما هو الحسد لإخوانهم فى المذاهب ثم الظفر لأنفسهم ببعض المكاسب • قصور فى الافتراضات يرفع بعضها على بعض دون أساس أو على أساس من الوهم • وتصور وتصوير لعلاقات بشرية ، ونوازع نفسية لاثنين على علم ولا تستند على خبر • وإصدار أحكام على حركات قامت قبل قرون تناقض كل المناقضة ما تذكرها عنها كتب التاريخ والسير العربية • فما هى الأسباب التى يستند إليها المستشرق جوتية فى افتراض الفروض وإصدار الأحكام على الوقائع وعلى دخائل النفوس • إنه لا شىء مطلقا غير دعوى عريضة وقياسات على ما عند الغربين ، إنه يقول إن الإباضية طردوا الصفرية من القيروان حسدا وطمعا فى بعض الفائدة • والحسد دافع نفسى خفى كيف فطن له هذا المستشرق الذكى بعد مضى هذه القرون الطويلة •

إنه لو اقتصر على دعواه أنهم يطلبون لأنفسهم بعض المكاسب — رغم أن كتب التاريخ تكاد تجمع أن الإباضية فى استيلائهم على القيروان لم يأخذوا منها شيئا ألبتة ما عدا خرجا سرقة أحد المقاتلين فلما انكشف عوقب عليه وعزر أمام أعين الجند جميعا — لكان لدعواه خطأ فى النظر • لأن نظرة المستشرق جوتييه إلى حركات الدول والشعوب لا تنبعث إلا من الفهم الاستعمارى ، والفهم الاستعمارى لا يتحرك إلا بعد تقدير الفوائد والمكاسب والمغانم • أما ما عبر عنه هو بالدوافع الإنسانية فقد قتلت فى الحس الغربى فى معاملته • والدوافع الإنسانية فى الحس الغربى إنما قتلها حملة الأقلام والألسنة ، قبل أن يقتلها حملة السلاح وطلاب المطامع •

وما من حملة عسكرية وجهها استعمار الغربى إلى الشرق فى التاريخ القديم أو الحديث حتى تلك التى سبقت الديانات إلا وقد مهدت لها ألسنة وأقلام سابقة ، وبرزتها ألسنة وأقلام مرافقة ، وأثنت عليها ومجــدتها وأقلام لاحقة • وإنك لتقرأ اليوم للمستشرق جوتييه وأضرابه فتجدهم يبررون بل يمجدون جميع الحملات الاستعمارية التى قام بها الإغريق والرومان بل ويتحدثون عنها بشىء من الفخر والاعتزاز ، ولا يبدو أنهم يحسون بأن تلك الحملات الاستعمارية فى تاريخ سحيق كان الباعث عليها والدوافع إليها إنما هو الحصول على الفوائد ، ولم يزعموا أن سببها كان الغيرة والحسد • ذلك أن للمستشرقين منطقين : منطق يعالجون به قضايا الغرب ومنطق يعالجون به قضايا الشرق • ولم يدخل فى اعتبارهم أبداً أن الغرب والشرق يستويان فى أى مظهر من مظاهر الحياة ، وإ كانوا يسبغون على جميع مواقفهم دعوى فضفاضة بأنهم متجردون للعمل تحت اسم البحث العلمى •

ويقول فى صفحة ٢٢٤ ما يلى :

« وراء مملكة تاهرت شخصية مشرقة مرموقة كما هى حال المملكة الإدريسية ، والأسره الفاطمية ، إنه عبد الرحمن بن رستم ، ويرجع أصله الى رستم الشهير الذى قاد الجيش الفارسى فى معركة القادسية ، وهو فارس من أحفاد ، كسرى ، ولا غرابة أن شاهدناه على رأس فئـــة من الهراطقة فى الوقت الى ازداد فيه النفوذ الفارسى زمن العباسيين » •

هكــذا يعلل جوتييه نجاح الدولة الرستمية بتغلغل التأثير الفارسى فى الدولة العباسية • ولا شك أن التغلغل الفارسى — إن صح هذا التعبير — كان لتأييد الدولة العباسية وتثبيت دعائمها • ولا شك أن الدولة الرستمية

بزعامة عبد الرحمن ومن بعده كانت مناهضة للدولة العباسية فكيف استطاع جوتييه أن يوفق بين هذا ؟ فيجعل سبب نجاح الدولة الرستمية إنما يرجع الى وجود يد فارسية ، واليد الفارسية كان لها النفوذ الواسع فى الدولة العباسية . فكيف سمح النفوذ الفارسى المتغلغل فى الدولة العباسية أن تنشق عنه يد فارسية لتضرب هذه الدولة المبنية على النفوذ الفارسى . إنه تناقض واضح فى المنطق وفى أحداث التاريخ لأن وجود عبد الرحمن ابن رستم فى المغرب العربى لم يكن له أية علاقة بالقومية الفارسية ولا الفرس الذين تغلغلوا فى الدولة العباسية . ولا بأمجاد الفرس التى انتهت بظهور الإسلام والسبب فى هذا واضح فإن عبد الرحمن قد انقطعت صلته بالفرس تمام الانقطاع وهناك حلقة من طفولته غير واضحة إلا أن كتب التاريخ تذكر أنه حج مع والده فتوفى والده بمكة وتزوجت أمه برجل من المغرب (القيروان) فرحلت معه ورحل معها طفلها عبد الرحمن وهناك فى القيروان تكون عبد الرحمن فى مجتمع مسلم فقط أهله من العرب والبربر ولم يعرف أن أحدا من الفرس كان هناك فلا مجال أبدا للمحاولة فى ربط هذه الحركة بحركات أخرى فى الشرق تنبعث من دوافع قومية .

إن المستشرق جوتييه يضع نصب عينيه فرضاً ثابتا لا يتحول عنه هذا الفرض هو أن الإسلام ممثلا فى مذاهبه كلها أو فى بعضها لا تقوم على يده حضارة . فإذا قامت حضارة فى مكان ما فلا بد أن يكون هناك سبب خارج عن الإسلام والمسلمين وبما أن الدولة الرستمية قد قامت على يدها حضارة لا يمكن أن يكذبها التاريخ فالمستشرق جوتييه يعترف بوجود تلك الحضارة ولكنه ينكر أن يقوم بها الإباضية وإنما يعزوها لعاملين : الحس الحضارى الرومانى ، والقومية الفارسية التى تمثلت فى عبد الرحمن بن رستم .

وكأنما يريد أن يقول أن بيئة المغرب الإسلامى لا يمكن أن تنجب قيادات فإذا قامت فيها حركة فلابد أن تـكون القيادة مندسة من جهة ما كما هو الحال مع الدولة الإدريسية والفاطمية والرستمية • وما دام الإباضية يمثلون فى نظر (جوتييه) فرقة من الهراطقة مفتقرة الى زعيم فليكن هذا الزعيم فارسيا تغلغل فى المغرب كما تغلغل فى المشرق وأخوته من الفرس ، وأن معارضاً للمخطط الفارسى فى تأييده للدولة العباسية • وهذا التمحل والتأويل كله لتسقيم فرضيات جوتييه •

ويقول جوتييه فى صفحة ٢٢٧ ما يلى :

« يقول ما سكوراى بحق ما من واحة بين قابس وفجويج وسجلمانة ألا وهى مدينة بتطورها للخوارج — صفريين كانوا أم إباضيين — لقد كانوا سادة الصحراء » •

ويقول فى صفحة ٢٢٨ ما يلى :

« إن تاهرت كانت مركزا سياسيا هاما فى الفترة التى رافقت ظهور الجماليين الرحّل القادمين من الشرق ، والذين كان لهم شأن كبير فى زعزعة أركان نوميديا » ويقول بعد أسطر :

« وهكذا تعتبر تاهرت والمنطقة المحيطة بها مركزا للاصطياف يقصده سكان الصحراء مع قطعانهم هربا من الحر الشديد » •

ويقول فى صفحة ٢٢٩ ما يلى :

« وتدل الطبيعة الجغرافية لتلك المنطقة أن تاهرت مملكة

للبدو الأقحاح ، وقد اختفى الإباضية كفرقة دينية فى تاهرت اختفاء تاما فى حين استمروا على شكل جماعات صغيرة فى جبل نفوسة والزاب أى فى المناطق الصحراوية ، وليس الأمر وليد صدفة لأن قوة الدولة الرستمية كانت فى الصحراء » •

ويقول فى صفحة ٢٢٩ ما يلى :

على أن هذه القبائل الرستمية من البدو الرحل على كل حال •

ويقول فى صفحة ٢٣٠ ما يلى :

« إن مملكة الرستميين لم تتجاوز حدود الأراضى الوعرة والصحراء » •

يفرض المستشرق جوتييه أن الإباضية عبارة عن قبائل بدوية ويركز على ذلك تركيزا شديدا ، ويدعى أن طبيعة المنطقة التى يعيشون فيها طبيعة صحراوية بدوية • ولما كانت تاهرت تمثل مظهرا حضاريا واضحا لا يمكن تجاهله وأن هذا المظهر يرد دعوى المستشرق هذه فقد حاول أن يهرب من مجابهة المشكلة بنوع من الأهواء فزعم أن الإباضية بدو أقحاح وأن تاهرت هى مملكة للبدو الأقحاح يعيشون عليها • ولكن أحدا لا يقتنع أن البدو الأقحاح يكونون مملكه كما أن طبيعة تاهرت نفسها تستعصى على وصفها بالبداوة وهى التى يقول فيها هذا المستشرق نفسه فى صفحة ٢٢٨ •

« تقع تاهرت على ارتفاع ١٢٠٠ متر ولا يقل ارتفاع المناطق

المحيطة بها عن ألف متر وشتاء تاهرت يمتاز ببرودته وضبابيته ورطوبته وثلوجه أى على عكس الصحراء تماما » . فلما وجد أن حقيقة تاهرت تتعارض مع وصف البداوة ووجد أن الإباضية قد أقاموا فى هـذا المكان دولة بالفعل ظلت مزدهرة قرنا ونصف على أقل تقدير ما يبعـد عنهـم وصف البداوة افترض فرضا خياليـا وهو أن الإباضية ــ وهم بداة ــ كانوا يقصدون تاهرت فى الصيف هربا من حر الصحراء أى أن تاهرت كانت مصيفا للبدو الرحـل . وكأنمـا كانت الدولة الرستمية قطعـا من الأراجوز تتفرق خلال السنة فى مناطق عدة فإذا جاء الصيف اجمعت فى تاهرت للقيام بدور الدولة لمحرك خفيف يعبث بالأزرار من وراء ستار .

وكأنما هذه الافتراضات كلها لم تقنع جوتييه نفسه فكان يلح على مزيد من الافتراضات . ولكن افتراضه الأول « الإباضية قبائل من البدو الرحل الأقحاح » افتراض لا يحتمل المناقشة ولا يقبل النقد عنده ولذلك كان عليه أن يلتمس الحلول لما ترتب عن هذا الافتراض من مشاكل وجاءت الحلول بعد مجموعة من الافتراضات ينبنى بعضها على بعض .

الافتراض الأول الإباضية لا يكونون إلا بدوا رحلا .

الافتراض الثانى البدو الرحل لا يمكن أن يتغيروا فيصبحوا بنـاة حضارة تاهرت حقيقة واقعة .

قيام حضارة فى تاهرت حقيقة واقعة عنـدما كانت تحـت سلطان الإباضية .

الافتراض الثالث الإباضية لم يكونوا يقيمون فى تاهرت وإنما كانوا

يتخذونها مصيفا فيقبلون عليها فى موسم الحر ويتخلون عنها وينزحـون بعيدا فى بقية المواسم والفصول .

فكيف قامت تلك الحضارة فى تاهرت تحت حكم الإباضية ؟

الجواب فى ذلك عنـد جوتييه بسيط والسبب واضح معروف .

إن الحضارة إنما قامت فى تاهرت بالحس المدنى الروحانى السابق كمـا أوضحت ذلك للقارىء الكريم من قبل . ولابد للإباضية ولا لسكان تاهرت ولا لدولتهم فى ذلك . وليتضح لك هـذا المعنى اقرأ للمستشرق جوتييه فى كتابه ص ٢٢٧ ما يلى :

وليس فى تاهرت اليوم سوى آثار رومانية ، ويفترض غيزل أن الرومان أنشأوا فيهـا مراكز عسكرية على الحـدود ، ثم منطقة سكنية للمدنيين ، ولم يجـد الآثار الباقية ما يؤيد فكرته ، وكان لتاهرت أهمية كبرى فى عهد السيطرة البيزنطية » .

ويقول بعد أسطر :

« ومن الناحية الأثرية البحتة هناك آثار الجدار جنـوبى تاهرت فى المنيا العليا . وهى عبارة عن أضرحـة شبيهة بتلك الموجـودة فى مدغاس « وبقبر المسيحية » ولكنها تعود لوقت متأخر عنها وقد عثر فيهـا على كتابة إغريقية ، كما استخدم فى بنائها أدوات تعود لعصر سابق لها كبقايا هندسية مسيحية وكتابات منقوشـة .

« ويستنتج غيزل أنها عاصرت العهد البيزنطى وينسبها إلى أهالى تاهـرت » .

ويقول جوتييه :

وتاهرت فى العهد البيزنطى كانت فى نفس المكان الذى تقع فيه اليوم وعاصمة الرستميين (تاهرت الجديدة) تبعد خمسة أميـال غربى تاهرت القـديمة •

وإذا كان رستم قد أطلق على مدينته لقب الجديدة فهذا ما يؤكـد أن المدينة القديمة ماثلة فى الأذهان » •

وعندما يتتبع القارىء الكريم البحث كله فى هذا الفصل يجـد أن الصورة التى يرسمها جوتييه تبدو كما يأتى :

إن الإباضية باعتبارهم خوارج لا يكونون إلا بدوا وطبيعة البـدو لا تستقر فى مواضع الحضارة ، ولا تبنى نظاما ، ولا يثبت لها حـكم ، وقد قامت بالفعل تحت حكم الإباضية حضارة دامت قرنا ونصف ، وثبت لهم هناك الحكم فما هو السبب ؟

السبب أن هذه الحضارة إنما بنتها يد فارسية تجرى فيهـا دمـاء الحضارة — وفى موطن قامت فيه حضـارات بيزنطية ، ورومانية قبـل الفتح الإسلامى • فالمكان منبت خصب للحضارة واستقرار الحكم •

أما علاقة الإباضية بالموضوع فهى لا تتعدى رحيلهم إليها فترة من السـنة ، واتخاذها مصيفا • أما البناء الحقيقى الذى قام عليه الحـكم وتبحث عنه الحضارة فإنما قام على ركنين أساسيين : الحس الحضارى الفارسى الوافد من الشرق فى صـورة عبد الرحمن والحس الحضـارى الغربى المندس فى قرية تاهرت منذ عشرات القرون عندمـا كان هنـاك

الرومان • أما ما ينسب إلى الإسلام أو إلى مذهب من مذاهبه مما يقوم به أتباعه فهو طفح ظاهرى لا يتجاوز الأسماء •

بعد هذا أحب أن أقول إن هناك عدة أشياء تقوم ضد افتراضات جوتييه وتدحضها ولعلها تتلخص فيما يلى :

١ — عبد الرحمن بن رستم وإن كان فارسى الأصل إلا أنه خرج دون أن يعى أو يعرف شيئا عن حضارة الفرس وعاش فى القيروان واكتسب مواهبه فى بيئة بربرية ثم عربية محضة ثم هو فرد واحد فما عساه أن ينجز من مقومات الحضارة • فإسناد الحضارة التى قامت فى تاهرت إلى شخصية عبد الرحمن الفارسية ضرب من الخيال •

٢ — اعتبار أن الحضارة التى قامت فى تاهرت كان من أهم عواملها ذلك الحس الحضارى المختلف فى تربتها منذ قرون من حضارة الرومان • وأن الحضارة لا تنبت إلا فى أماكن خاصة بها كما تنبت الأشجار فى تربة معينة وأن هذه التربة المعينة لابد أن تكون قد أعدتها فى يوم من الأيام دولة تحمل مقومات الحضارة وعلى هذا الأساس فقد نبتت الحضارة فى تاهرت زمن الحكم الإباضى لأن تربتها صالحة لإنبات الحضارة بعد ما أعدها الرومان لذلك فى عصور سابقة وهذا المنطق هو الآخر ضرب من الوهم والخيال ولا شك أن الإنسان هو الذى يكون الحضارة وأنه هو الذى يختار لها البيئة والمكان ، ولذلك فإن المسلمين على اختلاف مذاهبهم قد كونوا حضارات مختلفة فى أماكن مختلفة بمحض اختيارهم للمكان والبيئة — كما كون غيرهم — فإذا صادف أن حضارات متعددة من أمم متعددة قامت فى مكان واحد • فليس

ذلك لأن ذلك المكان ينبت الحضارة • وإنما لأن الإنسان الذى يعرف كيف يكون الحضارة قد وقع عليه اختياره •

٣ ـ اعتباره أن الإباضية (بدو أفحاح) فرضية لا يساعده عليها التاريخ • ونظرة تتبعية بسيطة إلى تاريخهم فى المغرب الإسلامى ومضطر بهم فيه منذ وجودهم فيه إلى عهد المستشرق جوتييه تدل دلالة واضحة أنهم ليسوا كما يزعم • وأنهم إلى التحضر أقرب فى جميع مواطنهم ويتضح ذلك فى الصور الآتية :

الأولى : كانوا يعمرون جبل نفوسة بمدنه وقراه فى (ليبيا) ولهم فيه حياة حضرية مستقرة إلى الآن وكانوا يعمرون جزيرة جربة ولهم فيها حياة حضرية مستقرة إلى الآن فى زوارة • وكانوا يعمرون المدن والقرى فى الجنوب التونسى سواء ما كان منها فى الجبال أو الواحات ولهم فيها حياة حضرية مستقرة إلى عهد قريب وكانوا يعمرون تقرب وبغابى وما إليها ولهم فيها حياة مستقرة سجلها التاريخ وكانوا يعمرون وارجلان وسدارثة ولهم فيها حياة حضرية مستقرة بل إن سدراتة تعتبر من المدن الأثرية الجزائرية فى العهد الإسلامى • أما وارجلان فقد كانت مركزا حضاريا تجاريا بين الجزائر وإفريقيا السوداء وكانت مركز القوافل ومقرها وممرها ولا تزال • وكانوا يعمرون وادى ميزاب ولهم فيه حياة حضرية مستقرة ربما فاقت مدن الشمال ولا تزال •

هذه أهم أماكن الإباضية فى المغرب • ولا يمكن أن يقال عن هؤلاء ـ بحال من الأحوال ـ أنهم بدو • أما الذين سكنوا ـ منهم المغرب الأقصى أو بعض بلاد الأندلس • فلا يستطيع أحد أن يصفهم بالبداوة •

الثانية : كانت هنا لك بعض القبائل البدوية التى اعتنقت المذهب الإباضى واستمرت على حياتها فترة من الزمن ولكن الإباضية كانوا يقاومون البداوة مقاومة مستمرة ويتخذون معها مواقف غاية فى العنف منها إنهم يمنعون تزوج الحضرية بالبادى حتى أنهم شددوا على أبى عثمان الدجى حين زوج بنته (منزو) وبمحض رغبتها واختيارها لأحد أقربائهم من البدو وندم أبو عثمان على عمله ذلك ندما شديدا فيما بعد •

وكما قال أحد علمائهم حين وجد شخصا يعرفه يرعى غنما : نعمت الغنم التى ترعاها لحية ، وبئست اللحية التى ترعى الغنم • وعندما لا يتمكنون من إقناع حى أو قبلة بترك البداوة كانوا يعملون على إدخال أنواع من وسائل التحضر إليهم فكانوا يكونون لهم ما يشبه ما يسمى اليوم بالمدارس المتنقلة لتعليم أبنائهم ولمساجدهم وما يتبعها من مرافق وكانوا يتعهدونها بالزيارة ودروس الوعظ والإرشاد والتثقيف •

الثالثة : حياة الإباضية على عمومها كانت تعتمد على ثلاثة أسس :

١ — التجارة : وقد اشتهر بها أهل جربه وارجلان ووادى ميزاب حتى أن الاقتصاد فى كل من الجزائر وتونس كان يعتمد اعتمادا أساسيا على مواهب الإباضية فى التجارة ولا تخلو مدينة أو قرية فى الجزائر وتونس — فى قرون طويلة — من الأيدى البارعة لتجار الإباضية •

٢ — الصناعة : ولاسيما صناعة الصوف وقد اشتهر بها جبل نفوسة وجبال دمر ووادى ميزاب فكانت هذه الصناعة تكون ركنا هاما من دخل الأسرة ومن اقتصاد البلاد حتى إشتهرت فى الأسواق •

٣ — الزراعة : وهى مصدر أساسى للثروة وتقوم فى جميع مواطن الإباضية لاسيما الوحدات .

ويبدو لى أن الأمة التى تبنى حياتها على الاقتصــاد الذى يتكون من تجــارة وصناعة وزراعة لا يمكن أن تــكون أمة بدوية — وأن العبد والأقحاح لا يمكن أن يحاربوا البداوة بكل الأساليب حتى يبلغ بهم الأمــر إلى منع الزواج من أهل البادية . ويكفى هذا لمناقشة هذه النقطــة ويقول المستشرق جوتييه ص . ٢٣٣ ما يلى :

« وقد فرض الإباضيون عقوبات صارمة على أهل الشر . فالزانى يرجم ، والسارق تقطع يده » .

وقد يكون جوتييه لا يجهل أن هذه العقوبة هى ما قرره الإسلام . وأن جميع المذاهب الإســلامية ملزمة بهذا ســواء نفذته حكوماتها القائمة أو لم تنفــذه . وإنما حرص أن يذكر هذا عن الإباضية أولا لأنه يريــد أن يوحى للقــارىء أن الإســلام دين بشرى يفرض قوانينه ناس من البشر ، وثانيا ليوحى للقارىء الكريم أن الإباضية باعتبارهم من الخوارج المتشردين ، ومن البدو الجفاة الغلاظ ينتهجون القسوة فى أحكامهم : ومن الأمثلة عى انتهاجهم هذا النهج هذا الحكم الصادر على الزناة والسراق .

ولعل مما يساعد القارىء على فهم منهج جوتييه فى مناقشة موضوع الإباضية وأسلوبه فى ذلك أن أعرض عليه صــورا أجراها المستشرق فى أسلوب مقــارنات .

الصـــورة الأولى :

يقول وهو يرسم هذه الصورة فى صفحة ٢٣٠ ما يلى :

« ويساعدنا أبو زكرياء على رسم صـــورة عن الإباضى : شـــعره ذو ظفائر يحمل مهندا مستقيما طويلا ، له حدان قاطعان ، يختلف عـــن السيف واليطقان • كمـــا يحمل خنجرا مربوطا بذراعه » • إنها كما ترى تبدو صـــورة كاركاتورية هزليـــة مضحكة قد ترسم لشخص أو لعـــدد من الأشخاص •

وبناء على هذه الصورة التى يرسمها جوتييه بمســـاعدة أبى زكرياء على زعمه للإباضية ــ نستطيع أن نضع لها إطارا عاما كما يلى :

شـــعر مظفـــور •

سيف طويل مستقيم ماضى الحدين يختلف عن اليطقان •

خنجر مربوط بالذراع •

فإذا توافرت هذه الأشياء الثلاثة فى رجل فهو إباضى وإن تخلف بعضها فليس كذلك ــ هذا فى زعم جوتييه •

هـــذه الصورة الكاركاتورية إنمـــا تبعث على الضحك ممن يرسمها وينسبها للإباضية أو لغيرهم فهذا كلام من الخواء بمنزلة لا يرتفع معها إلى مرتبة ما يناقش ويلتمس فيه الخطأ والصواب •

الصــورة الثانية :

يقول جوتييه فى صفحة ٢٣٠ من نفس الكتاب ما يلى :

« وأظن أن ماسكوراى على حق فى مقارنته (١) مع ابن الطــوارق حاليا ، ويذكر لنا أن المرأة الإباضية مثقفة مما يزيد فى وضــوح الشبه ، وذلك أن المرأة عند الطوارق تحتل فى علمهــا وثقافتها مكانة تختلف عن مكانة المرأة فى بلاد المغرب ، لقد عنى ماسكوراى بالطوارق عناية كبيرة • وليس مستبعدا على كل حــال أن يكون هؤلاء البدو الخوارج قــد تركوا بعض مميزاتهم لطوارق الهقار وهــم من تبقى من قبيلة هــوارة » •
هكذا ترى أيها القارىء الكريم أن المستشرق ماسكوراى — وقــد عنى بالطوارق — يعقد بينهم وبين الإباضية مقارنة ويزعم أنه توجــد بينهم وجــوه شبه تتلخص فى شعر مظفور ، وسيف طويل مستقيم ذى حدين قاطعين : وخنجر مربوط بالذراع • ويصحح المستشرق جوتييه تلك المقارنة بمرجح آخر وهو أن المرأة الإباضية مثقفة مما يزيد فى وضوح الشــبة بين الإباضية والطوارق لأن المرأة الطارقية تحتــل فى علمها وثقافتهــا مكانة المرأة فى المغرب • وبذلك فلا مانع من أن يكون الطوارق قد تسلموا عن الإباضية هذه المميزات الواضحة عندهم اليوم •

ياله من منطق سليم :

لقد غفــل كل من المستشرقين الكبيرين عن دعــوى هامة يدعيهــا كلاهما وترتكز عليها أكثر أبحاثهما وأبحاث من يجرى على نسقهما وذلك

---

(١) مقارنة الاباضى مع ابن الطوارق .

أنهما يدعيان — ويؤكـدان ذلك — إن الإباضية بدو أقحاح • وأن البداوة لا يمكن أن تكون مصدر علم وحضـارة • فكيف تأتى للمرأة الإباضية — وهى بدوية قحة — وكذلك للمرأة الطارقية التى تسلمت منها مميزاتها • وسارت بأسلوبها فى الحياة — أن تكون فى ثقافتها وعلمها فوق المرأة فى بلاد — المغرب ؟ كيف استساغ عقل ماسكوراى وعقل جوتييه أن يزعـم أن المرأة الطارقية — وهى تعيش فى خيام متنقلة • المناطق الصحراوية تتبع مواقع الغيث • وتقضى أهم أوقات عمـرها فى رعاية الماشـية — أكثر ثقافة وعلمـا من المـرأة التى تعيش فى تلمسان والرباط والجـزائر وقسنطينة ووهـران •

قد يكون كلام ماسكوراى على نوع من التأويل لأنه وصف المـرأة الإباضية بالثقافة أو بأنها مثقفة • وهذا قد يكون صحيحا إلى حـد بعيد — من حيث الواقع — لأن الإباضية لاسيما فى الجزائر يسكنون فى عدد محدود من المدن طيلة عدة قرون • وهم بعداء جدا عن طبيعة حياة البدو الرحل ، وإن كانوا يعيشـون فى واحات فى مناطق صحراوية • ثم إن لهم مؤسسة العذابة التى تم تنظيمها فى أوائل القرن الرابع الهجـرى وهى تشرك معها المرأة فى القيام بمهمة الثقافة والتعليم فى ميادين الشريعة كما أن لهم أساليب خاصـة فى واجبـات المرأة المنزلية والصـناعية • ولا شك أن معانى الحضارة • ومظاهرها عند الإباضية من سـكان الجزائر أقوى منها وأوضح مما فى كثير من مدن الشـطوط والسواحل • وفى مثل هذه المجتمعات المستقرة فى مدن الواحـات العريقة والمحافظة لا نجـد غرابة إذا وصفت فيها المرأة بالثقافة ، والثقافة فى هـذا المجال إنمـا تفى بالدرجـة الأولى • معرفة المرأة لأحكام الدين المتعلقة بهـا ، ثـم بالأسلوب المقبـول فى السلوك الاجتماعى فى الوسط الذى تعيش فيه ،

وتكتسب المـرأة كثيرا من ألوان الثقافة الاجتمـاعية والبيئية بالاقتباس والمحاكاة والتقليد وهذا ـ لا شك ـ متوفر فى المجتمع ومستقر ومحافظ ومحتفظ •

فمسافة البعد المرأة الإباضية التى تعيش فى هذا الوسـط والمرأة الطارقية التى تعيش وراء الموشى متنقلة فى الخيـام باستمرار مسـافة شاسعة لا تجدى فيها المقـارنة •

وماسكوراى قد يكون على حق حينما قال إن المرأة الإباضية مثقفة • أما جوتييه وقد وثب وثبة لا حدود لها حين تجـاوز مرتبة الثقـافة إلى مرتبة العلم فزعم أن الطارقية تحتل فى علمهـا وثقافتها مرتبـة فـوق ما عند المرأة فى بلاد المغرب •

وأحسب أنه من البداهة أن وصف المرأة الطارقية بأن لها مركـزا علميا وصف لا مدلول له • أما وصفها بالثقـافة فلو كان الوصف هـكذا مجردا لاحتمل النظر والبحث • أما دعوى نهـا تحتـل مركزا ثقـافيا فوق ما عنـد زميلتها المرأة فى المغرب • فهى دعـوى باطـلة ، وحـكم لا سند له • وبعد كل هذا فإن محاولة مقارنة الإباضية بالطوارق ووجود شبه مادى معنوى بينهم لغو من الكلام وباطل من القول وذلك أمر بديهى لا يحتاج إلى أى بحث أو تفكر ضرورة أن الإباضية مذهب إسلامى لـه قواعد وأصـول • وله عقائد وعبـادات وشرائع فى الإمكان أن يعتنقها بعض الطوارق أو كل الطوارق كما يمكن أن يعتنقها غيرهم من القبـائل والأجناس البشرية •

إن الطارقية جنس أو قبيلة أو نسب والإباضية فكرة أو مذهب أو دين فما الذى يجمع بينها حتى نقول بوجود شبه أو تقارب •

هل تستطيع أن تقول أن هناك شبها بين الأوس والخزرج والمذهب المالكى مثلا أو أن المالكية انحدروا من الأوس والخزرج — ثم ما علاقة اللباس أو السلاح بالمذهب أو العقيدة • لا شك أن البيئات المختلفة تختلف فى لباسها وأنواع السلاح المستعمل لديها فما دخل المذهب فى ذلك • نحن نعرف أن للمغاربة والجزائريين تقاليد خاصة فى اللباس وأسلوبا خاصا فى استعمال السلاح ونعرف أيضا أن لتونس أو لليبيا أو لمصر أو لغيرها تقاليد تخالف ما درج عليه فى البلاد الأولى • ونعرف أيضا أن أصحاب المذاهب المختلفة فى البيئة الواحدة يختلفون فى المذهب ويتفقون فى أسلوب الحياة ومظاهرها من لباس وعادات وتقاليد • ولباس الإباضى الذى يعيش فى الجزائر غير لباس الإباضى الذى يعيش فى تونس أو فى ليبيا فإذا كان للطوارق عادات خاصة فى أنواع اللباس أو السلاح فإن من يعتنق المذهب الإباضى منهم يكون على لباسهم وقيافتهم ولذلك فلو وقفت بين الطوارق أو فى أى مكان لما أمكنك أن تميز بين المذاهب بمظهر اللباس ولكنك تستطيع بسهولة أن تميز بينهم من حيث اللباس فتعرف أن هذا طارقى وهذا جزائرى وهذا ليس الخ •

إن هذه النقطة أخذت منا أكثر مما تستحق وهى دليل واضح على أن المستشرقين يعمدون إلى توافه الأمور فيوجهون إليها عنايتهم ويولونها جانبا من الاهتمام يشغل ذهن القارىء العادى ويصرفه عما هو أجدى له وأحق بمعرفته •

الصورة الثالثة :

يقـول جوتييه ــ وهو يرسـم هـذه الصورة ــ فى كتـابه ص ٣٣٣ ما يلى :

« وقد تحدث ماسكوراى عن الشـبه بين الإباضية والوهابية التى ظهرت فى القرن التاسع عشر ، فى أواسط شبه الجزيرة ، وكتب عنها بلغريف كتابا موفقا . ذاك أن الوضع الجغرافى متشابه فهنا وهناك نجد بدوا بعيدين عن البحر يعيشون على قحط الصحراء ، فالبدوى الذى لا يسيطر عـلى مدينة من المدن هو أشد الناس فقـرا ، وهو ميال للعـزلة والتقشف ، وشديد الشغف بالفضيلة . ذلك أنه يحول بؤسه لتطرف دينى » .

هذه صورة حرص المستشرقان ما سكوراى وجوتييه وغيرهمـا أن تكون صورة للإباضية عندما يكون الحديث عن الإباضية وللخوارج عند ما يكون الحديث عن الخوارج وللأمة الإسلامية عامة عندما يتحـدثون عن حركة للأمة الإسلامية أو فيها بل أن جوتييه يركز على هذا المعنى كثيرا فى معالجته لقضايا الحركات الإسلامية سواء ما كان من الإسلام عامة ، وما كان منها من ذهب خاص . فهو يريد أن يصور المسـلمين فى جميـع الأحوال وعلى كل الأوضاع بأن طبيعة البداوة متأصلة فيهم . عنـدما يتحركون فهم إنما يتحركون بدافع الفقر والحاجة للحصول على ما يخففون به شظف العيش المؤلم والحياة القاسية التى يعانونها فاذا لم يتمكنـوا من ذلك حولوا مظهر الحرمان الذى يحيون فيه الى شغف بالفضيلة ، أو الى تطرف دينى يندفعون باسمه للغزو والاحتلال .

وتتخلص الصور الثلاثة السابقة من المقارنات فيما يلى :

افتراض وجود شبه يدل على انحدار الطوارق فى الإباضية استنادا على القيافة الموجودة الآن عند لطوارق مع افتراض وجودها عند الإباضية فى قرون سابقة ٠

دعوى وجود ثقافة وعلم عند المرأة الطارقية تتفوق بها على المرأة فى المغرب ودعوى وجود ثقافة عند المرأة الإباضية مما يقرب الشبه بين الطوارق والإباضية ٠

٣ ـ التشابه بين الإباضية والوهابية لأن كلا منهما يعيش فى منطقة صحراوية يسود فيها القحط ويغلب عليها الفقر ممـا يحمل أهلهـا على التقشف الإجبارى أو الرغبة فى الغزو باسم التقوى ٠

واحسب أن هذه الفروض وهذه المقارنات من أسوأ ما كتبه جوتييه فى كتابه هذا ٠ وإن كان فى الكتاب كثير جدا مما أملاه التحامل وأوحت به الروح الاستعمارية المترفعة ٠ لكن هذه الفقرات تدل ـ فوق كل ذلك ـ على السطحية والغباء ٠

مع كرلو ألفونسو نلينو

كتب المستشرق كرلو الفونسـو نلينو بحـوثا عن المعتزلة ناقش فيها ما يلى :

١ ـ أصل تسميتهم معتزلة ٠

٢ ـ اسم القدرية ٠

٣ ــ الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية المقيمين فى أفريقيا الشمالية .

٤ ــ حول فكرة غريبة منسوبة الى المحافظ عن القرآن .

وقد ترجم الدكتور عبد الرحمن بدوى هذه البحوث ونشرها ضمن بحوث أخرى المستشرقين فى كتاب سماه (التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية) طبعة دار النهضة العربية ــ الطبعة الثالثة . من هذا الفصل أحب أن أقف مع القارىء الكريم قليلا عند الفقرة الثالثة . فى البحوث (الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية فى أفريقيا الشمالية) لمناقشة بعض آراء المستشرق الكبير فى هذا الموضوع . يقول نلينو فى هذا الكتاب ص ٢٠٤ مايلى :

« لاحظ جولد تسيهر فى الموضوع المذكور آنفا (مجلة تاريخ الأديان المجلد رقم ٥٢ سنة ١٩٠٥ ص ٢٣٢) إن رسالة (العقيدة الإباضية) لعمرو بن جميع التى نشرها موتيلتسكى تضعنا أمام أقوال ذات طابع معتزلى واضح ويورد شاهداً على ذلك ؛ المسائل الآتية :

١ ــ القرآن مخلوق .

٢ ــ ليس من الممكن رؤية الله فى الآخرة .

٣ ــ تأويل بعض مسائل الحياة الأخرى تأويلا مجازيا (الميزان والصراط) .

٤ ــ كل تشبيه ظاهر وبخاصة استواء الله على العرش ــ يجب تأويله تأويلا مجازيا .

ولكن الاتفاق بين مذهب المعتزلة ومذهب الإباضية فى شمال أفريقيا يذهب الى حد أبعد مما ذهب إليه جولد تسيهر — فكلا المذهبين على اتفاق فيما بينهما وبين بعض ،وعلى خلاف مع أهل السنة فى المسائل الآتية كذلك .

٥ — الله لا يغفر الكبائر لمرتكبيها إلا إذا تابو قبل الموت .

٦ — عذاب النار أبدى حتى لمرتكب الذنب من المسلمين . وهو إذا مات دون أن يتوب لا تنفع له شفاعة الملائكة أو الرسل أو الأولياء » .

وبعد أن يورد أقوال بعض علماء الإباضية فى الموضوع يقول :

٧ — « صفات الله ليست زائدة على ذات الله » . وبعد أن يذكر شرح الإباضية لهذا الأصل من أصول عقيدتهم يقول :

« وخليق بنا أن نلاحظ أيضا أن كتاب الشيخ عامر المذكور ، والذى يقصد به مؤلفه أن يتكلم عن الأصول التسعة التى كان عليها الخلاف بين المسلمين يستعرض هذه الأصول على النحو التالى : (١) التوحيد (٢) العدل (٣) القدر ... الخ .

ويقول فى صفحة ٢٠ ما يلى :

« ففى كتاب (أصول الديانات) للشيخ عامر بن الشماخى (١) وهو عمدة كتب الإباضية فى جبل نفوسة) .

---

(١) جاء فى هامش البحث تعليقا على العبارة السابقة ما يلى : كنيته ابو ساكن عاش فى القرن الثامن الهجرى ، راجع (السير) للشماخى ص ٥٥٩ — ٥٦١ فانه يقول عنه : « وهو اعتماد أهل المغرب فى وقتنا خصوصا نفوسة » قلت قد اخطأ المؤلف والمعلق فان هذه العبارة قيلت عن كتاب الايضاح لا عن كتاب الديانات .

وبعد مناقشة ليست طويلة ولا عميقة يخلص الى قوله :

فكان الجزء الأكبر من مذهب الإباضية فى شمال أفريقيا إذا معتزلى فهل هم أخذوه ، وهم فى الشرق من قبل أن ينزحوا الى بلاد المغرب ، أم هم تقبلوه فى شمال أفريقيا تحت تأثير اتصالهم بالأدارسة من الشيعة ، وبمعتزلة إقليم طنجة القديم ، مدفوعين بعاطفة رد الفعل ضد أهل السنة ، أم أن إباضية المغرب أضافوا بعد فى أفريقيا عناصر معتزلية جديدة الى ما كان فى الأصل مشتركا بين المعتزلة وإباضية الشرق ، وأن مذهب الإباضية فى الشرق سار ومذهب إباضية المغرب بخطى واحدة متساوية تحت تأثير معتزلى » ؟

مما يدعو الى التأمل أن أغلب المستشرقين يتخذون أسلوبا متقاربا فى مناقشة ما يعرض من المواضيع الإسلامية فيفترضون فروضا أو دعاوى يعتبرونها فى مرتبة الحقائق المسلمة التى لا تحتاج الى الجدل ، الأصول الثابتة التى لا يثور حولها خلاف • ثم يفرعون عن ذلك ما يخطر لهم من نقاش • وفى هذه القضية افترض المستشرق نلينو فروضا اعتبرها حقائق غير خاضعة للنزاع ثم يرتب عليها أحكاما ويبنى عليها صروحا • فهو قد افترض أن المسلمين ينقسمون الى معسكرين كبيرين متقاتلين على الدوام هى السنة والمعتزلة وأن جميع المذاهب الأخرى تعود فى أصولها الى أحد هذين القسمين • وهو قد افترض أن كلا من هذين القسمين قد اتخذ له أصولا خاصة به يتميز بها فاذا وجدت تلك الأصول عند مذهب آخر فيعنى ذلك أنه أخذها من المذهب الأصلى • وهو فى غمار هذا التأصيل يفترض أن إباضية المغرب أخذوا أصول عقائدهم من المعتزلة • وهو يعتبر

هذا الغرض حقيقة مسلمة ، ولذلك فقد ذهب يتحســس ويتلمس ليعرف كيف حصل إباضية شمال فريقيا على عقائد المعتزلة .

إن الأساس الذى بنى عليه الأستاذ نلينو بحثه — وهو اعتباره أن المسلمين قسمان كبيران هما السنة والمعتزلة وأن كلا من القسمين قد اتخذ لنفسه مبادىء معينة محددة يتناولها على أسلوب محدد معين ويتلزم بها على نفس النمط والأسلوب ، وأن المذاهب الأخرى قد انشقت عن أحد هذين القسمين الكبيرين وأن فى إمكان الباحث أن يعيد أهل كل مذهب الى قسمهم الذى انشقوا عنه أو انفصلوا منه أو أخذوا عنه — أساس وهمى قام على فريضة ذهنية لا مكان لها فى الواقع ولا حقيقة لها فى الأحداث والتاريخ . رغم أن نلينو بذل مجهودا ملحوظا فى إقرار تلك الفرضيات واعتبارها حقائق ثابتة مما دعاه أن يحاول الجمع بين الشيعة والإباضية وإرجاعهم جميعا الى المعتزلة أحد القســمين الكبيرين بسبب خصومة الجميع لأهل السنة حسبما يزعم أو حسب فرض من فروضه الوهمية . يذكر المستشرق جولد تسيهر وهو يتحدث عن كتاب (عقيدة الإباضية) أن هذا الكتاب يحمل طابعا معتزليا لأن الكتاب يذكر بعض أصول عقيدة الإباضية وهى مشابهة لأصول عقائد المعتزلة . ويذكر الشواهد على ذلك ، غير أن المستشرق نلينو لا يكتفى بهـذه العلاقة البسيطة التى لاحظها تسيهر — وإنما يكتشف أن الأوجه التى يشابه فيها الإباضية المعتزلة هى أكثر مما لاحظه تسيهر ، وعليه فلا بد أن يكون الإباضية فى شمال أفريقيا قد أخذوا أصول مذهبهم فى المعتزلة . إنه أسلوب طريف فى بحث العقائد ، كأنما هذه الأصول حضرت فى جدول عمل ، وعقد من أجل مناقشتها عدة اجتماعات فاتخذ فيها المعتزلة قرارات تحدد آراءهم واتخذ أهل السنة كذلك قرارات تحدد أيضا آراءهم الخاصة بهم ثم انفض المؤتمر العـام

عن ذلك • فمن تكلم بعد ذلك فى هذه المواضيع فلا بد أن يكون من أحـد فرعى المؤتمر أو أن يكون أخذ عنه • وبهذا يسهل على الباحث أن يرجع أى مذهب إسلامى الى أصله كما أرجع نلينو تلاقى الشيعة والإباضية الى المعتزلة •

لا شك أن الإشكالات التى تعلقت ببعض أصول العقائد • والأسئلة التى أثيرت حولها ، والمناقشات التى دارت فيها ، لم تكن وليدة يـوم ، أو ناتجة عن جدول أعمال مدروس فى اجتماع ، أو بحث وضع لـه مجمع علمى منظم ليصدر فيه قرارات نهائية • إن شيئا من هذا لم يكن أبداً ، وإنما كانت تثور المشكلة فى مكان فيتخذ فيها من حضر من العلماء موقف ــ معتمداً على فهمه لكتاب الله عز وجل ، وسنة رسـوله ﷺ ، ومـواقف الصحابة رضوان الله عليهم إن كانت لهم فيها مواقف ــ وقد يحدث أن يخالفه فى موقفه ذلك عالم آخر فى نفس المكان ، وقـد يحدث ألا يخالفه أحد • وتنتقل المشكلة لتثور فى موضع آخر قد يكون قريبـا أو بعيـداً فتعرض على عالم آخر يدرسها هو الآخـر ويصدر فيها حكما ، موافقـا أو مخالفا للأول • وعلى هذا المستوى وهذا الأسلوب تكونت آراء الأمة فى مسائل العقائد ، بل وحتى فى مسائل الفروع • ما لم تحدده النصوص •

وأكثر هذه الأصـول قـد تحتمل وجهين أو أكثـر من الآراء ــ وأى عالم يصدر فيها رأيا معينا قد يكون رأيه موافقا تمام المـوافقة لـرأى عالم آخر فى جهة أخرى ، ولكنه يسمع برأيـه ولـم يعرفـه ، وإنمـا اعتمد فى إصدار رأيه على نفس المصـادر التى استمد منها الآخر رأيه ، واتحد معه فى الفهم والاستنباط • فهل من المحتم أن نقـول أن أحـد هذين العالمين قد أخذ عن الآخر مـا دام رأى كل منهما مـوافقا لرأى

الآخر وفهمه لفهمه . من المسائل التى أثيرت فى عهد مبكر جداً قضية القدر . وقضية جواز رؤية البارىء جل وعلا . وقضية الكبيرة ومرتكبها . فكان لعلماء الأمة فيها مواقف حسب فهمهم لنصوص الشريعة حين وصول المشكلة إليهم ، فكانت المشكلة من هذه تأخذ طورا فى الجدل والنقاش فى أماكن مختلفة حتى تتبلور الى آراء محددة يقتنع بها الناس ويلتزمونها . فالمشكلة من هذه تبدأ فردية يتناولها أصحاب الشأن بالبحث والدراسة والاستدلال . وقد تتفق الآراء ، وقد تختلف ، ويدين بكل رأى جماعة من الناس لاقتناعهم بقوة الحجة وسطوع البرهان ووضوح الدليل فيما يعتقدون .

ثم إن المذهبية أو (الحزبية الدينية كما يفهمها المستشرقون) لم يكن بهذا التمييز والوضوح الذى تعرفه لها اليوم ، لأن المذهبية فى ذلك الوقت المبكر لم تتكون بعد . ويبدو لى أنك لو جئت فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى ووقفت عند باب مسجد تسأل كل خارج بعد الصلاة عن مذهبه لم تجد من يجيبك بقوله إنه سنى أو شيعى أو معتزلى مثلا . ولا من يقول لك إنه حنفى أو مالكى أو إباضى . لأن هذه المذهبية لم تتكون بعد . ولكنك لو سألته ما تقول فى القدر فقد يجيبك برأيه سواء كان بإثبات القدر أو نفيه . وقد ينظر إليك فى اشمئزاز وينصرف ، وهو يعتبرك من دعاة الفتنة وقد يحملق فيك بعينين فاحصتين ثم يمضى عنك لأنه لم يفهم ما تريد .

ومثل هذه الصورة تحدث لك لو أجريت التجربة فيما يتعلق بموضوع الرؤية فلو وقفت على باب مسجد تسأل كل خارج هل رؤية البارىء جل وعلا ممكنة أو مستحيلة ، فإنك تجد من يجيبك بأن رؤيته تعالى ممكنة فى

الدنيا والآخرة ، وإن سيدنا محمد ﷺ رأى ربه . ومن يقول لك أنها مستحيلة فى الدنيا جائزة فى الآخرة . ومن يقول لك أنها مستحيلة فى الدنيا والآخرة . وتجد فيهم من يعرض عنك لأنه يعتبرك صاحب فتنة ، أو لأنه لا يفهم ما تريد . وقل مثل ذلك فى مسائل العقائد التى أثيرت حينئذ ، ولو أردت أن ينتسب لك كل واحد ممن سألتهم لم يمكنه ذلك لأن هذه التسميات المذهبية جاءت متأخرة حدثت بعد ذلك ولكنك لو سألت أى واحد عن رأيه فى الموضوع أو عمن أخذه الأجابك بأحد جوابين : إذا كان من أهل العلم يذكر لك النصوص التى استند عليها فى فهمه وحكمه . وإذا لم يكن فى هذا المستوى ذكر لك عالما من علماء المسلمين المنتشرين فى كل البلاد الإسلامية فى ذلك الحين . أو أجابك بأنه لا يفهم هذا .

إن الأصول التى يرجع إليها علماء المسلمين — فى جميع ما يعرض لهم من فى مشاكل بمختلف مذاهبهم متاحة لجميعهم . بدرجة واحدة ، وليس فيها ما يمنع أحدهم من دراستها والرجوع إليها ، فهى بقدر ما كانت متاحة للحسن البصرى كانت متاحة لواصل بن عطاء ، وسعيد بن المسيب ، وجابر بن زيد ، وعطاء بن أبى رباح وغيرهم . وعندما تجد فهم أحد هؤلاء لنص من النصوص موافقا لفهم الآخر فليس من الضرورى أن يكون أحدهما أخذه من الثانى ، لأن الأقرب الى العقل والمنطق والواقع أن يكون أخذه من نفس النص ة واتفاقهما فى الفهم والاستنباط لا يعنى اعتماد أحدهما على الآخر أو الأخذ عنه . كما أنه لا يوجد ما يمنع من أن يأخذ أحدهما فهم الثانى أو رأيه إذا لم يكون هو نفسه رأيا أو فهما مخالفاً .

أحسب أن هذا واضح لا يحتاج الى تدليل أو برهنة ، ولا يتطرق إليه احتمال النقاش •

ومما استند إليه نلينو — فى حكمه بأن الإباضية فى المغرب أخذوا قواعدهم عن المعتزلة — تشابه الغرض لتلك القضايا ، واتحاد الأدلة •

وفى هذا المنطق — كما أرى شىء من القرابة — وذلك أن عرض طريقة المشكلة — أية مشكلة — ليست طابعا مذهبيا مميزا لا ينبغى للمذهب أن يتخلى عنه ، ولا يحق لغيره أن يتخذه • وإذا فرض أن عالماً من مذهب معين وفق الى عرض مشكلة أو مشاكل بتنسيق أجود فليس مما يجعل الآخرين تباعا لهذا العالم إذا هم سلكوا نفس الأسلوب فى العرض ، ولا يلزم أن يكونوا أخذوا منه رأيهم فى المشكلة ، إذا اتحدوا معه فى منهج العرض أو منهج الاستدلال • واستفادتهم • ومن الجائز أن آراءهم فى الموضوع قد سبقته بعشرات السنين وأنهم عرضوها إما بهذه الطريقة ولكنها لم تشتهر عنهم أو عرضوها بطريقة تختلف وأنهم استفادوا من غيرهم فى العرض أو الاستدلال واستفادتهم من جهد غيرهم فى التنسيق دليل على التفتح وعدم التعصب ، لأن الاستفادة من جهود الآخرين وتجاربهم هى مزية البحث العلمى فى كل ميدان • ومما استند إليه نلينو أنهم احتجوا بنفس الحجج التى احتج بها المعتزلة ، ويستنتج نلينو حكمه هذا مما لا حظه فى شرح الثلاثى عن كتاب الديانات لعامر الشماخى • والشماخى من علماء القرن الثامن الهجرى • أما الثلاثى فمن علماء القرن العاشر •

أود أن أناقش هذه النقطة بشىء من الإسهاب ، حتى يعرف القارىء الكريم • مدى سلامة حكم نلينو فى هذه الملاحة •

إن أى عالم من علماء المسلمين حين تثار أمامه • أو تعرض مشكلة ،

يتجه قبل أى شىء وقبل أى رأى الى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وعلى ما يتضح له من ذلك يقرر رأيه ، ويعلن عقيدته ، محتجاً ومستشهداً بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الواردة فى الموضوع • والآيات والأحاديث الواردة فى أى موضوع هى واحدة والاحتجاج بها من أطراف متعددة ليس متشابها وإنما هو متحد ولا يمكن أن يكون غير ذلك •

فهل من الضرورى أن يكون المعتزلة هم أول من تنبه إلى قوله تعالى (لا تدركه الأبصار) فقالوا باستحالة الرؤية ، وأن كل من قال باستحالتها إنما أخذ عنهم هذا الاستدلال ؟ وهل من الضرورى أن يكون المعتزلة هم أول من انتبه إلى الآيات التى وصفت القرآن الكريم بأنه محدث ومنزل ومجعول وما إلى ذلك حتى يقال ان كل من قال بخلق القرآن إنما أخذ ذلك عن المعتزلة والدليل على أخذه عنهم هو تشابه الأدلة وما دام المعتزلة قد احتجوا بآية أو حديث فإن كل من احتج بذلك يكون أخذ عن المعتزلة •

لا شك أن فى هذا من الشطط والغلو والتحكم ما فيه ، من تضييق الواسع ، وتحجير العلم مالا يتفق مع طبيعة علماء الإسلام فى عصوره الأولى المتفتحة المشرقة المتحررة •

لقد أثيرت مشاكل أصول العقائد فى أزمنة مختلفة وأماكن مختلفة كما قلت سابقا ، ولم تكن حينئذ الكتل المذهبية قد تكونت بعد وتميزت ، وإنما كان أفراد العلماء يصدرون آراءهم ، كل حسب فهمه واجتهاده ، ومضت فترة من الزمن تبلورت فيها تلك الآراء واتخذت لها أشكالا مختلفة واتضح منها أن عددا من العلماء تلتقى آراؤهم فى أصل واحد أو أصول

معينة ، ثم نشـأت بعـد ذلك الطبقات المتعلمة المتعصبة فكونت المذاهب ونسبتها إلى أفراد من المجتهدين ممن اشتهر فيما بعد • ثم عمل هؤلاء على جمع الأدلة والبراهين لتأييد المذاهب التى يعتنقونها فأصبحت الأدلة ولا سيما الأدلة النظرية حقا مشاعا للجميع يجمع منها كل مذهبى ما يراه مؤيدا لمذهبه • وهذه الصورة تتضح عند المؤلفين المتأخرين من القـرن الثالث فيما بعد ، ولا يستطيع الباحـث أن يقول هـذا برهان معتزلى أو إباضى أو أشعرى أو ما تريدى •

ولو رجع نلينو فى قضـايا أصـول علم الكلام لوجـد التقارب بين الماتريدية والمعتزلة أكثر من التقـارب بين المعتزلة والإباضية بل ربمـا يجد التقـارب بين الأشاعرة والإباضية أكثر من التقارب بين الأشـاعرة والماتريدية رغم أن كتاب المقالات وأكثر المؤرخين يحشرون الماتريدية فى طابور أهل السنة ويحشرون الإباضية فى طابور الخوارج وهاهو المستشرق نلينو يحـاول أن يحشر الإباضية والشيعة فى طابور فرعى ينفصـل عن طابور المعتزلة • ولو تأمل الأدلة والبراهين التى يستند إليها كل من هؤلاء لوجدها تتفق وتتشابه فى الأصل الذى يتفقون عليه ولربما كان أسـلوب الماتريدية والمعتزلة فى الاستدلال والمناظرة يجرى على منهج واحد فى أكثر القضايا الكلامية •

فدعوى الأستاذ نلينو أن إباضية شمال إفريقيا أخـذوا أصـول عقيدتهم من المعتزلة دعوى لا تستند إلى أسـاس سليم • لا لأن الفرق الإسلامية لم يتأثر بعضها ببعض ، أو أن الإباضية لم يتأثروا بغـيرهم من المذاهب الإسلامية أو يتأثر بهم غيرهم • فهـذا زعم لا يخطر على البال • وإنما الذى أريد أن أنفيه فى هذا الفصـل هو زعـم نلينو أن

الإباضية أخذوا أصولا معينة من المعتزلة مع العلم أن هذه الأصول كانت مطروحة للنقاش — إن صح هذا التعبير — قبل أن تكون المذهبيـــة الملتزمة وقد كان علماء الإباضية يناقشونها بنفس المستوى الذى يناقشها به علماء المذاهب الأخرى حين أثيرت • وحتى لو تحددت الأسبقية فى قـول من الأقوال ونسبت إلى عالم معين من مذهب معين • فلا يعنى ذلك أن المذاهب التى جاءت من بعد واتخذت لها نفس الآراء ، أنها بالضرورة أخذت عنه لأنها فى الغالب تكون أخذت من نفس المصدر الذى أخـذ هـو منه — الكتاب والسنة — ونحن لا نزعم أن المعتزلة أخـذوا من الإباضية لأن — واصلا بن عطاء — إمام المعتزلة كان تلميذا فى مجلس الحسن البصرى حين كان إمام الإباضية جابر بن زيد زميل الحسن وصديقه قد اسـتقر على عقائد محددة فى المشاكل التى أثـيرت فى تلك الفترة واتخذ فيهـا موقفا نقله عنه طلابه فلا شك أن جابرا سـبق واصـلا ولكننا مع ذلك لا ندعى أنه أخـذ عنه • ولعل من الأمثلة التى توضح هذه النقطة هـو موقف الإباضية والمعتزلة من مشكلة الرؤية مثلا •

إن عقيدة الإباضية بأن إمكان رؤية البـارىء جل وعـلا مستحيل فى الدنيا والآخرة كان واضحا شديد الوضوح فى النصف الثـانى من القرن الأول وقد ناقشه بعض أئمة الإباضية وتأيد فيها موقفهم بتأييـد بعض كبار الصحابة كعائشة أم المؤمنين وعبد الله بن عباس فهـل يحق للباحث أن يزعـم أن المعتزلة أخـذوا رأيهم فى موضـوع الرؤية من الإباضية لأن هؤلاء سبقوهم إلى ذلك القول ولأن المعتزلة يحتجون بنفس الأدلة التى يحتج بها الإباضية •

لا شـك أن الباحث المنصف لا يستطيع أن يزعم هـذا الزعم لأن

المصادر التى كانت موضوعة بين يدى جابر بن زيـد ، والحجج العقلية التى استنبطها وهـو يدرس هـذه المشـكلة كانت مطروحة بين يـدى غيره من علمـاء الأمة • فإذا انتهى هو إلى رأى معين ، فليس من اللازم أن يكون كل من انتهى إلى ذلك الرأى آخذا عنه •

بعد هذا ننتقل إلى مناقشة نقطة أخرى عرض لها أن الأستاذ نلينو ولم يكن ـ حسب نظرى ـ موفقا فيها •

يصل نلينو بسرعة غير متوقعة إلى الحـكم على أن الجانب الأكبر من المذهب الإباضى معتزلى ، وهو لكى يصدر هذا الحكم دون أن يتعرض لنقد لا يعرف مصدره ، يفصل إباضية شمال أفريقيا عن إباضية الشرق بدعوى آنه لا يملك مصادر عن إباضية الشرق تتيح له الحـكم عليهـم بحـق • وتبـدو هـذه الدعـوى غريبة ، فإن المستشرق الكبير لم يذكر من مصادر الإباضية المغـاربة إلا كتاب عقيدة التوحيد لعمرو بن جميع وكتاب الديانات لعامر الشماخى بشرح الثـلاثى وكل من الكتابين مختصر صغير جـدا وضع للاستذكار فى صفحات قليلة لا تبلغ جميعها عشرا • ثم إن كـلا الكتابين ـ إن صح أن نسميهما كتابين ـ من المؤلفـات فى العصور المتأخرة أعنى بعد القرن السابع • وهذا يعنى أنها ألفت بعـد التميز المذهبى وعندما أصبحت حجج العقـائد الدينية لمختلف المذاهب والعلماء معروفة ومدروسـة ومنقولة يستعين بها من توافقه للاحتجاج بها ويذكرها من تخالفه لنقضها والرد عليها •

وإذا كانت هذه كل مصادره فإنه لا يملك مصادر عن إباضية شمال إفريقيا أيضـا اللهم إلا ما قاله عنهم غـيرهم وهذا متوفر حتى بالنسبة

لإباضية الشرق ، لأن المصدرين اللذين اعتمد عليهما مختصران لا يعطيان صورة حقيقية للموضــوع • وعلى كل فلا داعى أبدا للفصل بين إباضية المشرق أو إباضية المغرب ومع ذلك فقد وقــع نلينو فى خطأ له قيمته فى هذا البحث فقد كتب أبو العباس أحمد الشماخى ترجمة للشيخ عامــر الشماخى وتحدث عن كتابه الإيضاح — الذى يقع فى أربعة أجزاء ضخمة — ووصفه وقال عنه إنه — أى الإيضاح — هو اعتمــاد إباضية المغرب وهذا صحيح وكتاب الإيضاح كتاب فقه خالص يبدأ بالطهارات ولا يتعرض لمسائل علم الكلام ولكن نلينو — فيما يبدو ظن أن المقصود بهذه العبارة هو ذلك المختصر الــذى يسمى بالديانات فجعله معتمد إباضية المغــرب لاسيما نفوسة • وهذا الوهم يعطى كتاب الديانات حقيقة أضخم مما هو عليه فقد سبق الشيخ عامر فى موضوع العقائد وعلم الكلام عدد من أئمــة العلماء كانت كتبهم مراجع له يستمد منها ويستند عليهــا وذلك مثــل عبد الخالق القزانى وعمروس النفوس وتيغورين الملشوطى وأبى عمــار عبد الكافى والمارغنى وغيرهم • وقد استفاد الشماخى — ولاريب منهــم جميعا ولخص عنهم مختصره (الديانات) • ثم إن المستشرق نلينو بعــد أن عمل عملية الفصــل بين إباضية المشرق والمغرب وزعم أنه لا يعــرف عن أولئك ما يعتمده للحكم عليهم ، وأنه يملك ما يعتمده للحكم على تأثر هؤلاء بالمعتزلة ، وقد أثار مجمــوعة من الأسئلة تحتوى على عــدد من الفــروض •

١ — هل هم أخذوه وهم فى الشرق من قبــل أن ينزحوا إلى بلاد المغــرب ؟

٢ — أم هم تقبلوه فى شمال إفريقيا تحت تأثير اتصالهم بالأدارسة من الشيعة ؟

٣ — أم أن إباضية المغرب أضافوا من بعـد فى أفريقيا عنـاصر معتزلية جـديدة إلى ما كان فى الأصـل مشتركا بـين المعتزلة وإباضية الشرق ؟

٤ — أو أن مذهب الإباضية فى الشرق سار ومذهب إباضية المغرب بخطى واحدة متساوية تحت تأثير معتزلى ٠

إن موقف نلينو فى هذه القضية غريب حقا فهو يفترض أن الإباضية تأثروا بالمعتزلة وأخذوا عنهم ويجعل هذه الفرضية حقيقة ثابتة مهما كان موقف الإباضية وهو لا يعرف كيف يبرهن أن الإباضية أخذوا من المعتزلة ولكنه رغم ذلك يصر على هذه الفرضية ويعطى لها عددا من الاحتمالات : أخذوها من الشرق ونزحوا بها ٠٠٠ تقبلوها فى شمال إفريقيا عن طريق الأدارسة ٠٠٠ أضافوا إليهـا فى المغرب عناصر معتزلية ٠٠ سار الإباضية فى المشرق والمغرب بخطى واحدة تحت تأثير معتزلى ؟

ومع هذا الإصرار على هذه الفرضية يعترف أنه لا يعرف شيئا عن مسلك الإباضية عموما فى تقرير عقائدهم فى تلك العصور الأولى التى كان يثور عليها الجدل وتتقرر فى قلوب الناس فهو يذكر أنـه لا يعرف شيئا عن مصادر إباضية المغرب فلم تقع يداه إلا على ملخصات مختصرة ألفت فى القرن السابع فما بعد ٠

كنت أحسب أن من يتعرض لموضوع شائك مثل هذا يريد أن يثبت أن إحدى الطائفتين كانت عالة على الأخرى ينبغى له أن يدرس دراسة

عميقة كل ما عند الطائفتين وأن يقارن المشاكل العقائدية بينهما مشــكلة مشكلة ويتبع تطــورها فى البيئتين حتى يعرف أنها وليدة فى بيئة معتزلية وانتقلت منها إلى الإباضية أو هى وليدة بيئة إباضية وانقلت منهـا إلى المعتلة أو أنها وليدة فى كلتــا البيئتين نمت فيهما حتى اسـتقرت على وضعها الأخير عن كليهما • ولكن نلينو لم يفعل شيئا من هذا لأنه لا يعرف عن عقائد الإباضية شيئا فى خمسة قرون ســابقة حتى عثر على ملخص العقيدة وملخص الديانات •

إن السؤال الأول من تلك الأسئلة يكاد يكون صورة هزلية مضحكة فهو يصور الإباضية لمجموعة من الناس — كمجموعات القبائل البدوية — قوضوا خيامهم وحزموا حقائبهم ، وركبوا جمالهم وخيولهم ثم ارتحلوا من المشرق إلى المغرب ولكن نلينو لم يتأكد حين ارتحلوا هل كانت معهم بعض هذه الخصائص الموجودة عندهم اليوم أم أنهم ارتحلوا متجردين ثم كونوا لأنفسهم هذه الخصائص الموجودة معهم فيما بعد • أعد قراءة الفقرة وتأملها إن شئت تتضح لك الصورة أكثر •

والسؤال بهذه الصورة وهــذه الصيغة تعطينا انطبــاعا معينا عن تصور نلينــو •

والسؤال الثانى يفترض أن الإباضية حينما ارتحلوا من الشرق إلى الغرب إنما جاءوا بدون أصــول وإنما اقتبسوا لهم أصــولا فى المعتزلة عن طريق الأدارسة من الشيعة أو من معتزلة طنجة مباشرة وإنما حملهم على إقتباس الأصــول من هؤلاء ودفعهم إلى ذلك رد الفعــل ضد أهــل السنة واشتراكهم مع الشيعة والمعتزلة فى مقاومة أهل السنة • الواقع أن هذا الكلام لا ينبغى الوقوف عنده طويلا لأنه ليس فيه ما يستدعى ذلك

وهـو مبنى على فروض وتقديرات وهمية ليس لها ما يبررها مطلقا فلا معنى لأن نفترض أن الإباضية عندما ـ نزحوا ـ من الشرق تركـوا هناك عقائدهم لأن الإباضية لم ينزحوا من الشرق إلى الغرب كمجموعات بشرية متنقـلة ولكن الأصـول التى يعتنقونها للعقائد قـد انتشرت فى المغرب الإسـلامى عن طريق الأفراد سواء كانوا علماء جاءوا فى الشرق أو وفودا طلابية ذهبوا من المغـرب إلى المشرق فتلقوا تلك الأصـول فيما تلقوه فى علوم ثم عادوا به أو كان ذلك فى صورة دعاة يدعون إلى تلك الأصـول .

ولأن أصول العقائد ليست أمتعة ثقيلة يتخفف منها من يريـد أن يرتحل يتخذ بدلهـا عندما يسـتقر فى مكانه الجـديد فحتى على فرضية وقوع هذه الصـورة التى تخيلها نلينو وهـو ارتحـال الإباضـية من المشرق إلى المغرب لا يمكن أن يدخل فى التصـور أنهـم ارتحلوا بدون عقائد فلما وصلوا إلى المغرب جعلوا يستعيرون أو يقتبسون أو يسترقون . ان العقائد محلها القلوب وهى لا تخرج عنها فى حـل ولا ترحـال .

ولا معنى لأن نفترض أن رد الفعل حمـل الإباضية على اقتبـاس أصول المعتزلة من الأدارسة الذين اقتبسوها هم الآخرون عن المعتزلة . وهذه السلسلة من الافتراضات . فى الحقيقة ـ موغلة فى الخيال ، فإن أدنى من عنده إلمـام بتاريخ المغرب الإسلامى يعرف حقيقتين لا تقبلان النقاش .

الحقيقة الأولى أن الإباضية قـد انتشروا فى المغرب الإسـلامى ابتداء من ليبيا إلى الأجـزاء الشرقية من المغرب الأقصى قبل الأدارسة

بزمن طويل ، وقبل أن يصـل مؤسس دولة الأدارسة إلى المغرب سـنة ١٧٢ هـ كان الإباضية قد قاموا بأربع محاولات لإقامـة دول كانت ثلاث منها فى ليبيا وكانت المحاولة الرابعة هى قيـام الدولة الرسـتمية التى انتصبت فى تاهرت قبل اثنى عشر عاما من قيـام الأدارسة وكانت قـد استقرت وكمل نظامها واستتب لها الأمن ومعنى هذا أن الإباضية بعقائدهم وفقههم فى التشريع والسياسة قد استقروا وثبتوا عليهـا وفرغـوا من دراستها قبل مجىء الأدارسة من الشيعة إلى المغرب الإسلامى • فكيف يتسنى لهم أن يكونوا رابطة لانتقال العقدئديين المعتزلة والإباضية • ؟ الحقيقة الثانية أن التجهم والتباعد الذى كان بين الإباضية والشيعة • أقوى وأوضح من التجهم أو التباعد الذى كان بين الإباضـية وأهـل السنة أو المعتزلة • والمؤرخون الذين تحدثوا عن الدولة الرستمية وهى إباضية ذكـروا بإسهاب واختصـار كثيرا مـن المناقشـات ومجـالس المناظرات التى كانت تقع فى تاهرت وهى عاصمة الإباضية فى ذلك الحين كانت تجرى بين الإباضية وبعض مذاهب أهـل السنة وبـين الإباضية وبعض فرق المعتزلة أو بـين بعض مذاهب أهـل السـنة وفرق المعتزلة أو حتى بين بعض فرق أهل السنة كالأشاعرة والماتريديه •

ولم تذكر مصادر التاريخ التى بين أيدينا أية مناظرة أو نقاش جرى بين الإباضية وأحـد من الشيعة وهذا يدل على الانقطـاع الكامل بين المذهبين أو الفرقتين • فدعوى أن الإباضية أخذوا من الشيعة أو أن الشيعة أخذوا من الإباضية كلام لا يجـد لنفسه أى مستند يقوم عليه ، أضف إلى هذا أنك لو أخـذت أى كتاب من كتب الإباضية المطـولة سواء كانت فى أصـول العقائد أو كانت فى الفقه فإنك تعثر فيهـا على كثير من آراء

المعتزلة أو أهل السنة سواء كان ذلك فى معرض الاستدلال وعرض الآراء ، أو فى معرض النقد والرد ، ولكنه يندر أن تجد فى كتب الإباضية شيئا عن آراء الشيعة • ويبدو من هذا أنه لم يكن فى المغرب أى احتكاك بين الإباضية والشيعة يسمح باقتباس أحدهما عن الآخر ، فضلا عن أن يكون وسيلة لاقتباس آراء الآخرين • أما الجدل بين الإباضية والمعتزلة فقد كان عنيفا فى الشرق والغرب ، ولعل الجدل قد بدأ بين الإباضية والمعتزلة قبل أن يبدأ بين المعتزلة وأهل السنة • وكتب التاريخ والعقائد تذكر طرفا من تلك المناظرات ، حينما تذكر مواضيعها وبعض ما جرى فيها ، وأحيانا تشير إليها إشارة أو تقتصر على ذكر أسماء المتناظرين من المذاهبين وهذا يدل أن المذهب الإباضى قد استقرت نظرته على الأصول التى اقتنع بها عند التمييز المذهبى فى القرن الثانى الهجرى وليس به حاجة إلى التأثر والاقتباس •

أما السؤال الثالث فهو أيضا يفترض أن تلك المجموعة البشرية التى نزحت من الشرق قد حملت معها بعض معتقداتها ولكنها أيضا أضافت إليها من عقائد المعتزلة فى المغرب • وقد ناقشنا هذه الافتراضات فى الصور السابقة فلا داعى لأن نعود إليها •

أما عن السؤال الرابع فهو يفترض أن المذهب الإباضى فى الشرق وفى الغرب سار بخطى متحدة بتأثير معتزلى •

إن نلينو قد حكم أن إباضية المغرب أخذوا أصولهم العقائدية عن المعتزلة ، وقد استقرت فى ذهنه هذه الفرضية فهو لا يريد أن يناقشها وكأنما اعتبرها حقيقة ثابتة فذهب يتلمس الطرق التى تسربت معها

آراء المعتزلة إلى الإباضية فجعل يتخبط بين مجموعة من الفروض لا تقوم على أى أساس •

ويقول الأستاذ نلينو ص ٢٠٧ ما يلى :

« إلا أن هناك مسألتين اختلف فيهما مذهب الإباضية فى شمال إفريقيا عن مذهب المعتزلة ، أولاهما بالضرورة هى تلك المتعلقة بالطريقة التى يعتبر بها مرتكب الكبائر : وإلا كان على الإباضية — وهم خوارج — أن ينكروا أصلهم إنكارا تاما إن شاءوا إن يعتبروا مرتكب الكبيرة المسلم مؤمنا كما فعل أهل السنة والجماعة أو إن قالوا بالمذهب القائل بأن مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا كافر • بل هو فى منزلة بين المنزلتين كما يقول المعتزلة » • وبعد أن يورد كلاما لبعض علماء الإباضية فى مناقشة الموضوع يقول :

« والمسألة الثانية التى كانت موضوع الخلاف بينهما هى مسألة القدر وحرية العبد فى أفعاله ، فالمعتزلة يقطعون بحرية العبد بينما يقول الإباضية فى شمال إفريقيا بالحرية المحدودة فى صورة الكسب أو الاكتساب عند الأشاعرة » •

إن الالتواء فى منطق نلينو — وهو يعالج هذا الموضوع — واضح بين فهو عندما لم يجد ما يتحمله مبررا للبعد بين آراء الإباضية والمعتزلة فى : قضيتى مرتكب الكبيرة والقدر ، التجأ الى التحاليل فى التبرير ، فزعم أن الإباضية إنما خالفوا المعتزلة فى موضوع مرتكب الكبيرة حفاظا على أصلهم باعتبارهم (خوارج) ولا بد أن نلينو يعرف معرفة تامة أن الإباضية يختلفون اختلافا كبيراً عن الخوارج فى هذه القضية — بل لعلها أشد مواضع

الخلاف بينهم وأكثرها إثارة للخصومة والعنف أحيانا — فبينما يحكم الخوارج على مرتكب الكبيرة بأنه مشرك تنطبق عليه أحكام المشركين — وينفذون تلك الأحكام عليه — لا يرى الإباضية فى مرتكب الكبيرة إلا أنه أخ لهم فى الإسلام له جميع حقوق المسلمين وتنطبق عليه جميع أحكام المسلمين ، إلا أنه بارتكابه للمعصية يستحق منهم الجفاء والمخاشنة فى المعاملة ولا يستحق منهم الاستغفار — وما الى ذلك مما لا يكون أهلا له الا الموفى بدينه الحريص على إسلامه — حتى يتوب •

ولكن نلينو يتغاضى عن هذا الفارق الهام — فى موضوع ارتكاب الكبيرة — بين الإباضية والخوارج ويبنى حكمه على أن الإباضية خالفوا المعتزلة فى هذه المسألة حفاظا على أصلهم • مع العلم أن هذا الأصل الذى يشير إليه نلينو لا أصل له عند الإباضية ، ولم يقوموا به فى يوم من الأيام ولا أحسب أحدا ممن ينتسب إليهم فى القديم أو الحديث ذهب إليه • بل إن كتب التاريخ وكتب العقائد تذكر أن عبد الله ابن إباض حكم على نافع وأصحابه بالكفر بعد الإسلام بسبب قول نافع فى مرتكب الكبيرة إنه مشرك وقد كانت شدة خصومة الإباضية للخوارج فى موضوع مرتكب الكبيرة لا تضارعها عنفا إلا خصومتهم للمعتزلة فى موضوع القدر وخصومتهم للأمويين فى خروجهم فى أحكامهم عن أحكام الشريعة وإذا كانت قضية مرتكب الكبيرة هى أهم ما يميز الخوارج فإن الإباضية — فيها — يخالفون كل المخالفة ما عند الخوارج وقد أورد نلينو فى كتاب الديانات لعامر الشماخى جملة مبتسرة ظهر أنها تفى بالغرض وتدل على المقصود ولكن الجملة ناقصة لأنه نقل شطرا منها وترك الشطر الآخر والتعبير السائد فى جميع كتب العقائد بما فيها كتاب الديانات : « وندين بالمنزلة بين المنزلين ، وأن لا منزلة بين منزلتين » •

وشرح هذه العبارة باختصار أن الإباضية يدينون بأن هناك منزلة بين الشرك والإيمان هى منزلة النفاق أو كفر النعمة • فقد يكون الرجل ليس مشركاً وليس مؤمنا وإنما هو منافق أو كافر كفر نعمة • وهذا الصنف من الناس داخل مع المسلمين فى جميع المعاملات والأحكام الدنيوية كما كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم مع المنافقين ومع مرتكبى الكبائر (كفار النعمة) وهذا معنى قولهم تدين بالمنزلة بين المنزلتين •

أما العبارة الثانية : أن لا منزلة بين المنزلتين فيقصدون بذلك أنه لا توجد منزلة بين الإيمان وبين النفاق أو كفر النعمة فالرجل الذى يقر بكلمة الشهادة إما أن يوفى بها فيكون مؤمنا وأما أن يخونها بالعمل أو الاعتقاد فيكون منافقا (كافراً كفر نعمة) وليس بينهما مرتبة أو درجة • وملخص هذا عند الإباضية أن الناس قسمان : مسلمون ومشركون : المسلمون هم الذين أقروا بكلمة التوحيد وهم قسمان : قسم وفى بما عليه لله قولا وعملا واعتقادا وقسم خان فى بعض ذلك فالأولون هم المؤمنون والآخرون هم المنافقون أو كفار النعمة أو الفساق أو العصاة هؤلاء جميعا تنطبق عليهم أحكام واحدة فى الدنيا ويتساوون فى الحقوق والواجبات اللهم إلا الاستغفار فإنه حق للموفين فقط •

أما المشركون فهم غير المسلمين سواء عبدوا الأصنام أو عبدوا الطبيعة أو لم يعبدون شيئا أو كانوا أهل كتاب فتمسكوا بدينهم الباطل ولم يؤمنوا بالإسلام وهؤلاء كلهم تنطبق عليهم أحكام الشرك اللهم إلا بعض المزايا أو الاستثناءات التى جعلها الله لأهل الكتاب أحسب أن هذا يكفى لايضاح هذه النقطة وربما تناولتها بمزيد من التفصيل فى فصل آخر معتمدا على النقول والنصوص •

أما القضية الثانية التى أشار إليها نلينو — وهى قضية القدر — فلم يجد فيما يبدو أى شىء يستند إليه ولذلك فقد عرضها ثم تركها دون أن يقول عنها شيئا •

ولا شك أن سؤالا لا يتردد فى ذهن القارىء وهو يقرأ ما عرضه نلينو يقول : ما دام الإباضية قد أخذوا جميع أصولهم فى التوحيد عن المعتزلة ، ولم يخالفوهم إلا فى حكم مرتكب الكبيرة حفاظا على الأصل — أو فى القدر فلماذا لم يأخذوا عنهم أيضا رأيهم فى القدر • وهو سؤال سيبقى بدون جواب لأن الشخص الوحيد الذى يمكن أن يجد له جوابا هو المستشرق الكبير نلينو ونلينو قد انتقل الى عالم غير هذا العالم •

ويختتم الأستاذ نلينو بحثه بما يلى :

ليس لدينا فى المصادر المطبوعة ما يسمح لنا بتعيين الزمن الذى اتخذ الإباضية المغاربة أقوال المعتزلة المذكورة آنفا وكل ما نعرفة فى يقين هو أن القول بأن القرآن مخلوق قول قال به السلطان الرستمى فى تاهرت أفلح بن عبد الوهاب الذى حكم بين سنة (١٩٠ — ٢٤٠) كما يستنتج من صفحة ٥٤١ تعليق ١ — من كتاب موتيلنسكى ، وإن مذهب الإباضية المغاربة قد يكون نهائيا فى القرن السادس الهجرى والثانى عشر الميلادى •

المستشرق نلينو يعترف أنه ليس لديه من المصادر المطبوعة ما يستطيع أن يعين به الزمن الذى اتخذ فيه الإباضية المغاربة أقوال المعتزلة • فما هى المصادر التى استطاع — اعتماداً عليها — أن يقرر أن الإباضية فى المغرب قد أخذوا أصولهم من المعتزلة ؟

إذا كانت المصادر غير متوفرة لديه فكيف استطاع أن يكون رأيه على هذا الوجه . ولم لا تكون الحقيقة على الوجه العكسى (١) ؟ أى أن المعتزلة هم الذين أخذوا أصول عقائدهم من الإباضية إذا كان لا بد من افتراض أخذ أحدهما عن الثانى ؟

والحقيقة — كما ذكرنا أكثر من مـرة — أن الافتراض بأن أحـد المذهبين أخذ أصوله من الثانى لا أساس له ولا داعى إليه واعتراف نلينو بعدم توفر المصادر لديه اعتراف سليم وصحيح . لأن مصادر الإباضية التى ذكرها لا تتيح له أن يحكم حكما سليما فى الموضوع الهام الـذى تحدث عنه . فهو لم يذكر إلا عقيدة التوحيد لا بن جميع وهى متن وضع للحفظ والاستنظهار وما يعالج منها قضايا التوحيد الصرفـة لا يعـدو صفحتين أو ثلاثا وكتاب الديانات لابن ساكن الشماخى هو الآخـر متن وضع للحفظ والاستظهار لا يتجاوز صفحتين أو ثلاثا وقد وضع عليـه الثلاثى شرحا لغويا موجزا لا يتعرض للقضايا الكلامية إلا نادرا .

أما كتاب المصعبى وهو شرح لقصيدة أبى نصـر الملوشـانى — والقصيدة أيضا متن وضع للحفظ والاستظهار فقد عنى العناية الكاملـة بالجوانب اللغوية والبلاغية ثم يذكر مجمل المعنى بإيجاز وهكذا فى أغلب الأحوال فإذا ناقش بعض المواضيع لم يتعرض لتاريخها ولا لحركة النقد والرد والأخذ والعطاء التى رافقت تلك المواضيع عند تكـونها . وجميع هذه المؤلفات كانت بعد القرن السابع الهجرى وبعد التميـز المـذهبى

---

(١) يقول أستاذنا الفاضل الامام : بيوض ابراهيم بن عمر فى جواب له عن سؤال للسيد منير عبد القادر سلطان ما يلى :

« وبناء على ما تقدم يمكن أن تعتبر الاباضية أستاذة الفرق الاسلامية فى تأصيل قضايا العقيدة » .

والاستقرار العقيدى لجميع الفرق الإسلامية • فهى لا تعنى غالبا بعرض الأدلة المتداولة التى تؤيد وجهة نظر معينة • ولا شك أن تلك الكتب لا يهمها أن تعرف أول من احتج بدليل ما لأن جميع الأدلة والبراهين فى ذلك الحين أصبحت حقا مشاعا بين علماء كل الفرق • وهذا الموقف — بطبيعة الحال — لا يساعد على معرفة تكون الآراء والعقائد متى حدث ؟ ولا على الأصول التى انبنت عليها • ولا من سبق إليها ومن اقتبس منه •

بقيت نقطة أخيرة ينبغى أن نمر بها قبل أن نختتم هذا الفصل هذه النقطة هى دعوى نلينو أن المذهب الإباضى تكون نهائيا فى القرن السادس الهجرى فماذا يعنى بالتكون النهائى • وما هى المصادر التى استند إليها فى هذا الحكم ؟ إذا كان يعنى بالتكون النهائى — الانتشار العددى ، فإن الإباضية قبل هذا التاريخ بقرن أو قرنين كانوا أكثر انتشاراً فى المغرب الإسلامى وتوزعا فيه • وأنهم فى هذا العصر — القرن السادس — قد تقلصوا الى التجمع فى بعض الواحات فقط • وإن يكن القصد هو التكون العلمى فى مسائل الفروع والاجتهاد فإن هذا التكون لم يتم حتى الآن ولن يتم أبداً لأى مذهب من مذاهب الإسلام لأنه يسير مع الحياة ويتجدد مع الأحداث التى تتطلب من أولى الاجتهاد إعطاءها أحكامها الشرعية • حتى تنتهى حياة الإنسان أما إذا كان يقصد بذلك تكون أصول العقائد وهو المتبادر الى الذهن فالمستشرق نلينو ليس لديه المصادر الكافية — كما يقول — يمكن أن ينبنى عليها حكمه ، فكيف يحدد هذا بالقرن السادس • وهو لا يعرف متى اتخذ الإباضية هذه الأصول عقائد لهم ، سواء استنبطوها من المصادر الإسلامية الأصيلة أو اقتبسوها من غيرهم — المعتزلة أو الشيعة — والحقيقة أن نلينو لوجدّ فى البحث قليلا لوجد أن كثيراً من كتب علم الكلام قد ألفت قبل هذا العهد بأزمنه طويلة قد تتجاوز

القرنين . منها المختصر ومنها المطول ، كما أن حلقات المناظرة والنقاش كانت لا تنفك تجرى بين الإباضية والمعتزلة قبل هذا الأوان بمدة وأنها بلغت من العنف فى عهد الدولة الرستمية ما جعلها تستقدم علماء للجـدل والمناظـرة من ليبيـا إلى الجزائر .

ثم إن الإمام عبد الرحمن بن رستم أحد حملة العلم الى المغرب كان طلبة أبى عبيدة فى البصرة ولا شك أنه حضر كثيراً من مجالس الجدل والخصومة بين الإباضية والمعتزلة وبين الإباضية والخوارج أما الأشاعرة فلم يظهروا بعد فى ذلك الحين بل إن أبا عبيدة هو الذى طرد من مجلسه من يقول بالقدر وهكذا يتضح أن أصـول عقائد الإباضيـة فى المشرق والمغرب قد تم تأصيلها والإستدلال عليها فى عهد الأئمـة ــ جابر وزملائه ثم فى عهد أبى عبيدة وزملائـه وعنهم نقلهـا طلاب العلم الى المشرق والمغرب ربما قبل أن يتم تأصلها عند المعتزلة وبالتأكيد قبل الأشـعرية ولا شك أيضا أن من جاء بعد الأئمة الأولين قد استفاد من بقية علماء الأمة وفرقها ، وربما اقتبس منهم حجة أو دليلا أو أسلوبا فأضافه الى ما عنده من حجج وأدلة .

ولعل مما يفيد القارىء أو يهمه أن نقل له فقرات من رسالة أستاذنا الفاضل الإمام بيوضى إبراهيم بن عمر ــ مد الله فى حياته ــ التى أجاب بها عن أسئلة الأستاذ منير عبد القادر سلطان . فإلى القارىء الكـريم منها ما يلى :

« وتعلمون أن أول مسألة عقائدية افترق بسببها المسلمون (بعـد الخلاف السياسى الذى بدأ فى أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان)

هى مسألة القدر التى عبرتم عنها فى كتابكم (الإرادة الإنسانية والعدل الإلهى) والذى تولى كبرها واصل بن عطاء الغزال إمام الواصلية أو المعتزلة ، ثم مسألة تحديد معنى الكفر والإيمان والمنزلة بين المنزلتين ولا منزلة بين المنزلتين والدى تولى كبرها هم الخوارج المستحلون لأموال البغاة من المسلمين وسبى ذراريهم تبعا لدمائهم إذا حلت بالبغى • ثم مسألة خلق القرآن أو قدمه ، التى أثارها أو شاكر الديصانى الفارسى الذى تظاهر بالإسلام ليفتن المسلمين ويفرق كلمتهم ، فاغتر به المغفلون من الدهماء وأثاروها فتنة شعراء •

فأما واصل بن عطاء فقد قال عنه الشهرستانى صاحب الملل والنحل : الواصلية أصحاب أبى حذيفة واصل بن عطاء الغزالى كان تلميذ الحسن البصرى يقرأ عليه العلوم والأخبار وكان فى أيام عبد الملك وهشام بن عبد الملك • ا هـ • وولاية عبد الملك — كما يذكر المؤرخون كانت سنة خمس وستين ، ووفاته سنة ست وثمانين وولاية هشام من ١٠٥ الى ١٢٥ فيكون اتصاله بالحسن البصرى فى النصف الأخير من عمره • ويروى — كما ذكر الشيخ أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم فى كتابه (الدليل والبرهان) — إن واصل بن عطاء لزم مجلس الحسن البصرى عشرين سنة قبل أن يعتزله • لا نعلم على وجه التحديد السنة التى اعتزل فيها واصل مجلس الحسن ويستفاد من مجموع الروايات والتواريخ إن ذلك كان فى أواخر أيام الحسن وفى أواخر القرن الأول للهجرة وعلى ذلك يكون إمام الإباضية متقدما (١) كثيرا على إمام الواصلية المعتزلة • وتكون فلسفة الإباضية فى

---

(١) ولد جابر بن زيد سنة ١٨ هـ وتوفى سنة ٩٣ هـ على ما رجحه الامام بيوض ولا أعرف متى ولد الحسن البصرى ولكنه توفى عام ١١٠ هـ وولد واصل بن عطاء سنة ٨٠ هـ وتوفى سنة ١٣١ هـ .

الإرادة الإنسانية والعدل الإلهى (القدر) قد تبلورت قبل أن يظهر واصل ابن عطاء لمذهبه » .

وبعد أن يشرح فلسفة الإباضية فى القدر يقول :

« وعن هذه الفلسفة كان الإباضية ينافحون ويكافحون ، ضد الفرقتين الضالتين اللتين أحدثتا بدعة الجبر ، وبدعة خلق الأفعال » .

فأنت ترى أن المذهبين حادثان وأن فلسفة الإباضية أقدم منهـا ، وهى متمسكة بالأصل الذى سبق الإجماع عليه .

وأما بدعة الخوارج الـذين جعلوا المعاصى كلها شركا يحـل بهـا الدم والمال وسبى الذرية فإنها محدثة كذلك . وكان جابر بن زيد ، وأبـو عبيدة مسلم من أكبر تلامذته وعبد الله بن إباض وغيرهم من أتباع الإمام جابر يناظرون الخوارج . وقد نقلنا فيما نقلناه لك قبل . قول صاحب السير فى عبد الله ابن إباض : وله مناظرات مع الخوارج وغيرهم ا هـ . وفى السير أيضا ٧٦ قال ضمام : كان جابر يأتى الخوارج فيقـول لهم : أليس قـد

=

وبهذا تعلم أنه عندما توفى امام الاباضية جابر بن زيد كان واصل بن عطاء مراهقا دون البلوغ . وانه لا يزال فى الخطوات الأولى من الدراسة واذا صح أنه لازم الحسن البصرى مدة عشرين سنة فانه يكون قد التحق بمدرسته وعمره أقل من عشر سنوات ضرورة أنه انفصل عنه قبل وفاته ومهما يكن فان جابرا كان قد بلغ الى حد الاستقرار فى تلك المشاكل وان واصلا لم يبدأ التفكير فيها بعد . أما ما ذكره الشهرستانى عن وجود واصل أيام عبد الملك فغير واضح لأن عبد الملك توفى سنة ٨٦ هـ وعمر واصل حينئذ يكون سـت سنوات . وغير معقول أن يكون واصل فى تلك السن المبكرة قد اشتهر وعرف فى المجالات العلمية .

حرم الله دماء المسلمين بديلنته ... إلخ ا هـ . فأنت ترى أن جابر أسبق هذه الفرق وكان يناظرها ، وسلك تلامذته طريقته هذه فى المناظرة فى حياته وبعد وفاته » . ثم عرض لموضوع خلق القرآن : فشرح رأى الإباضية فى الموضوع بإيجاز ووضوح ثم قال : « وبناء على ما تقدم يمكن أن تعتبر الإباضية أستاذة الفرق الإسلامية فى تأصيل قضايا العقائد » . انتهى المقصود منه .

ويسرنى فى ختام هذا الفصل أن أذكر بالثناء الجم . هذا المجهود القيم الذى بذله المستشرق الكبير نلينو فى هذا البحث الذى كان يهدف منه — فيما يبدو — الى كشف علمى محض ولا يضير هذا المجهود القيم أننا نختلف معه فى بعض الكليات أو الجزئيات ، أو وجهات النظر ، وأن ما كان هو مقتنعاً به ويراه حجة ، لم نقتنع نحن به ، ونراه شبهة تتضاءل عند المناقشة والبحث ، فإن الإخلاص العلمى فى البحث والتجرد له ، كفيل بأن يبعث على الشكر والتقدير .

وهذا ما بدا لنا فى أسلوب نلينو وهو يعالج هذه القضية فنحن نشكره على المجهود القيم . ونختلف معه فى افتراضاته ونتائجه .

اللقاء بين الإباضية وأهل السنة (١)

إن المسائل التى لخصها المستشرق نلينو فى سبع نقاط ثم ذكرها كنماذج للخلاف والتباعد بين الإباضية وأهل السنة وزعم أن الإباضية فيها قد تأثروا بالمعتزلة أو استمدوها منهم — هى فى الواقع مسائل أخذت كثيراً من الجهد والوقت بين علماء المسلمين كافة بمذاهبهم المختلفة وقد جرى فيها النقاش الدقيق بين علماء المذهب الواحد كما جرى بين علماء المذاهب المختلفة ومحاولة تصوير المذاهب الإسلامية كمعسكرات متناحرة محاولة يسر لها المستشرقون كثيراً ويعملون على تركيزها وقد ساعدهم على ذلك بعض السطحيين من علماء المسلمين فى القديم والحديث • وبمثل هذا صارت تلك المسائل بمثابة الشعارات التى يرفعها أصحاب المذاهب ، وكان المتعلمون فى المراحل الأولى من الطلب وأشباه العلماء من محبى الظهور يجدون فيها وسائل طيبة ومساعدة على الجدل والشغب والشهرة وحب الظهور تماما كما يجد العوام فى بعض الخلافات الفقهية العملية — كرفع الأيدى عند التكبير ، وتحريك السبابة عند التشهد ، وقراءة البسملة

---

(١) قال الدكتور مصطفى الشكعة فى كتابه اسلام بلا مذاهب طبعة دار النهضة العربية ص ٣٤٩ ما يلى :

« على أن الشىء الجدير بالمعرفة والاعتبار ان هؤلاء الأئمة ممن ذكرنا لم يعرفوا فى زمانهم أو بعده بعدة قرون باسم ائمة اهل السنة ، وانما كانوا أئمة لعامة المسلمين الا من راى غير رأيهم . ذلك ان تسمية جمهرة المسلمين بأهل السنة تسمية متأخرة يرجع تاريخها الى حوالى القرن السابع الهجرى اى بعد عصر آخر الأئمة المشهورين وهو ابن حنبل بحوالى أربعة قرون » .

فى أول الفاتحة — وسيلة لإظهار المعرفة وبيان شـدة التمسك بالدين والمحافظة على السنة •

فإذا ارتفعنا عن هذه المستويات قليلا إلى مستوى أهل العلم وأصحاب التحقيق وجدنا هذه المسائل تدور فيما بينهم على طرفين متطرفين ووسط معتدل يلتقى عليه المذهبان • ولعل أولئك العلماء الذين يتكون منهم الطرف المعتدل هم المحققون حقيقة وأن الطرفين المتطرفين قد أثرت عليهما مؤثرات ذهبت بهما إلى حيث انفتحت بسببهما بين صفوف الأمة ثغرة وجد فيها أصحاب المصالح الخاصة من المسلمين وغيرهم مدخلا لشق العصا وتفريق الكلمة • وبقطع النظر عما إذا كان الإباضية تأثروا فى النقاط السابقة بالمعتزلة أو لم يتأثروا بهم وهل هم يتفقون فيها معهم كل الاتفاق أو يختلفون اختلافا جزئيا أو كليا فإنى أحب أن أعرض فى هذا الفصل على القارىء الكريم وجوه اللقاء بين الإباضية وأهل السنة فى هذه المسائل نفسها • وسوف نعرضها فى إيجاز شديد نقطة نقطة كما ذكرها نلينو فيما يلى :

١ — القرآن مخلوق أو قديم •

بدأ الشغب حول هذه الكلمة حين أثارها أبو شاكر الديصانى حسب ما يقول بعض أصحاب المقالات فقال بعض الناس عنه إنه مخلوق وقال آخرون غير مخلوق أو قديم واشتد الجدل بين الطرفين ، فتطرف جانب حتى زعم أن المصاحف والحروف قديمة وتطرف الجانب الآخر حتى نفى صنعة الكلام عن الله تبارك وتعالى وكان بين مجموعة الآراء آراء تقترب من هنا أو من هناك • وقد انتهى المحققون من الإباضية وأهل السنة إلى معرفة ما ينبغى أن يوصف بالقديم وما ينبغى أن يوصف بالحدوث فأثبتوا لله تبارك وتعالى صفة الكلام وقالوا هى صفة ذات كالسمع

والبصر والعلم وعبر عنها بعضهم بالكلام النفسى وما عدا ذلك فهو حادث وظهر لهم أن الخلاف بينهم خلاف لفظى — إذا أهملنا جانبى التطرف — وزيادة على هذا اللقاء على مستوى التحقيق فإن من علماء أهل السنة من يقول دون تحرج أو احتراز القرآن مخلوق فقد ذكر الخطيب البغدادى من طرق متعددة عن أبى يوسف أن أبا حنيفة كان يقول القرآن مخلوق أما أبو منصور الماتريدى فقد كان يقول إنه محدث ولم يحفظ عنه أنه قال مخلوق • وقد كان أبو النضر العمانى من أئمة الإباضية يقول إن القرآن غير مخلوق وأنكر إنكارا شديدا على من يقول بخلق القرآن • وذهب القطب من أئمة الإباضية أن هذه المسألة ليست من الأصول وقال أبو إسحاق طفيش إن الخلاف فيها لفظى • وهذا القدر كاف للدلالة على اللقاء بين المذهبين فى هذه المشكلة التى أخذت جهدا غير قليل من علماء الأمة واعتبار الخلاف فيها خلافا لفظيا حين تجرد من أطراف التطرف والعصبية • ويكفى أن يلتقى المسلمون على حقيقتين فى هذا الموضوع هى أن الله تبارك وتعالى سميع بصير متكلم • وأن القرآن الكريم كلام الله عز وجل أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم •

٢ — هل رؤية البارى جل وعلا فى الآخرة ممكنة ؟ !

أحسب أن ما وقع فى مشكلة الرؤية هو نفس ما وقع فى مشكلة الكلام — وإن كانت مشكلة الرؤية قد أثيرت قبل مشكلة الكلام — فقد كان فيها هى أيضا طرفان متطرفان ووسط معتدل هو مكان اللقاء بين المذهبين وذلك أن طرف الإثبات يبالغ حتى يصل به التطرف إلى حد التشبيه والتمثيل والتحديد وطرف النفى يبالغ حتى يصل به

التطرف إلى حد نفى حصول كمال العلم • وبينها يقف أصحاب التحقيق فى الجوانب المتقاربة التى تلتقى فى المعنى الواحد لقاء كاملا أو لقاء متقاربا وهذه الصورة تتمثل فيما ذهب إليه بعض علماء أهل السنة من أن الرؤية معناها حصول كمال العلم بالله تبارك وتعالى وعبر عنها آخرون منهم بأن الرؤية تقع بحاسة سادسة هى كمال العلم واختلفت تعابير الكثير منهم ولكنها تتلائى فى النهاية على نفى كامل الصورة التى يتخيلها الإنسان لصورة رائى ومرئى وما تستلزمه من حدود وتشبيه وتتفق فى النهاية على الابتعاد عما يشعر بأى تشبيه فى أى مراتبه وبالمحدودية فى كل أشكالها ومنهم من التجأ لكى لا يصطدم بنصوص النفى والإثبات إلى أن هذا من أحوال يوم القيامة وليس لنا أن نخوض فيه بغير القدر الذى جاءت به النصوص والمعتدلون من الإباضية لا يمنعون أن يكون معنى الرؤية هو كمال العلم به تعالى ويمنعون الرؤية بالصورة المتخيلة عند الناس فإذا كانت هنالك حالة لا تدخل تحت هذه القيود ولا تؤدى إلى التحديد أو التشبيه وإنما هى شىء يشبه ما يقوله بعضهم من حصول كمال العلم فلا مانع من ذلك يضاف إلى هذا اللقاء إن الإمام الغزالى يميل فى أغلب كتبه إلى نفى الرؤية مطلقا ومنطلق الجميع فى الواقع هو الفرار من التشبيه فالمتطرفون من الإباضية يفرون من كل ما يوهم التشبيه ولو بتأويل بعيد فرارا شديدا ويكتفى المتطرفون من أهل السنة بنفى التشبيه بالنفى القولى وإن دلت عليه ألفاظهم وأدت إليه تعابيرهم وأحسب أن اعتقاد التنزيه والفرار من التشبيه ثم التماس الحلول التى تلتقى عليها النظرتان فى إيضاح مدلول النصوص المتعارضة فى الظاهر هو مقدار كاف للدلالة على أن المذهبين ملتقيان لقاء قريبا يمكن أن يعتبر به كلاهما نابعا من نفس الاتجاه الذى نبع منه الآخر •

٣ ـ معنى الميزان والصراط :

هذه مسألة من المسائل التى استنفدت جهدا ووقتا ووصل بها التحدى الى صور تكاد تكون هزلية أو بهلوانية • يصر فيها بعض الناس أن يكون الميزان يوم القيامة ذا كفتين ولسان ثم يختار كيف يقع الوزن فيذهب فى التصور شوطا بعيدا ويصر بعضهم أن يكون الصراط جسرا فوق جهنم وأن يكون أرق من الشعرة وأحد من السيف ثم يتسابق الناس عليه فمن وقع منهم كان مصيره إلى النار وهم فى سباقهم هذا بحسب أعمالهم أحسب أن هذا التصور يجب أن يرتاح اليوم وإذا كان العلم البشرى منذ ذلك العهد إلى هذا العهد قد اكتشف أنواعا من الموازين والمقاييس لم يبلغ إليها خيال المتخيلين فى ذلك العصر وأنه يصور البحث عن مقاييس للذكاء والعقل وما إلى ذلك ـ فكيف للإنسان اليوم أن يصف موازين الله لأعمال الإنسان يوم القيامة • إن كلا من الإباضية وأهل السنة مؤمنون أن الله سبحانه وتعالى يوم الجزاء يفصل بين عباده وأن قوله تعالى الفصل ، ووزنه الحق ، وحكمه العدل •

ويكفى هذا لقاء بينهما •

٤ ـ تأويل ما يفهم التشبيه :

هذه النقطة أصبح أغلب أهل السنة من الأشعرية والماتريدية يقولون فيها بما يقول به الإباضية واللقاء بينهما فيها تام • وكلهم يرى أن كل كلمة وردت فى القرآن الكريم أو فى السنة النبوية المطهرة تشعر بالتشبيه يجب أن تؤول بما يؤدى المعنى ولا يدل على التشبيه •

٥ ـ مرتكب الكبائر :

يقول الأستاذ على مصطفى الغوابى فى كتابه تاريخ الفرق ص ٨٩ ما يلى :

(أ) الخوارج تقول ان مرتكب الكبيرة مع فسقه وفجوره كافر .

(ب) المرجئة تقول هو مع فسقه وفجوره مؤمن .

(جـ) الشيعة تقول هو مع فسقه وفجوره فاسق .

(د) الحسن البصرى يقول هو مع فسقه وفجوره منافق .

هذا ما يقوله الأستاذ الغوابى ويبدو لى أنه لم يذكر أهل السنة لأنه يرى أنهم يدخلون فى قسم المرجئة ولم يذكر الإباضية لأنه يرى أنهم يدخلون فى قسم الخوارج . ولكن الواقع ليس كذلك فأهل السنة ليسوا مرجئة والإباضية ليسوا خوارج . لأن أهل السنة لا يذهبون إلى ما ذهبت إليه المرجئة من قولهم « لا تضر مع الإيمان معصية » بل إن الماتريدية منهم يرون كما يرى الإباضية أن الوعيد لا يتخلف كما لا يتخلف الوعد ولأن الإباضية لا يرون رأى الخوارج وإنما يرون رأى الحسن البصرى فيعتبرون مرتكب الكبيرة منافقا وليس مشركا . وهنا يلتقى الإباضية وأهل السنة لقاء كاملا ـ بقطع النظر عن التسميات ـ فيتفقون جميعا أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب يدخل النار . أما معاملته فى الدنيا فهى لا تختلف عن غيره من المسلمين .

فاللقاء فى هذه النقطة بينهما كامل .

٦ ــ عذاب النار أبدى (الخلود) :

هذه قضية متفرعة عن القضية السابقة وقد جرى فيها جدل كثير وضح الإمام الغزالى إلى جانب الخلود وقال قطب الأئمة من الإباضية فى رسالته إزالة الاعتراض أن خلود الموحد وعدمه ليس من الأصول التى يكون بها تفسيق معتقد أحدهما •

ويكفى هذا لقاء بين المذهبين •

٧ ــ صفات الله ليست زائدة على ذات الله :

موضوع الصفات من أهم المواضيع التى جرى فيها النقاش الكثير والجدل المتواصل فبينما يقول بعض الأشاعرة أن صفات الله تبارك وتعالى غير ذاته يقول الماتريدية من أهل السنة أن الصفات ليست شيئا غير الذات فهى ليست صفات قائمة بذاتها ولا منفكة عن الذات فليس لها كينونة مستقلة عن الذات • وهذا هو ما يقوله الإباضية فى الصفات أيضا وربما يلتقى الإباضية والماتريدية فى هذه المسألة حتى فى التعبير واختيار الكلمات وهناك من الأشاعرة من يقول بقول الإباضية فى بعض الصفات كالوجود والبقاء ومنهم من يقول بذلك فى جميع الصفات ولعل الإمام الغزالى يميل الى هذا الجانب • أحسب أن هذا المقدار يكفى فى اللقاء بين أهل السنة والإباضية فى موضوع الصفات •

٨ ــ القدر :

يبدو أنه لا خلاف بين الإباضية وأهل السنة فى موضوع القدر وأن المستشرق نلينو مقتنع بذلك •

بعد هذا العرض الموجز أريد أن أقول إن المنتسبين إلى أهل السنة عدد كبير من الفرق الإسلامية وهى تختلف اختلافا بينا فى جميع هذه المشاكل وفيها متطرفون إلى كلا الجناحين فمنهم من يتطرف إلى التشبيه أو قريب منه ومنهم من يتطرف إلى الجانب الثانى حتى يكاد يكون صدى للمعتزلة ولعل الظاهرية وبعض المتشددين من الحنابلة والتيميين يمثلون الجانب الأول ، الجانب المحافظ أو الجاحد إن أبحنا لأنفسنا أن نستعمل هذا التعبير ولعل الماتريدية والإمام الغزالى يمثلون الجانب المتحرر •

والإباضية فى جميع المسائل السابقة يلتقون مع بعض الأئمة أو الفرق من هؤلاء ، فلو أردنا التفصيل لقلنا إنهم يلتقون مع الأغلبية المطلقة فى تأويل المتشابه والقدر •

ويلتقون مع الكثير فى الصفات ومرتكب الكبائر •

ويلتقون مع بعض الأئمة فى صفة الكلام (القرآن مخلوق أو غير مخلوق) والرؤية والخلود •

وأعنى بالالتقاء أن أحد الفرقتين تقول بنفس ما تقول به الأخرى أحيانا وتختلف عنها أحيانا فى الإجمال وتلتقى فى التفصيل وتختلف عنها أحيانا فى المشهور ويوجد فى إحدى الطائفتين علماء يميلون إلى ما تقول به الطائفة الأخرى فى كثير من الأوقات ولن تجد عند التحقيق انقطاعا كاملا بينها أبدا فى جميع المسائل اللهم إلا إذا سلكت مسلك المتطرفين من أحد الفريقين ولا شك أن هذه المقارنة يمكن أن

تجرى أيضا مع أهل السنة والمعتزلة أو مع الإباضية والمعتزلة وربمـا يكون فيها اللقاء مثل هذا أو قريبا من هـذا • فإن جميع هذه الفـرق إنما تصـدر عن منبع واحـد هو كتاب الله وسنة رسـوله رغم ما يقوله القائلون فى الخلاف ورغم ما أدى إليه الاجتهاد بسبب اختلاف الفهـم والاقتناع بمنطقية الدليـل •

محتـــويات الكتـــاب

رقم الصفحة

ص . ب : ٦٦٨ مسقط ، الرمز البريدي ١١٣ سلطنة عمان

رقم الإيداع : ٩٤/٢٤٠

طبع بمطبعة المدينة ـ الخوض ـ سلطنة عُمان
هاتف : ٥٤٢٢٨١ فاكس : ٥٤٢٢٨٠